موسوعة تاريخ العصور الوسطى والحروب الصليبية

الجذور التاريخية للحروب الصليبية



د. علي محمد محمد الصلابي

دار الكتاب الحديث

موسوعة تاريخ
العصور الوسطى
والحروب الصليبية

الجذور التاريخية للحروب الصليبية

الدكتور
علي محمد محمد الصلابي

دار الكتاب الحديث

953.07393 الصلابي ، علي محمد محمد .

ع م ج ت الجذور التاريخية للحروب الصليبية/ علي محمد محمد الصلابي .–ط 1.– القاهرة:دار الكتاب الحديث ،2008م.

286 ص ؛ 24 سم .– موسوعة تاريخ العصور الوسطى والحروب الصليبية).

تدمك:5 -182-350-977

1– الحروب الصليبية . أ –العنوان .

ب– السلسلة .

دار الكتاب الحديث

القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (202 00) فاكس رقم : 22752992 (202 00) بريد إلكتروني : **dkh_cairo@yahoo.com**
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : **ktbhades@ncc.moc.kw**
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail **dkhadith@hotmail.com**

رقم الإيداع	2008/1795
I.S.B.N	977- 350-182 -5

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين اللَّه ونصرته،
أهدى هذا الكتاب سائلاً المولى - عزَّ وجلَّ - بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿... فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف]

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ (آل عمران).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ (النساء).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ (الأحزاب).

أما بعد: يارب لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى. هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة وعهد الدولة الأموية، وعهد السلاجقة، وعصر الدولة الزنكية، ودولة المرابطين والموحدين، وعهد الدولة العثمانية، وقد صدر منها: السيرة النبوية، وأبو بكر وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والحسن بن على، ومعاوية بن أبى سفيان وعمر بن العزيز، وفقه النصر والتمكين فى القرآن الكريم، والثمار الزكية للحركة السنوسية، والسلطان محمد الفاتح، والشيخ عبد القادر الجيلانى، والإمام الغزالى، وحقيقة الخلاف بين الصحابة، وفكر الخوارج والشيعة فى ميزان أهل السنة والجماعة، والوسطية فى القرآن الكريم، وعقيدة المسلمين فى صفات رب العالمين. وقد سميت هذا الكتاب : صلاح الدين الأيوبى وجهوده فى القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ويعتبر حلقه مهمه فى سلسلة الحروب الصليبية والتى خرج منها السلاجقة والزنكيون والتى نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن تكون لوجهه خالصة ولعباده نافعة ويطرح فيها القبول والبركة ويرزقنا حسن القصد وإخلاص النية لوجهه العلى الكبير ويوفقنا لإكمال الموسوعة التاريخية التى نسعى لإخراجها.

وهذا الكتاب يتحدث عن صراع المشاريع، بين المشروع الصليبي والفاطمي الشيعي، والمشروع الإسلامي السني، فقد لخص الفصل الأول؛ الحملات الصليبية التي سبقت قيام الدولة الأيوبية، فتكلم عن الجذور التاريخية للحروب الصليبية، كالصراع البيزنطي الإسلامي في صدر الدولة الإسلامية، والأسباني الإسلامي بالأندلس، وطبيعة الحركة الصليبية التي قادها أوربان الثاني، وحركة الالتفاف على العالم الإسلامي التي تصدى لها العثمانيون وحركة الاستعمار الحديث، وأشرت إلى أهم أسباب ودوافع الغزو الصليبي، كالدافع الديني والسياسي والاجتماعي، والاقتصادي، وتبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط في صقيلة والأندلس، وإفريقية، واستنجاد إمبراطور بيزنطة بالبابا وشخصية أوربان الثاني ومشروعه الشامل للغزو الصليبي وحملته الدعائية، وعقليته التنظيمية، وشرحت بدء الحرب الصليبية الأولى واستراتيجيتهم بعد الاحتلال، وظهور حركة المقاومة في العهد السلجوقي، والمشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة في ساحات الجهاد، وتحريضهم على القتال في ساحات المعارك، ودور الشعراء في حركة المقاومة، وترجمت لقادة الجهاد من السلاجقة الذين سبقوا عماد الدين زنكي، وجهودهم في التصدي للغزاة كقوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش أمير الموصل، وسقمان بن اتق حاكم ماردين وديار بكر وقلج أرسلان أمير سلاجقة الروم وشرف الدولة مودود بن التونتكين حاكم الموصل والذي تعتبر حملاته الجهادية مقدمة لحملات عماد الدين زنكي، وأشرت لمعوقات حركة الجهاد في عهد أمراء السلاجقة والتي كان من أهمها الباطنية، التي أثبتت عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين، وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر في بعض الأحيان في الشهادة – فمن قبل اغتيل شرف الدين مودود، والآن نجد آق سنقر البرسقي يلقى نفس المصير وقد عكس ذلك كله: أن مسلك الإسماعيلية النزارية في ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة نظراً لوجود عدوين في وقت واحد أمام القيادات المسلمة السنية على نحو عكس المشاق البالغة التي واجهت أولئك القادة في الدفاع عن عقيدة الأمة ودينها وأبرزت جهود عماد الدين التي استطاع

من خلالها أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه مكانة خاصة فى التاريخ الإسلامى كسياسى بارع وعسكرى متمكن ومسلم واعٍ أدرك الخطر الذى أحاط بالعالم الإسلامى من قِبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية لصالح المسلمين وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة فى نطاق دولة واحدة. استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات فى سبيل تحقيق برنامجه المزدوج من تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين ويعتبر فتح الرها عام 539هـ من أهم إنجازات عماد الدين وكان لسقوطها فى أيدى المسلمين ردة فعل عنيفة فى الغرب الأوروبى وباعثاً على السرعة فى إرسال حملة صليبية جديدة بعد أن أثار سقوطها الرعب فى النفوس، فقد جاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء فى الشرق الأدنى وقد تصدى نور الدين وسيف الدين غازى أبناء عماد الدين للحملة الصليبية الثانية على دمشق، وحققوا انتصاراً كبيراً مع أهالى دمشق على الحملة الصليبية الثانية، ولقد نجح نور الدين فى استغلال الظروف التى أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية، فى توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاد الصليبيين بنجاح مما شجع لقوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة فى الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضاً فى جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكى أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التى امتدت من الفرات إلى النيل والتى تصدت بحق لهذا الخطر الصليبى، وقد تحدثت عن فقه نور الدين فى التعامل مع الدولة الفاطمية وعن جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية وعن جرائمهم البشعة فى الشمال الأفريقى، كغلو بعض دعاتهم فى عبيد الله المهدى، والتسلط والجور، وتحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك، وإبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة، ومنع التجمعات وإتلاف مصنفات أهل السنة، ومنع علماء أهل السنة من التدريس وعطلوا الشرائع وأسقطوا الفرائض، وإجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال، وإزالة آثار خلفاء السنة، ودخول خيولهم المساجد. وتكلمت عن أساليب المغاربة فى مواجهة الدولة الفاطمية، كالمقاومة السلبية والجدلية، والمقاومة عبر التأليف، ودور شعراء أهل

السنة، وبينت كيف زالت الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا وكيف انتقلت إلى مصر، وذكرت جهود المدارس النظامية في حركة الإحياء السني والتصدي للفكر الشيعي، وجهود الإمام الغزالي في دحر الشيعة، والحملات النورية العسكرية على مصر، كالحملة الأولى، والحملة النورية الثانية، والحملة النورية الثالثة على مصر، وتحدثت عن إلغاء الخلافة الفاطمية، والتدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي، والاعتبار والاتعاظ من زوال الفاطميين من مصر والوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمي، كإذلال الخليفة الفاطمي العاضد، ووضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي وقطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية وألغى جميع الأعياد المذهبية الفاطمية، ومحو رسوم الفاطمية وعملاتهم، والحفاظ على أفراد البيت الفاطمي، وإضعاف العاصمة الفاطمية، وإحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، والاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن، وذكرت فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين زنكي، وجهاد الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين، وحقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين.

وفي الفصل الثاني كان حديثي عن قيام الدولة الأيوبية، فذكرت أصول أسرته ونشأته وولادته ومتى بدأت الدولة الأيوبية والرصيد الخلقي لصلاح الدين، كتقواه وعبادته، وعدله، وشجاعته، وكرمه، واهتمامه وحلمه، ومحافظته على أسباب المروءة، وصبره واحتسابه، والوفاء، وعقيدة الدولة وتوسع الأيوبيين في إنشاء المدارس السنية، كالمدرسة الصلاحية، ومدرسة المشهد الحسيني، والمدرسة الفاضلية، ودار الحديث الكمالية، والمدرسة الصالحية وجهودهم العلمية في الشام والجزيرة، وعناصر الثقافة السنية في العهد الأيوبي، كالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأصول العقيدة السنية والدراسات الفقهية، واهتمام الأيوبيين بحماية طريق الحج والحرمين الشريفين، ومحاربة الأيوبيين للتشيع في مصر والشام واليمن، وتكلمت عن مكانة العلماء والفقهاء عند صلاح الدين، كالقاضي الفاضل، الذي كانت له مساهمات في ديوان الإنشاء، وتطوير جيش صلاح الدين، والقضاء على المعارضة الفاطمية وإعادة التنظيم الإداري في مصر وجهوده في الإحياء السني في مصر وجهاده ضد الصليبيين، وعن توظيف الأدب في خدمة الإسلام وحرصه على

وحدة العالم الإسلامى، فقد كان القاضى الفاضل المتحدث الرسمى بلسان السلطان صلاح الدين فى الداخل والخارج، وكان على قول ابن كثير أعز عليه من أهله وولده، وكان السلطان يشيد بفضله فيقول: لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضى الفاضل، وقد بلغ القاضى الفاضل مكانة سامية فى الدولة، فكان الساعد الأيمن لصلاح الدين إذ جعله وزيره ومشيره بحيث كان لا يصدر أمراً إلا عن مشورته ولا ينفذ شيئاً إلا عن رأيه ولا يحكم فى قضية إلا بتدبيره. وهذا العالم من فقهاء النهوض، والأمة فى أشد الحاجة لمثل سيرته، فتعلمنا سيرته أهمية عدم الانعزال فى الشأن العام والعمل الاجتماعى والحكومى والحرص على كسب الخبرات، وأهمية التميز فى أداء العمل والتمسك بمنهج أهل السنة والتعاون مع إخوانه فى العقيدة الصحيحة، وتوظيف القدرات والإمكانات لخدمة المشروع السنى، فقد قدّم لصلاح الدين النماذج السنية القيادية والخطط العملية، ولم يبخل على صلاح الدين برأى ولا مشورة ولا تجربة، كما أن حياة هذا الرجل مدرسة فى فهم مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد وبناء الدول وزوالها وترك لنا منهجاً فى التعامل مع الشيعة وأهمية معاملة عامتهم بقوانين العدل ومحبة الخير لهم وعدم سفك دمائهم والحرص على تعليمهم وإنما يكون استخدام القوة ضد المؤامرات والتكتلات العسكرية ومع من لا يجدى معهم إلا استخدام القوة، كالدولة الفاطمية فى مصر. فقد ساهم فى وضع الخطط والأساليب والوسائل للقضاء عليها سياسياً وعسكرياً وفكرياً، وبينت جهود أبى الطاهر السِّلفى وأبى الطاهر بن عوف المالكى فى خدمة الإسلام فى الإسكندرية وحرص صلاح الدين على زيارتهم والأخذ من علومهم، وتحدثت عن الفقيه عيسى الهكارى وإسناده لصلاح الدين فى وزارته، وإصلاحه بين نور الدين وصلاح الدين ومساهمته فى الصلح مع أهل الموصل، ونجاحه فى تنفيذ المهمات الخاصة الموكلة إليه وشجاعته فى الحروب وقيادته الميدانية فى المعارك، وترجمت للعماد الأصفهانى القاضى الإمام العلاّمة المفتى، الوزير، وبينت جهوده فى خدمة المشروع الإسلامى السنى، وخلاصة القول أن العلماء والفقهاء كانوا يحتلون مكانه عظيمة وحظوة كبيرة عند صلاح الدين ونالوا منه كل عطف ورعاية واحترام وتقدير من الناحيتين المادية، والمعنوية، وبينت الإصلاح الاقتصادى واهتمامه بالزراعة والتجارة والصناعات، وإلغاء المكوس والاكتفاء بالموارد الشرعية وبناءه للمستشفيات، والخوانق *بيوت

الصوفية* والخانات في الأماكن المنقطعة البعيدة عن العمران، وفي الطرق الموصلة بين المدن وذلك لخدمة أبناء السبيل والمسافرين، واهتمامه بالإصلاح الاجتماعي ومحاربته للعوائد والتقاليد المنحرفة والأخلاق الرديئة، وأشرت للإصلاحات العمرانية والإدارية ورجال الإدارة في عهده، وشرحت النظم العسكرية في عهده، كتطور الإقطاع الحربي، وديوان الجيش وزى الأجناد، والتموين والتعبئة العسكرية، والفرق الملحقة بالجيش، كالهندسية، والطبية وتنظيم البريد والاستخبارات، وإدارة شؤون القتال والسلم، والأسرى، ومجلس الحرب، وخطط وأساليب القتال، كأسلوب الحرب الخاطفة، وخطة القتال بالتناوب، وتخريب المدن، وتأمين الطرق، وتحصين الثغور والقلاع والحصون، والاستفادة من مواسم القتال، ومعاملة الأسرى والمعاهدات بين صلاح الدين والصليبيين، وأسلحة الجيش الأيوبي والبحرية الإسلامية، ودور المغاربة في الأسطول الصلاحي، وبينت جهوده في توحيد الجبهة الإسلامية ومحاولات الشيعة الإسماعيلية للقضاء عليه، عن طريق الاغتيالات ولكنّها فشلت بحمد الله وتوفيقه وأسلوب صلاح الدين لتأديبهم وعلاقته مع الخلافة العباسية والدولة البيزنطية والصليبيين قبل حطين، وترتيبه للأمور الإدارية والعسكرية قبل المعركة الفاصلة.

وفي الفصل الثالث من الكتاب كان الحديث عن معركة حطين، وفتح بيت المقدس والحملة الصليبية الثالثة، وشرعت في بيان أحداث معركة حطين وبداية الهجوم الإسلامي، والحرب الصليبية عند صلاح الدين، وخسائر الصليبيين وأسباب الانتصار في معركة حطين، من التعامل مع السنن، كسنة الإعداد والأخذ بالأسباب، وسنة التدرج، وبعد نظر صلاح الدين وحنكته السياسية، وإخلاصه العظيم لله عز وجل، وتطبيق شرع الله في دولته وبركات ذلك، كالاستخلاف والتمكين، والأمن والاستقرار والعز والشرف، والنصر والفتح، وأثر العدل في تحقيق الانتصارات، وإعداد جيل مقاتل فيه صفات جيل التمكين، وحسن الصلة بالله واللجوء إليه بعد الإعداد، ونجاح العمل الاستخباراتي، وردود أفعال العالم الإسلامي والصليبي من معركة حطين، وفتوحات الساحل قبل فتح القدس ونتائج معركة حطين، ككونها معركة فاصلة وحاسمة وأهمية الوعي الجغرافي في فقه الصراع وإدارته، والجهود التراكمية في تحقيق الانتصارات الكبرى للأمم، وتحدثت

عن خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير بيت المقدس، كالبعد الإعلامي، وتحشيد الجنود والتعبئة الشاملة والحصار والقتال والهجوم الحاسم والمفاوضات ثم تسليم بيت المقدس وتحرير القدس ووفاء صلاح الدين بوعده ورحمته بالأسرى والشيوخ والنساء، وزوجات القتلى وبناتهم واحترامه مشاعر المسيحيين، وتنفيذ الوعود ابتغاء مرضات الله وبشعور إنساني فيّاض وبروح فروسية عالية، واقتداء رشيد بالخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما فتح القدس في خلافته، فقد ظهرت للغربيين روعة الإسلام في ممارسات صلاح الدين في السلم والحرب واحترام حرية الرأى والمعتقد، والحفاظ على القيم الإنسانية الرفيعة والتعاليم الإسلامية السامية. قال الشاعر:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلّما ملكتم سال بالدم أبطح

وحَلَّلتُمْ قتل الأسارى وطالما ... عدونا على الأسرى نَمُنُّ ونصفح

وحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل وعاء بالذى فيه ينضح

وذكرت إصلاحات صلاح الدين في بيت المقدس وإرساله البشائر والوفود إلى أنحاء العالم الإسلامي، واختلاف صلاح الدين مع الخليفة العباسي، وحضور العلماء في فتوحات القدس وغيرها ودوّنت بعض القصائد في مدح صلاح الدين وفتح بيت المقدس كقول أبي على الحسن بن على الجويني في فتح القدس:

جُنْدُ السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح برهان

متى رأى الناس ما نحكيه في زمن ... وقد مضت قبل أزمان وأزمان

هذى الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشُكرِ بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصّيد في يده ... صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانُوا

وقول أسامة بن منقذ في مدح صلاح الدين:

والناصر الملك المتوج ناصرى ... وعلاه قد خطت كتاب أمانى

قد كنت أرهب صرف دهرى قبله ... فأعاد صرف الدهر من أعوانى

أنا جـاره ويدُ الخطوب قـصـيـرة عن أن تنال مـجـاورَ السلطان

إلى أن قال:

فـلأهدينَّ إلى عـلاه مـدائحـاً تبـقى على الأحـقـاب والأزمـان

مـدحـاً أفـوق به زهيـراً مـثلمـا فـاق المليك الناصـر ابن سنان

يا ناصـر الإسلام حـين تخـاذلت عنه الملوك ومظهـر الإيمـان

بك قـد أعـزّ الله حـزب جنوده وأذل حـزب الكفـر والطغـيان

لما رأيت النـاس قـد أغـواهم الشـيطان بالإلحاد والعـصـيان

جـرّدت سيـفك في العداء لا رغبـة في الملك، بل في طاعـة الرحـمن

فضـربتـهم ضرب الغرائب واضـعاً بالسـيف مـا دفـعـوا من الصلبان

وغـضـبت لله الذي أعطاك فـصل الحكم غـضـبـة ثائر حـرّان

وذكرت أهم الدروس والعبر والفوائد في تحرير بيت المقدس، كأهمية العلماء الربانيين في إيقاظ الأمة، وتربية الجيل على عقيدة الإسلام الصحيحة، وتحرير الولاء لله ورسوله والمؤمنين، ووحدة الأمة، ووضوح الراية الإسلامية للمعركة ووجود استراتيجية بعيدة المدى، وكوادر علمية تحيط بالواقع علماً، وأهمية توبة الأمة وعودتها إلى الله عز وجل وبعدها عن المعاصي، ولا طريق لتحرير فلسطين وأراضي المسلمين المحتلة إلا بالجهاد في سبيل الله بمعناه الواسع الشامل، الجهاد السياسي، والإعلامي والروحي والعلمي والتخطيطي والقتالي ... إلخ.

وتعرضت للحملة الصليبية الثالثة وردة فعل الغرب الأوروبي من تحرير بيت المقدس والتعبئة الشاملة التي حدثت وما ترتب عليها من حملة صليبية ثالثة، كان فيها الملوك والأمراء ورجال الدين المسيحي. وقد شارك في تلك الحملة امبراطور ألمانيا، وملك إنجلترا، وملك فرنسا إلا أنها لم تحقق هدفها بفضل الله ثم جهود صلاح الدين والأمة المسلمة الملتفة حوله من بلاد الشام ومصر والعراق والمغاربة وغيرهم، وتكلمت عن طبيعة المفاوضات بين الملك العادل أخ صلاح الدين

وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا التى استمرت خمسة عشر شهراً واقتضت 42 وفداً توجت بصلح الرملة. وقد تميزت هذه الحملة الصليبية بحدوث تفاهم كبير مع المسلمين فكان الطرفان شديدى الصلة ببعضهما وتعدّى ذلك إلى طرح مشروع المعاهدة وإرسال الفواكه والثلج لريتشارد قلب الأسد أثناء مرضه وحضور طبيب صلاح الدين لمعالجته وكان من آثار هذا الاختلاط فى حياة الفرنج ما يأتى:

* نقلوا عن المسلمين كثيراً من العلوم والمعارف التى كانت سائدة بينهم فى تلك الفترة، وقد ألفوا فيها كتباً احتوت كثيراً من التجديد والابتكار ووضع القوانين فى هذه العلوم.

* نقلوا عن المسلمين كثيراً من الصناعات والفنون مثل صناعة النسيج والصباغة والمعادث والزجاج كما نقلوا عنهم فن العمارة، وكان لهذا النقل تأثير عميق فى حياة أوروبا الصناعية والتجارية والفنية.

* تأثرت الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية تأثراً أدى إلى نمو الحضارة الغربية وازدهارها وساعدتها الحضارة الإسلامية على الخروج من بحر الهمجية الظلامية فى تلك العصور وهذا باعتراف المستشرقين قبل مؤرخى المسلمين.

وذكرت مرض صلاح الدين وأيامه الأخيرة وملازمة أحد الشيوخ له وقراءة القرآن عليه ولما بلغ القارئ قول الله تعالى " لا إله إلا هو عليه توكلت" تبسّم وتهللَ وجهه وسلَم روحه إلى خالقها سبحانه، ولم يترك فى خزانته من الذهب سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً وقيل سبع وأربعين درهماً ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً ولا شيئاً من أنواع الأملاك، وختمت الكتاب بقصيدة العماد الأصفهانى فى رثاء صلاح الدين والتى قال فيها:

شَملُ الهُدى والُملكِ عَمَّ شَتاتُهُ ... والدَّهرُ ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مُذْ لم يزل مخشية ... مرجوّة هبَّاتُهُ وَهِبَاته
أين الذى كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين النّاصر الملك الذى ... لله خالصة صفت نيّاتُهُ

أين الذى مـــا زال سُلطانا لنا ... يُرجى نَداه وتُتَّــقى سَطَواته

إلى أن قال:

فى نصـرة الإسلام يسهر دائماً ... ليطول فى روض الجنان سُبَاتُهُ

لا تحسبوه مات شخص واحدٌ ... فممات كل العالمين مماته

لقد تأثر الناس بوفاة صلاح الدين، حتى المؤرخون الأوروبيون ترحموا عليه وأشادوا بعدله وبقوته وتسامحه واعتبروه أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية قاطبة، وستظل بإذن الله تعالى سيرة صلاح الدين تمد أبناء المسلمين بالعزائم الصلاحية التى تعيد إلى الحياة روعة الأيام الجميلة الماضية وبهجتها وبهاءها وترشد الأجيال إلى أهمية استيعاب المشروع الإسلامى الحضارى الكبير تحت راية أهل السنة والجماعة. وقد طويت بوفاة صلاح الدين صفحة من أنصع صفحات التاريخ، وأنقاها، فقد عرف فيه التاريخ رجلاً فذاً من طراز نور الدين محمود الشهيد، لم يكن همُّه جمع المال، ولم تستهوه زخرفة السلطان، ولم تمل به عن جادة الحق سطوة الحكم، فقد كان همّه انتصار الإسلام وأعظم أمانيه سيادة الشريعة، وأقصى غايته تطهير بلاد المسلمين من الصليبيين، وإرغامهم على الهزيمة والرجوع من حيث ما أتوا.

إن من الدروس المهمة من هذا الكتاب معرفة المشاريع المتصارعة فى عهد صلاح الدين، فقد كانت ثلاثة تتطاحن على قدم وساق، وهى المشروع الصليبى والذى تتزعمه الكنيسة من عهد أوربان الثانى والمشروع الشيعى الرافضى بقيادة الدولة الفاطمية بمصر والمشروع الإسلامى الصحيح وحامل لوائه بعد نور الدين صلاح الدين، فكانت المحاور التى سار عليها أهل السنة دولة وشعباً، تعميق الهوية العقائدية السنية والإحياء الإسلامى الصحيح فى نفوس الأمة والتصدى لشبهات المذهب الشيعى وإعداد الأمة لمقاومة الصليبيين، وكانت المحاور متداخله من حيث السير إلا أن تحرير بيت المقدس والقضاء على الصليبيين فى معركة حطين لم يتم إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية سياسياً وعسكرياً، وقد سبقتها الانتصارات العقائدية والفكرية والثقافية والتاريخية والحضارية للمذهب السنى.

إن الذين استطاعوا تحرير بيت المقدس وانتزاع المدن والقلاع والحصون من الصليبيين هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة فتصدوا لها بكل حزم وعزم. إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لابد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرف مستقبلها.

إن قراءة التاريخ تضيف للباحث والقائد والزعيم والملك والرئيس أعمار السابقين، وأما الوعي بالتاريخ فإنه يوظف ثمرات هذه القراءة في تغيير الواقع، واستشراف المستقبل؛ ولذلك يستحيل التقدم وينعدم النهوض عند الذين لا يفقهون ولا يتعرفون على سنن الله وقوانينه وعبره وعظاته من خلال التاريخ.

إن النهوض بوجه عام يحتاج إلى سلاح القلم واللسان، ولم ينجح مشروع نهضوي عبر التاريخ من غير أقلام قوية أو ألسنة تعبر عن قلوب صادقة تدعو إليه وتنشر مبادئه بين الناس، وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الصراع والحوار والجدال وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد والثقافات والمناهج، وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري، فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد السيف واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي التي تلد الكتائب.

إن موسوعة الحروب الصليبية – والتي صدر منها كتاب السلاجقة وعصر الدولة الزنكية وهذا الكتاب – قد أجابت عن الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية والإقليمية والعالمية، وهذه الحقبة من تاريخ الأمة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً على أن الإسلام قادر في أية لحظة تتوافر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول، والذكاء الواعي واستيعاب فقه السنن والنهوض وقوانين الحضارات وبناء الدول على إعادة دوره الحضاري والقيادي وإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى عدل الإسلام.

هذا وقد انتهيت من هذه المقدمة في 15 شعبان 1428هـ – 28 أغسطس / 2007م الساعة الرابعة بعد صلاة العصر. والفضل لله من قبل ومن بعد وأسأله

سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل ويشرح صدور العباد للانتفاع به ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده. قال تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ② ﴾ (فاطر). ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلي عقلي ونفسي وتركني للقلم الذي بين أصابعي لتبلد مني العقل، ولغابت الذاكرة وليبست الأصابع وجفت العواطف ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان. إلهي: إنك لتعلم أن لي مع كل واحد ممن تحدثت عنهم في كتبي وقفة لها قصة أو خبر وإنك لتعلم حرصي على إحياء سيرهم كوسيلة لنصرة دينك وأن أنال بذلك كريم مرضاتك يا أكرم الأكرمين، اللهم بصّرني بما يرضيك واشرح له صدري وجنبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري وأسالك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل عملي لوجهك خالصاً ولعباده نافعاً وأن تثيبني على كل حرف كتبته وتجعله في ميزان حسناتي وأن تثيب إخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه قال تعالى: ﴿ ... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ⑲ ﴾ (النمل).

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿ ... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑩ ﴾ (الحشر).

وبقول الشاعر:

ومن عجب أني أحن إليهم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

"سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك"

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الإخوة الكرام يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamad2@maktoob.com



الحملات الصليبية التى سبقت قيام الدولة الأيوبية

المبحث الأول: الجذور التاريخية للحروب الصليبية

إن مما يجدر ذكره أن الحرب الصليبية بين المسلمين والنصارى الغربيين وغيرهم، لم تبدأ فى نهاية القرن الخامس الهجرى، ولم تنته فى القرن السابع الهجرى، بل هذه الحملات هى سلسلة فى هذا الصراع الطويل، الذى بدأ بظهور الإسلام[1]، واستمر بصيغ دورية متعاقبة كادت تغطى المدى الزمنى ظهور الإسلام والعصر الحديث، ويمكن تقسيمه على ستة من المحاور التى استمر عليها هذا الصراع، ولم يكن أدوار الصراع على كل واحد من هذه المحاور يفتر قليلاً حتى يشب ثانية فى محور جديد لا يقل عنه ضراوة وعنفاً واستنزافاً للطاقات الإسلامية فى مساحات واسعة من الأرض[2] وهذه المحاور هى:

أولاً: البيزنطيون:

ترجع بدايات التحرك البيزنطى المضاد للإسلام إلى عصر الرسالة نفسه، فمنذ العام الخامس للهجرة وعبر معارك دومة الجندل، وذات السلاسل، ومؤتة، وتبوك، وانتهاء بحملة أسامة بن زيد رضى الله عن الصحابة أجمعين، كان المعسكر البيزنطى يتحسس الخطر الإسلامى الجديد القادم من الجنوب لاسيما بعدما تمكنت الدولة الناشئة من فك ارتباط العديد من القبائل العربية شمالى الجزيرة من سادتهم القدماء الروم، وسواء كان البيزنطيون يتحركون ضد القوات الإسلامية بفعلهم ابتداء أو كرد فعل لتحرك إسلامى، فإن المحصلة الأخيرة هى أن هذا المعسكر بدأ يدرك أكثر فأكثر حجم التحدى الجديد ويعد العدة لوقفه، صحيح أن هذه العدة لم تكن – أحياناً – بالحجم المطلوب، ربما بسبب عدم دقة المعلومات التى كانت

(1) دروس وتاملات فى الحروب الصليبية لأبى فارس ص 30.

(2) هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى د.عماد الدين ص 26.

القيادة البيزنطية تبني عليها مواقفها إلا أن النتيجة هي أن النار اشتعلت عبر هذا المحور وازدادت اشتعالاً بُعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتدفق القوات الإسلامية في البلاد التي يسيطر عليها البيزنطيون[1]، وبعد إخراج البيزنطيين من ممتلكاتهم في آسيا وأجزاء من إفريقيا على يدي القيادة الراشدة، التي شهدت المراحل التالية من العصر الراشدي، محاولات التفاف، ردود أفعال عديدة وهجمات مضادة نفذها هذا المعسكر في البر والبحر، ولكنها آلت في معظمها إلى الخسران، ثم ما لبث البيزنطيون أن انحسروا عبر العقود التالية، وبفضل الملاحقة الدؤوبة التي قام بها الأمويون[2] - ابتداء من معاوية رضي الله عنه مؤسس الدولة الأموية وعهد عبد الملك بن مروان وبنيه خصوصاً الوليد وسليمان - وقد تم شرح ذلك وتفصيله في كتابي الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار - واستمرت الملاحقة النشطة للبيزنطيين بعد الأمويين في الشام ومصر وشمال إفريقيا، وانحسروا بالكلية عن الشمال الإفريقي ومساحات واسعة من البحر المتوسط، وانزووا هناك في شبة جزيرة الأناضول، فضلاً عن ممتلكاتهم في أوروبا نفسها، وهكذا وبمرور الوقت، أصبح خطر هجماتهم المضادة محدوداً لأنها تركزت عند خط الثغور في الأناضول والجزيرة الفراتية دون أن تتعداه إلى العمق إلا نادراً بسبب يقظة القيادات الإسلامية، وتحصينها خط الحدود من جهة، وقيامها بهجمات مستمرة ضد الدولة البيزنطية، وتوغلها بعمق باتجاه القسطنطينية نفسها من جهة أخرى، الأمر الذى لم يدع الإمبراطور البيزنطي - في معظم الأحيان - أن يأخذ زمام المبادرة وأن يوسع نطاق هجومه المضاد اللهم إلا عند مطلع القرن الرابع الهجري حيث كانت الدولة العباسية قد ضعفت، إلا أن ظهور السلاجقة أعطى دفعة قوية لحركة الجهاد الإسلامي، وقد استطاعوا في عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان أن يحققوا نجاحاً ساحقاً ضد العمود الفقرى للقوات البيزنطية في معركة ملاذكرد عام 463هـ وكان هذا الانتصار بمثابة نهاية لتحديات الدولة البيزنطية

(1) المصدر نفسه ص 26.

(2) هجمات مضادة ص 27 ، 56.

وهجومها المضاد، واستمر على تلك الحال حتى سقوطها بعد عدة قرون على يد العثمانيين[1]، وقد فصلت ذلك فى كتابى الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط[2].

ثانياً: الأسبان:

شهدت الساحة الأندلسية، منذ بدايات مبكرة هجمات مضادة متواصلة قادمة من الشمال حيث يتحصن الأسبان فى المناطق الأشد وعورة، ولقد تمخضت هذه الهجمات عن صراع مرير قدرت القيادة الأموية عبره أن تجابه الهجوم المضاد لمدى ما يقرب من القرون الثلاثة، وأن تحتويه وترغمه على الانحسار فى الجيوب الشمالية لشبه الجزيرة الإيبرية، ثم جاءت دفقة الحيوية الإسلامية الجديدة مرتين إحداهما على يد المرابطين القادمين من المغرب[3]، الذين سجلوا لنا فى صفحات المجد انتصارهم العظيم فى معركة الزلاقة على النصارى الإسبان فى عام 479هـ والأخرى على أيدى الموحدين الذين جاءوا من بعدهم، والذين حققوا انتصاراً ساحقاً على النصارى فى معركة الأرَك عام 591هـ التى سجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافى[4]، وبذلك تمكن الإسلام فى الأندلس من الصمود بمواجهة التحدى ومقارعة الهجوم الإسبانى المضاد بسلاح شبه متكافئ لمدى يقرب من القرون الأربعة[5]. لكن المسلمين هناك ما لبثوا أخيراً أن استنزفوا، وزادهم ضعفاً انقسامهم على أنفسهم وصراعهم الدموى الطاحن فيما بينهم، الأمر الذى حول ميزان القوى لصالح القيادة النصرانية التى تمكنت فى نهاية المطاف من إسقاط آخر كيان إسلامى هناك، مملكة غرناطة 897هـ لكى ما تلبث – تحت زعامة فرديناند وايزابيلا – أن تنفذ أبشع مجزرة رهيبة فى التاريخ البشرى، اشتركت فيها السلطة والكنيسة ومحاكم التفتيش واستطاعت بأساليبها التى تجاوزت القيم

(1) المصدر نفسه ص 37.
(2) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ص 125 – 140.
(3) هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى ص 28.
(4) المصدر نفسه ص 383 ، 384.
(5) هجمات مضادة ص 28.

الإنسانية فضلاً عن الدينية على تدمير الوجود الإسلامي في الأندلس وإزالته من الخارطة الإسبانية، ودمج الجماعات الإسلامية قسراً بالمجتمع النصراني دينا وثقافة وسلوكاً[1].

ثالثاً: الحركة الصليبية:

إن الحركة الصليبية هي رد الفعل المسيحي تجاه الإسلام، تمتد جذورها إلى بداية ظهوره، وخروج المسلمين من جزيرتهم العربية واصطدامهم بالدولة البيزنطية، وأن هذه الحركة تطورت كالكائن الحي على مدى القرون ما تكاد تخرج من طور إلا لتدخل في طور جديد وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي (488هـ - 690هـ/1095م - 1291م) إلا أحد أطوارها فقط، وأن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كان يطغى على باقي أطوارها يعود إلى عوامل عديدة معقدة ومتشابكة يستطيع الباحث أن يتلمسها في الدوافع والأسباب التي أدت إلى إطلاق الموجة الصليبية العاتية من عقالها في هذه الفترة[2]، وقد تصالح المؤرخون على إطلاق الحروب الصليبية على الحركة الاستعمارية الصليبية التي ولدت في غرب أوروبا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين في الشام والعراق والأناضول ومصر وتونس، لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين والقضاء عليهم واسترجاع بيت المقدس. وجذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية والسياسية التي سرت في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر، واتخذت من الدين وقوداً لتحقيق أهدافها[3]، فالغزو الصليبي ليس أمراً جديداً ولا ظاهرة غريبة أو استثنائية وإنما هو القاعدة وغيره الاستثناء[4]، ولذلك نقول: إن التحديد الزمني للحركة الصليبية بين سنتي 588هـ - 690هـ هو تحديد خاطئ كما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور: لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على

---

(1) المصدر نفسه ص 28.

(2) الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري ص 10.

(3) تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد عمران ص 15.

(4) هجمات مضادة ص 32.

دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة، وإنما يكتفى بعلاج مبتور يشمل جزءاً من تلك الحركة ولا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية، ولا عن ذيولها وبقاياها من ناحية أخرى[1] لقد كانت المقاومة الإسلامية لهذا الغزو تعبيراً فذا عن استمرار تيار العقيدة فى نفوس المسلمين، على مستوى القمة حينا، وعلى مستوى القواعد معظم الأحيان، لقد صنعت الحقبة مجاهدين على درجة كبيرة من الفاعلية والقدرة، وقد انتشر هؤلاء المجاهدون فى كل الجبهات وقاموا بمقاومة الغزاة فى كل الفترات، وعلى مدى قرنين من الزمن لم يتخلوا عن المقاومة ولم يستكينوا أو يضعوا السلاح، كانوا على استعداد فى كل لحظة لركوب خيولهم والانطلاق سراعاً إلى الأهداف، والجهاد لا تضعه النظريات والأمانى، والمجاهد لا يتحرك فى الفراغ، ولكنها التحديات التاريخية الكبيرة هى التى تضع الجهاد وتبعث المجاهدين، وتنفخ فى المقاتل المسلم روح البطولة والتضحية والاستشهاد[2].

رابعاً: حركة التفاف الصليبيين:

ما لبثت أوروبا بعد سحق الوجود الإسلامى فى إسبانيا أن بدأت بقيادة إسبانيا والبرتغال، ومن بعدهما بريطانيا وهولندا وفرنسا، عملية الالتفاف التاريخية المعروفة على عالم الإسلام عبر خطوطه الخلفية فى إفريقيا وآسيا، والتى كانت بمثابة حركة الاستعمار القديم التى ابتلى بها العالم الإسلامى فيما بعد، والتى استمرت حتى العقود التى أعقبت سقوط الخلافة العثمانية، كان المماليك فى مصر والشام قد بلغوا مرحلة الإعياء، وكان اكتشاف الطريق البحرى الجديد حول رأس الرجاء الصالح قد وجّه لتجارتهم – التى هى بمثابة العمود الفقرى لمقدرتهم المادية – ضربة قاصمة، أما العثمانيون فكان جهدهم منصباً على اختراق أوروبا من الشرق، ولم تكن لديهم الجسور الجغرافية التى تمكنهم من وقف محاولة الالتفاف تلك فى بداياتها الأولى، ولكنهم ما لبثوا بعد عدة عقود أن تحركوا لمجابهة الموقف، ومع ذلك فقد دافعت الشعوب والقيادات الإسلامية المحلية فى المناطق التى ابتليت

(1) الحركة الصليبية، سعيد عاشور (1/26).

(2) هجمات مضادة ص 3.

بالغزو دفاعاً مستميتاً، وضربت مثلاً صلباً في مقاومتها المتطاولة للعدوان، وألحقت بالغزاة خسائر فادحة على طول الجهات والمواقع الساحلية التي سعى هؤلاء إلى أن يجدوا فيها موطئ قدم[1]، وقد استطاع العثمانيون إنقاذ العالم الإسلامي من الغزو البرتغالي الإسباني الذي استهدف خنق التجارة الإسلامية، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الإسلامي للإغارة عليه وضربه، سارع العثمانيون بالسيطرة على المغرب كله ماعدا مراكش واستطاعوا مواجهة الإسبان في حوض المتوسط وجزائره وسواحله، وأدالوا منهم، وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تحفظ شاطئ البحر المتوسط للإسلام والمسلمين، واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق إفريقيا وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر فأرهب ذلك الأوربيين، واستطاع أحمد بن سعيد 1740م أن يقف في وجههم في عمان حيث فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة، وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية ودامت نهضتها من عام 1000هـ إلى 1250هـ وقد استولت على ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج، فإفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح، وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة هذه البحار العظمى الثلاثة وصار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي وأجلاه عن جميع الثغور الهندية والفارسية والإفريقية .. ولم يصبر الإنجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهددهم في أملاكهم في آسيا وإفريقيا، فعملوا على مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها وضرب الأسطول البريطاني مدنها بالقنابل[2].

خامساً: الاستعمار:

وجاءت الموجة الأوروبية المضادة التالية على يد القوات الاستعمارية التي دفعتها الثورة الصناعية إلى البحث عن مجالاتها الحيوية في القارات القديمة لتصريف بضائعها والحصول على الخامات الضرورية، وتسخير الطاقات البشرية (الرخيصة) المستعبدة في إفريقيا عن طريق نقلها بالقوة فيما يعرف بحركة تهجير

(1) المصدر نفسه ص 37.

(2) الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندي ص 393 – 394.

العبيد التى كانت بمثابة إحدى العلامات السوداء فى تاريخ الصراع بين أوروبا والشرق، والتى ذهب ضحيتها عدد كبير من أبناء الشعوب الإسلامية فى إفريقيا، واستمرت هذه الموجة التى قادتها بريطانيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا إلى حد ما، حتى العقود الأولى من القرن العشرين وكان العالم الإسلامى فريستها الأولى، بل إنه كان فريستها الوحيدة، إذا استثنينا مساحات محدودة قطنتها أكثرية غير إسلامية، وكانت أهدافها الاقتصادية تتحرك على خلفية صليبية عبّرت عن نفسها فى أكثر من واقعة، وقدمت عبر التاريخ أكثر من دليل، إن "غلادستون" رئيس الوزراء البريطاني يقولها بصراحة أمام مجلس العموم البريطاني وهو يمسك بالمصحف الشريف: ما دام هذا فى عقول المصريين وقلوبهم فلن نقدر عليهم أبداً[1]، وعندما دخل القائد البريطانى الصليبى القدس بعد الحرب العالمية منتشياً وحلفاء بريطانيا يستقبلونه بحفاوة وتكريم إلا أنه لم يخف حقده الصليبى على الإسلام والمسلمين، وأظهر سروره وحبوره كقائد صليبى منتصر فتح القدس وفلسطين وجعلها تحت الانتداب البريطاني الصليبى فقال: الآن انتهت الحروب الصليبية[2] يزغم بهذه العبارة أن هدف الحروب الصليبية باحتلال القدس وفرض السيادة الصليبية عليها وعلى فلسطين قد تحقق، وهو بهذا يشير إلى أن الحروب الصليبية التى استمرت قرنين من الزمان واحتلت نقدس وفلسيطن سنة 492هـ وحررها المسلمون فى عام 583هـ لم تحقق هدفها، أما الحرب العالمية الأولى فقد حققت فيها الصليبية هدفها واستولت على فلسطين والقدس وكانت السيادة لها.
وأما القائد الصليبى الفرنسى فقد ذهب إلى قبر صلاح الدين فى دمشق وقال عند القبر: ها نحن عدنا يا صلاح الدين[3]. واستمرت الحرب الصليبية فلم تتوقف فقامت بريطانيا بإعطاء وطن لليهود على أرض فلسطين وإقامة دولة يهودية، واتخذت من القرارات والإجراءات الإدارية والعسكرية ما تقيم هذه الدولة،

(1) هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى ص 40.
(2) دروس وتأملات فى الحروب الصليبية ص 35.
(3) المصدر نفسه ص 434.

بتدريب اليهود على السلاح وفنون القتال وتوفير السلاح لهم، بل إعطاء بعض أسلحة الجيش البريطاني لهم، وبخاصة عندما أعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين في 15/05/1948م بل سلمت كثيراً من المدن والقرى الفلسطينية إلى اليهود ليعلنوا إقامة دولة يهودية عليها، وفي الوقت ذاته قد حرمت على الفلسطينيين المسلمين التدريب على السلاح واقتناء السلاح، وشنت عقوبات ظالمة على كل فلسطيني يقتني السلاح أو العتاد، فكانت عقوبة الإعدام هي الشائعة، ولقد علق من المجاهدين المسلمين على أعواد مشانق الصليبيين الإنجليز في تلك الفترة آلاف الشهداء، وزج في غياهب السجون عشرات الألوف[1]. هذا وقد تزامنت الحركة الاستعمارية وارتبطت عضوياً بحركة التبشير النصرانية، بجانبيها الكاثوليكي والبروتستانتي، والتي انتشرت مراكزها في طول بلاد الإسلام وعرضها تمهد للاستعمار بأنشطتها المختلفة، وتفتح أمامه الطريق وتحظى تحت سلطانه بالكثير من المساعدات والميزات[2]، إلا أن هذا الهجوم الاستعماري الصليبي المضاد لم يمضي بسلام ولم تركع الشعوب الإسلامية أمام إرادة القوة التي اعتمدها الغزاة، بل شمروا عن ساعد الجد واستجاشوا قدرات الإيمان الدافقة ووازنوا بتضحياتهم وعشقهم الموت، وركضهم إلى الشهادة، رغم نقص إمكانياتهم العسكرية والمادية وصنعوا بذلك الأعاجيب التي أذهلت الغربيين وعرقلت استمرارية حركتهم، ألحقت بهم الهزائم والويلات ووضعت في طريقهم الأسلاك الشائكة والألغام، ليس هذا فحسب، بل إن الاستجابة للتحدي الاستعماري النصراني بعث حركات إسلامية أصيلة تخلّقت في مناخ جهادي قاس، واستهدفت مقارعة العدوان وتحرير الأرض والعقيدة والإنسان، وقدمت نماذج من أعمال المقاومة تحدث بها الغربيون قبل الشرقيين وملأت صفحات ناصعة بيضاء في معطيات التاريخ[3]، ونحن نذكر على سبيل المثال لا الحصر مقاومة كل من،

(1) هجمات مضادة في التاريخ ص 41.

(2) هجمات مضادة في التاريخ ص 41.

(3) هجمات مضادة في التاريخ ص 41.

محمد عبد الكريم الخطابى بالمغرب وعبد القادر الجزائرى وجمعية علماء المسلمين بالجزائر التى قادها عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمى، وعمر المختار بليبيا، وغير ذلك من حركات التحرر التى تحتاج إلا أقلام صادقة لبحثها وكتابتها، والأمة فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الدراسات الجادة. إن الحرب الصليبية لم تنته ولن تنتهى، وما يحدث فى أفغانستان والعراق وفلسطين دليل على ما نقول.

المبحث الثانى : أهم أسباب ودوافع الغزو الصليبى

كان المجتمع الأوروبى الغربى فى هذه الفترة تسوده المنازعات والحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين مما ساعد على ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى الغرب الأوروبى[1]، كما كان للصراعات القائمة بين رأسى العالم المسيحى الغربى حينذاك، وهما البابا والإمبراطور أثر كبير فى مجريات الأحداث الأوروبية، فلقد بلغت البابوية درجة عظيمة من القوة واتساع النفوذ فى هذه الفترة، مما فتح أمامهما المجال لكى تصبح القوة العالمية، بمعنى أن يكون البابا هو الزعيم الروحى لجميع المسيحيين فى الشرق والغرب على حد سواء[2]، بجانب الخلافات المستمرة الموجودة بين الكنيستين الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية الغربية، إذ أصرت كل منهما على أن تسود وجهة نظرها وأن تكون لها الأولوية على الأخرى، ولهذا السبب عندما عرضت فكرة الحرب المقدسة على البابا أوربان الثانى (471 – 491هـ) (1078 – 1097م) وجد فى تنفيذها فرصة كبيرة لإنهاء الخلاف بين الكنيستين والسيطرة على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وإدماجها فى الكنيسة الغربية تحت زعامته، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين واسترداد الأراضى المقدسة فى فلسطين[3] هذا بالإضافة إلى أغراض أخرى عديدة كانت البابوية ترغب فى تحقيقها من وراء تمسكها بفكرة الحرب المقدسة، منها التخلص من نفوذ كبار رجال الإقطاع فى الغرب، وإنهاء الحروب

(1) الحروب الصليبية ص 21 ، 24 أرنست باكر.

(2) الحروب الصليبية (1/ 32) سعيد عاشور.

(3) دور الفقهاء والعلماء فى الجهاد ضد الصليبيين فى آسيا، نقلى ص 32.

المستمرة عن طريق توجيه هذه الطاقات واستغلالها في الحرب المقدسة عليها، تفتح لهم بذلك منفذاً لحياة أفضل في الشرق بدون منازعات[1] وقد اختلفت الآراء في تفسير طبيعة الحركة الصليبية والدوافع الكامنة وراءها فمنها ما هو مادى والبعض يرى أنها وليدة الحماس أو التعصب الدينى الذى عرفت به أوروبا في العصور الوسطى، وأن الباعث الحقيقى لتلك الحروب كان في الواقع هو الهوس الدينى الممزوج بأغراض أخرى كالميل إلى تأسيس ممالك جديدة والحصول على الثروات الطائلة، وقد اعتبر غالبية المؤرخين القدامى والحديثين تلك الحروب أنها حروب دينية، وأن العامل الدينى كان الدافع الأساسى وراءها من أجل استعادة قبر المسيح على حد زعمهم والأراضى المقدسة من أيدى المسلمين، وهناك آخرون يعتبرونها أحد مظاهر التوسع الاقتصادى الاستعمارى في العصور الوسطى. وحقيقة الأمر أن الحروب الصليبية كانت نتيجة لتفاعل هذه العوامل مجتمعة، لأنها قامت لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، واتخذت الدين وقوداً أو وسيلة لإخفاء أغراضها المذكورة[2]، ولا يمكن التقليل من الدافع الدينى في تلك الحروب بأى وجه من الوجوه وإليك تفصيل تلك الدوافع والأسباب:

أولاً: الدافع الدينى:

كان الدافع الدينى من الأسباب الرئيسية التى دفعت بالجموع الصليبية إلى قلب المعركة، فقد كان شعار الحروب الصليبية ومما يظهر أهمية الجانب الدينى أنهم قد وضعوا إشارة الصليب على أسلحتهم والأمتعة الخاصة بهم وقصدوا فلسطين بالذات[3]، وقد كانت حركة الإحياء الدينى قد ظهرت في غرب أوروبا في القرن العاشر الميلادى، وبلغت أشدها في القرن الحادى عشر، قد أدت إلى تقوية مركز البابوية، وإثارة الحماسة الدينية في نفوس الناس، هذه الحماسة استغلتها الكنيسة في متنفس خارجى، وعندما ظهرت فكرة الحرب الصليبية اتخذت الكنائس الغرب

(1) مملكة بيت المقدس الصليبية، عمر كمال توفيق ص 18 ـ 19 ، 32 ـ 33.

(2) العدوان الصليبى على العالم الإسلامى صلاح الدين نوار ص 22.

(3) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحمد أبو زيد ص 17.

الأوروبى ميداناً واسعاً لاستغلال نشاطه المكبوت وحماسته المنطلقة[1]، وكان ذلك باسم تخليص القدس من أيدى المسلمين[2]، ومن أشهر من تبنى الدعوة إلى الحروب الصليبية هو البابا "أوربان الثانى" والذى يعتبر المسؤول الأول عن الترويج لحرب المسلمين والتحريض على إرسال الحملة الأولى إلى بلاد الشام. وكانت الظروف مهيأة، فسارع إلى عقد اجتماع فى مدينة (كليرمنت) فى فرنسا واستمر المؤتمر عشرة أيام حضره أكثر من ثلاثمائة من رجال الكنيسة[3] كما حضره أمراء من مختلف أنحاء أوروبا، ومندوبون عن الإمبراطور البيزنطى، وممثلون عن المدن الإيطالية.. واستطاع البابا أن يثير حماس السامعين فى "خطابه" فتجاوب فى أرجاء المجتمع هتاف بترديد عبارة "هكذا أراد الله" وبادر الحاضرون إلى اتخاذ الصليب شارة لهم[4]، كما أن البابا أشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامى المحدق بأوروبا من جهة القسطنطينية، وأعلن أن النصارى فى المشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأن الكنائس والأديرة، قد أصابها الدمار، وحث الحاضرين على الانتقام من المسلمين[5]. والحقيقة أن ما أثاره البابا من تعرض نصارى المشرق إلى اضطهاد هو ادعاء باطل، لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه، وما أحاط النصارى به، من رعاية وعناية[6]. وكان من الشعارات التى رفعت فى هذه الحرب أن الحجاج من النصارى كانوا يتعرضون للاضطهاد والعدوان وهم فى طريقهم إلى بيت المقدس - قبيل الحروب الصليبية وهذا ادعاء باطل كذلك[7]، يقول أحد كبار المؤرخين الأوروبيين: إن حالات الاضطهاد الفردية التى تعرض لها المسيحيون فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى بالذات لا يصح أن تتخذ بأى حال سبباً حقيقياً

---

(1) الحركة الصليبية (1/20) سعيد عاشور، الجهاد والتجديد فى القرن السادس الهجرى محمد حامد الناصر ص 80.

(2) الجهاد والتجديد، محمد حامد ص 80.

(3) أثر الشرق الإسلامى فى الفكر الأوروبى خلال الحروب الصليبية ص 81.

(4)الشرق الأدنى: السيد الباز العرينى ص 13 - 14.

(5) قصة الحضارة (4/16).

(6) الجهاد والتجديد ص 81.

(7) الغزو الصليبى والعالم الإسلامى د. على عبد الحليم محمود ص 108.

للحركة الصليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكتباتها كتبا دينية متنوعة في اللاهوت[1]. كما أن الادعاء بتخريب الكنائس وهدم الأديرة أو مصادرتها لم يقم عليه دليل: وإنما هي شائعات دور الدعاية الباطلة بفتح جبهة على المسلمين وأهمية إعطاء دور الإعلامي عنه ربما أدى إليه تصرف بعينه في قرية بعينها، لا يمكن بحال من الأحوال أن يعتبر هو الأصل في معاملة المسلمين للمسيحيين وكنائسهم في البلاد الإسلامية[2]. ويقرر أكثر من مؤرخ منصف أن النصارى الذين خضعوا لحكم السلاجقة، كانوا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وما وجد أي دليل على اضطهاد السلاجقة للنصارى في المشرق[3]. إلا أن صيحات البابا كانت محمومة حاقدة لا تعقل ولا تفكر في العواقب الوخيمة لتصريحاته الرعناء، وإلا ماذا يعني قوله لأتباعه : اذهبوا وأزعجوا البرابرة، وخلصوا البلاد المقدسة من الكفار، وامتلكوها لأنفسكم، فإنها كما تقول التوراة، تفيض لبناً وعسلاً[4]. وقد وعد البابا الجموع المشاركين بالحرب، برفع العقوبات عن المذنبين منهم، وبإعفائهم من الضرائب، كما وعدهم برعاية الكنيسة لأسرهم مدة غيابهم[5]، ونعل ما يدخل ضمن ندافع الديني أيضاً أنه ذاعت في الغرب أخبار الكرامات والمعجزات التي بثتها الكنيسة، وساد الاعتقاد بأن نزول المسيح ثانية إلى الأرض أصبح وشيكاً ولابد من المضي في الاستغفار وعمل الخير، قبل هبوطه، كما ساد تصور مفاده أنه ينبغي استرداد الأرض قبل عودة المسيح[6]، وقد أدرك البابا أن فورة الحماس الديني لن تستمر طويلاً، فدعا إلى القسم بأن تؤدى الصلاة في كنيسة القيامة، وأشاع أن اللعنة

---

(1) الحركة الصليبية سعيد عاشور (1/ 30).

(2) الغزو الصليبي والعالم الإسلامي ص 109 .

(3) الحركة الصليبية (1/ 26، 28).

(4) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي (5/ 438).

(5) أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي ص 26.

(6) الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط ص 152 .

(سيف النقمة) ستحل على كل من يستولى عليه الجبن والضعف أو نكص على عقبيه، وهدد بأن يتعرض كل من لا يلبى نداء الكنيسة بالتوجه صوب الديار الإسلامية إلى الحرمان من الكنيسة[1]. وهذا من دهائه وقدرته على توظيف العواطف والمشاعر لخدمة مشروعه. لقد أثرت الكنيسة لما لها من سلطان على قلوب الناس فى غرب أوروبا فى تلك العصور على الدعوة لهذه الغزوة، وترتب على دعوة الكنيسة خروج الناس أفواجاً فى حملات صليبية ضخمة متلاحقة إلى المشرق الإسلامى[2]، ولا ننسى الحقد الصليبى على الإسلام وأهله، فقد انتزع من أيديهم أرضاً كانت تحت سلطتهم وحرر منهم عبيداً كانوا يرزحون تحت وطأتهم واستلب منهم ملكاً كان فى قبضتهم، فغلت مراجل الحقد فى صدورهم، وتأججت نار العداوة فى قلوبهم، وأخذوا يتحينون الفرص ليستردوا ما فقدوا وينتقموا لأنفسهم ممن نكبوهم، ومزقوا مملكتهم[3]، وهذا المستشرق المشهور الأميرليون كايتانى (1869م إلى 1926م) الذى بذل معظم أمواله ليؤرخ لحركة الفتح الإسلامى فى كتابه المعروف: حوليات الإسلام، يوضح لنا سر الحقد على الإسلام والمسلمين فى مقدمة كتابه حيث يقول: إنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك سر المصيبة الإسلامية (كانا ستروفيكا إسلاميكا) التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى أنحاء الأرض ما يزالون يدينون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويؤمنون به نبياً ورسولاً[4]، قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾ (البقرة) وقال تعالى: ﴿ ... وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾ (البقرة).

---

(1) المصدر نفسه ص 152.
(2) تاريخ الوطن العربى والغزو الصليبى ص 22.
(3) أسباب الضعف فى الأمة الإسلامية ص 157 للوكيل.
(4) الغزو الصليبى والعالم الإسلامى ص 110.

ثانياً : الدافع السياسي:

كان الملوك والأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية يسعون وراء أطماع سياسية لم يستطيعوا إخفاءها سواء قبل وصولهم إلى الشام وفلسطين أو بعد استقرارهم فيهما. والمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائماً بالأرض، وبقدر ما يكون الإقطاع كبيراً والأرض واسعة، بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع. وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير والفارس هي عدم وجود أقطاع أو أرض له، مما يجعله عديم الأهمية مسلوب النفوذ، وأدى هذا إلى بقاء عدد كبير من الفرسان والأمراء بدون أرض، لأن من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى أكبر أبنائه[1]، وهذا يعني بقاء بقية الأبناء دون أرض، وهو وضع ممقوت في المجتمع الإقطاعي، الأمر الذي جعل الفرسان والأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاع، أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع، وكان أن ظهرت الحركة الصليبية لتفتح باباً جديداً أمام ذلك النفر من الأمراء والفرسان، فلبوا نداء البابوية، وأسرعوا إلى الإسهام في تلك الحركة لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق، تعوضهم ما فاتهم في الغرب. أما الأمراء والفرسان الذين كانوا يمتلكون إقطاعات فقد وجدوا في المشاركة في الحركة الصليبية فرصة طيبة لتحقيق مجد أكبر والحصول على جاه أعظم. وبدراستنا لمراجع الحروب الصليبية نرى أن أطماع أمراء الحملة الأولى تجلت في عدة مظاهر سياسية، فقد أخذوا يقسمون الغنيمة وهم في الطريق أى قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلاً، وسوف نرى بإذن الله تعالى كيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام أنطاكية لرغبة كل واحد منهم في الفوز بها، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع به وتخلى عن مشاركة بقية الصليبيين في الزحف على البيت المقدس، وهو

(1) أوروبا في العصور الوسطى (2/49)، سعيد عبدالفتاح عاشور الوسيط في تاريخ فلسطين ص 154.

الهدف الأساسي للحملة وكثيراً ما دب الخلاف بينهم – بعد استقرارهم – حول حكم إمارة أو الفوز بمدينة، وعبثاً حاولت البابوية أن تتدخل لفض المنازعات بين الأمراء وتحذرهم بأن المسلمين يحيطون بهم، وأن نواجب الصليبي يستدعي تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم، ولكن تلك الصيحات ذهبت أدراج الرياح، لأن هدف الأمراء كان ذاتياً سياسياً، ولم يكن يهمهم كثيراً رضا البابا أو سخطه، بل إن بعض الأمراء لم يحجموا عن مخالطة القوى الإسلامية المجاورة ضد إخوانهم الصليبيين مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولئك الأمراء أمام مصالحهم السياسية[1]، أما بالنسبة للإمبراطور البيزنطي (الكسيوس) فإنه لم يعترض على أهداف أمراء الحملة، لأنه إذا تسنى للدولة البيزنطية استرداد ما كان لها من أملاك قبل غارات الأتراك عليها، جاز أن تقوم في تخومها إمارات مسيحية حاجزة، لها حق السيادة عليها، ولضمان الحصول على ذلك حرص الإمبراطور على الحصول على يمين الولاء من أمراء الغرب، وبذلك توافقت مصالح كلا الجانبين المسيحيين في القيام بالحرب والعدوان على الأرض الإسلامية. والواقع أنه من العسير الفصل بين العوامل المادية والعوامل المعنوية لتي دفعت المسيحيين إلى الحروب الصليبية، فالفقر والرغبة في الكسب، وروح المغامرة كانت عوامل هيأت الجو المناسب للحروب، غير أن هذه العوامل لم تظهر إلا بما نجم عن فكرة الحرب "المقدسة" وتخليص الأرض، من حماس ديني، والواضح أن فكرة الحرب نبعت من السياسة البابوية، وسياسة الدولة البيزنطية والحروب الأسبانية الإسلامية، فمما سهل أمر إعلان الحرب على المشرق الإسلامي، ما درج عليه الأسبان والفرنسيون في قتال المسلمين في بلاد الأندلس، حيث اتخذ هذا القتال صفة الحرب المقدسة، سواء من جهة المسلمين، حيث أثار "المرابطون" في المغرب الإسلامي الجهاد الديني، أو من جهة المسيحيين في الحالة النفسية لتي اقترنت بتوجيه الحرب الصليبية إلى الشرق، حتى إن المؤرخ الكبير "ابن الأثير" نظر إلى الخطر الخارجي نظرة شمولية، واعتبر أي عدوان على طرف من أطراف العالم الإسلامي – سواء في

(1) الوسيط في تاريخ فلسطين ص 155.

الشرق أو الغرب – رافداً يصب في النهر الأكبر، وهو الغزو الأجنبي المنظم على أكبر قوة حضارية في العصور الوسطى، وهو الدولة الإسلامية[1]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كشف المؤرخ المذكور بوضوح عن أسباب نجاح هذا الغزو، ذي الشعب (الأندلس، صقلية، الشام – فلسطين) والتي تكمن في الفرقة، والأطماع الذاتية، وفقدان الروح الوثابة التي تميز بها الحكام والمسلمون الأوائل بناة الدولة الإسلامية[2]، وقد كان واضحاً للعيان أن الكنيسة الغربية كانت محمومة لتوسيع رقعتها الإقطاعية، والسيطرة على الكنائس الشرقية، إضافة إلى رغبتها في حرب المسلمين، ومن حقائق التعصب الديني، وجود الجماعات الدينية التي كانت ترتبط بالكنيسة مباشرة وكانت ذات أثر فعال في تلك الحروب، منها فرسان الإسبتارية الذين كانوا ملتزمين بالدفاع عن ممتلكات الصليبيين في المشرق، وحماية الأماكن المقدسة وكانوا يرتبطون بالبابا مباشرة، وكانت كنائس بيت المقدس قد خصصت عشر دخلها لمساعدتهم في أداء رسالتهم الدينية المزعومة، وهناك هيئة الفرسان الداوية التي اتخذت مقرها في جزء من هيكل سليمان عليه السلام في المسجد الأقصى، وسميت باسم : فرسان المعبد، ثم حرفت إلى اسم الداوية[3] هذا وقد كانت للبابوية ورجال الكنيسة القدرة على التأثير والضغط والتهديد بالنسبة لمن لا ينفذ رغبة الكنيسة بإصدار قرارات الحرمان التي تقضي بالحرمان من النعيم في الآخرة ونبذ طاعته في الدنيا[4] على حد زعمهم.

ثالثاً: الدافع الاجتماعي:

ساد المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، تمايز طبقي كبير، فقد سادت فيه طبقة رجال الدين وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان[5]، وكانت طبقة الفلاحين تمثل الأكثرية المغلوبة على أمرها، والتي كان أفرادها يكدحون، ليسدوا حاجة

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الوسيط في تاريخ فلسطين ص 156 .
(2) الوسيط في تاريخ فلسطين ص 156 .
(3) جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، د. فايد حماد عاشور ص 86 .
(4) تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ص 24 .
(5) الجهاد والتجديد ص 84 .

الطبقتين الأوليين. كان الفلاح الأوروبى مغلوباً على أمره، وكان مطالباً بالتزامات عديدة لأصحاب الإقطاع، وكان البابا على دراية بأحوال الفلاحين الكادحين، فوعدهم بإلغاء التزاماتهم نحو أسيادهم وأغراهم بخيرات الشرق الإسلامى. كان آلاف الفلاحين يعيشون عيشة منحطة فى نظام الإقطاع، حيث شيدوا لأنفسهم أكواخاً من جذوع الأشجار وفروعها وغطيت سقوفها بالطين والقش، دون أن يكون لها نوافذ، ولايوجد داخلها أثاث بل كان ما يجمعه الفلاح، يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الإقطاعى، كما يعتبر محروماً من الملكية الشخصية[1]. وكانوا مثقلين بالالتزامات الخدمية لأسيادهم الإقطاعيين فى شتى المجالات إلى جانب حرمانهم من منتجاتهم وبذلك يظهر مدى التعاسة والبؤس الذى كان يعيشه غالبية شعب أوروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى، وهكذا لما ظهرت الدعوة للغزو الصليبى، وجدت هذه الغالبية العظمى فرصتها للخلاص من حياتها الشاقة المليئة بالذل والهوان، ونظروا إلى أخطار الاشتراك فى هذا الغزو نظرة هينة أمام ما كانوا يعيشون فيه، فإن ماتوا فى هذه الحرب كان لهم الخلاص، وإن نجوا كانت لهم حياة جديدة أفضل مما كانوا عليه[2]، ولقد عرفت الكنيسة كيف تلعب بعقول هؤلاء، وتوغر صدورهم ضد الإسلام وأهله، وخدعتهم بأنهم سيحررون بيت المقدس والقبر المقدس، يباركهم الرب، والبابا، لذلك لم يردعهم رادع عن الذبح والقتل، بل كان قتل المسلم مرضاة ينال عليها الصليبى ثواباً يوم الدينونة[3].

رابعاً: الدافع الاقتصادى:

يعتبر التطلع إلى خيرات المشرق الإسلامى، من أقوى دوافع الحروب الصليبية بعد الدوافع الدينية. وقد عبر البابا (أوربان) نفسه فى خطابه عن أهمية العامل الاقتصادى بالنسبة لواقع أوروبا آنذاك فقال : لا تدعوا شيئاً يقعد بكم ... ذلك أن الأرض التى تسكنونها الآن، والتى تحيط بها البحار وقمم الجبال ضيقة على

---

(1) المصدر نفسه.

(2) تاريخ الوطن العربى والغزو الصليبى ص 24.

(3) أثر الشرق الإسلامى د. عبدالله الربيعى ص 138.

سكانها الكثيرين، وتكاد تعجز عن كفايتهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضا... إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها بل هي فردوس المباهج[1] وإن جميع الوثائق تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا في أواخر القرن الحادي عشر، وكانت فرنسا بالذات تعاني من مجاعة شاملة قبيل الحملة الصليبية الأولى، ولذلك كانت نسبة المشاركين منها تفوق نسبة الآخرين، فقد كانت الأزمة طاحنة حيث ألجأت الناس إلى أكل الحشائش والأعشاب، وبذلك جاءت هذه الحرب لتفتح أمام أولئك الجائعين بابا جديداً للخلاص من أوضاعهم الصعبة، وهذا ما يفسر أعمال السلب والنهب للحملة الأولى ضد الشعوب النصرانية التي مروا في أراضيها[2]، كذلك اشترك عدد كبير من تجار المدن الإيطالية والفرنسية والإسبانية في الحروب الصليبية بغرض استغلالي بحت من أجل السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصدر ثراء للمشتغلين بها، لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الشام، فساعد الجنوية الفرنج في الاستيلاء على أنطاكية سنة 490هـ - 1097م، وأسهم البنادقة بعد ذلك بعامين في استيلاء اللاتين على بيت المقدس، وكان هدف هذه الجاليات الأول والأخير هو الربح والكسب المادي ولم يكن يعينها الباعث الديني إلا بالقدر الذي يحقق مصالحها، ويكفي أن نعرف أن شعار البنادقة الذين عرفوا به وقتذاك كان: لنكن أولاً بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين[3]، ولذلك قامت جمهوريات إيطاليا (جنوا - بيزا - البندقية) بعقد معاهدات مع أمراء الصليبيين بالمشرق حصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة[4].

خامساً: تبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط:

منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) تبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط لصالح الغرب الأوروبي مركز الحركة الصليبية،

(1) المصدر نفسه ص 34.

(2) الحركة الصليبية د. سعيد عاشور (1/30-32).

(3) الحروب الصليبية المقدمات السياسية د. علية الجنزوري ص 249.

(4) الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر ص 83.

فضعف الدولة البيزنطية وترنحها تحت ضربات السلاجقة القوية جعلها تسارع إلى الاستنجاد بأوروبا الغربية من ناحية، ثم اختلال أوضاع المسلمين فى الجناح الغربى من العالم الإسلامى خاصة فى الأندلس وصقلية، وما قابل ذلك من تيسير أسباب القوة والظهور لدى أعدائهم، مما جعل الغرب الأوروبى يرفد النصارى الأسبان بشتى صنوف الدعم والمساندة فى صراعهم مع مسلمى الأندلس على الاستنجاد بالمرابطين، ومسلمى صقلية على الاستنجاد بإفريقية من ناحية ثانية، كل ذلك أدى إلى دخول الحركة الصليبية فى طورها الجديد الذى اتخذ صفة العالمية[1] وكانت البابوية تدعم هذه الحرب بالموافقة والتوجيه والدعاية والدعم المعنوى، فهذه حروب صليبية متقدمة على إعلان البابا أوربان الثانى بدء الزحف الصليبى إلى المشرق سنة 488هـ - 1095م[2]. وتعتبر إفريقية بمدلولها التاريخى أحد هذه الميادين فى الصراع الصليبى، فقد كانت الجبهة الإفريقية ميدانا نشطت فيه قوى العدوان الصليبى لعدة قرون، يتمثل ذلك فى حملات عديدة وجهت إليها الواحدة تلو الأخرى، ولم تفتر للصليبيين فى ذلك همة ولم يوهن الفشل لهم عزيمة، فكما أن بلدان المغرب الإسلامى كانت أول من اكتوى من البلاد الإسلامية بنار الاستعمار الأوروبى الحديث، كانت بلدان الجناح الغربى من العالم الإسلامى ومن ضمنها إفريقية هى التى تلقت الضربات الأولى للصليبيين، والسبب فى ذلك يعود إلى عدة اعتبارات جغرافية وتاريخية من أهمها قربها الشديد من غرب أوروبا مركز الحركة الصليبية ومعرفة الأوروبيين الواسعة نسبياً لأوضاع المسلمين فى هذه المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لسهولة الاتصال بين الطرفين، ثم الحقد الشديد الذى كان يكنه الأوروبيون للمسلمين المغاربة[3]، وبالذات لكونهم هم الذين تولوا عبء الجهاد فى أوروبا أكثر من غيرهم من المسلمين، وما كان يشعر به الأوروبيون من

(1) الحروب الصّليبية فى شمال إفريقية ص 11، 12، 13.

(2) الحروب الصّليبية فى شمال إفريقية ص 12.

(3) كلمة المغاربة كانت تطلق على سكان المغرب الإسلامى بأسره والذى كان يضم الأندلس والجزر الإسلامية غرب المتوسط إلى جانب اقطار المغرب العربى، وليس كما درج فى العصر الحديث بقصرها على أهل المغرب الأقصى.

خطر هؤلاء إذا تهيأت لهم الوحدة والقيادة المخلصة، لكل ذلك كانت أوروبا تتربص بمسلمي هذه المنطقة الدوائر وتتحفز للوثوب عليهم منتظرة الفرصة المناسبة، وأخذت هذه الفرصة التي طالما انتظرها محركو قوى العدوان الصليبي تتهيأ منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، إذ أصاب الجناح الغربي من العالم الإسلامي من التمزق ما جعله يسير بخطى حثيثة نحو التردي إلى الهاوية، ولم يكن وضع إخوانهم في المشرق بأحسن حالاً منهم، فكان هذا التمزق وافتراق الكلمة هو السبب الأهم في البلاء الذي نزل بالمسلمين في المشرق والمغرب على حد سواء. وما أشبه اليوم بالأمس، لقد كان ولا يزال تفرق العرب والمسلمين هو الباب الواسع الذي يدخل إليهم أعداؤهم منه لضربهم في عقر ديارهم، فكان أن انطلقت القوى الصليبية في موجة عاتية تضرب المسلمين في ثلاث جبهات في آن واحد في الأندلس وصقلية وإفريقية[1].

1- **الأندلس**: فقد شهدت الجبهة الأندلسية منذ أواسط ذلك القرن نشاطاً ملحوظاً تمثل في شن هجوم قوي مستمر من قبل النصارى الإسبان بزعامة مملكة قشتالة على مسلمي الأندلس، حيث أخذت المدن والمعاقل الإسلامية تسقط في أيديهم تباعاً، وأحرزوا النصر على المسلمين في معارك عديدة وتوجت تلك الانتصارات بسقوط مدينة طليطلة سنة 478هـ في يد الفونسو السادس ملك قشتالة تلك الكارثة التي روعت العالم الإسلامي بأسره. وحيال هذا الضغط المتواصل من النصارى الإسبان اضطر مسلمو الأندلس إلى الاستنجاد بالمرابطين من العدوة المغربية، فكانوا يرسلون الاستغاثة تلو الأخرى لهذه القوة الفتية، حتى إذا ما قضى أميرها يوسف بن تاشفين على جيوب المقاومة لدولته في المغرب عبر البحر إلى الأندلس بجموع غفيرة حيث التقى بألفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة 479هـ التي سطر المرابطون ومن ساعدهم من الأندلسيين بانتصارهم الرائع فيها صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي، وبانتصار

(1) الحروب الصليبية في شمال إفريقيا ص 13.

المسلمين فى تلك المعركة أوقف المد المسيحى الإسبانى حتى تهيأت له ظروف أخرى فيما بعد .

2- **صقلية** : وأما الجبهة الصقلية فقد أدى ظهور النورمان كقوة جديدة فى ميدان السياسة الدولية إلى تغير ميزان القوى فى غرب المتوسط لصالح القوى النصرانية، إذ ما كاد هؤلاء القادمون الجدد يجدون موطئ قدم لهم فى جنوب إيطاليا ويحصل جيسكارد أكبر زعمائهم على اعتراف البابا نقولا الثانى به فى مؤتمر ملفى سنة 1059م حتى أعلن عن مشروعه فى توجيه قواه ضد مسلمى صقلية إرضاء للبابوية التى كانت ترى فى ذلك تحقيقاً لأهدافها الصليبية من ناحية وإبعاداً للخطر النورمانى عن ممتلكاتها من ناحية أخرى، فشجعت هذا المشروع، وكدليل على موافقتها وتشجيعها أرسل البابا إلى جيسكارد راية مقدسة لينال هو وجنده ببركتها النصر على المسلمين، وأصر على أن الفتوحات المرتقبة من أجل المسيح عليه السلام هى أكثر أهمية من إرسال الهدايا إلى روما[1]، وتم الاستيلاء على الجزيرة فى سنة 484هـ فى عهد رجار الأول ثم وثبت قواته على مالطة فى العام التالى واحتلتها وأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على إفريقية[2] .

3- **إفريقية** : وأما الجبهة الإفريقية، فقد نالت حظها هى الأخرى من العدوان الصليبى فى تلك الآونة بفعل قوة ناشئة هى المدن البحرية الإيطالية، فقد استغلت هذه المدن غياب القوى البحرية القديمة المتمثلة فى الأسطولين الإسلامى والبيزنطى عن مياه البحر الأبيض المتوسط منذ أوائل ذلك القرن لانشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخليه، وأخذت أساطيلها تمخر مياه ذلك البحر القريبة من الشواطئ الأوروبية أولاً خوفاً من أسطول مجاهد العامرى صاحب دانية الذى استطاع تجميد نشاطها لفترة من الوقت حتى إذا ما تمكنت من إزالة ذلك الخطر بدأت منذ أواسط القرن المذكور تجوب مياه البحر الأبيض

(1) الحروب الصليبية فى شمال إفريقية ص 14 .
(2) المصدر نفسه ص 15 .

المتوسط شرقاً وغرباً، وقد وضعت هذه المدن قوتها البحرية فى خدمة الأهداف الصليبية منذ البداية لتحقيق مكاسب خاصة بها. فبتشجيع البابا لاون التاسع استولى تحالف من جنوة وبيزا على جزيرة سردينيا الإسلامية سنة 442هـ/1063م حيث خرب أرباضها وميناءها وغنم غنائم كبيرة، وكما اشتركت هذه الأساطيل فى حروب الجبهة الصقلية اشتركت فى حروب الجبهة الأندلسية، فأسهمت فى مطاردات المسلمين الأندلسيين عن طريق البحر وأخذت نصيبها من الغنيمة، وفرضت حصاراً بحرياً على المرية حتى دفعت تلك المدينة فدية ضخمة تقدر بمبلغ 113ألف دينار ذهبى، كما أجبرت بلنسية على دفع أتاوة مماثلة تقدر بمبلغ 20 ألف دينار ذهبى لتفتدى نفسها بذلك من النهب والسلب[1]، وهاجمت الجزائر الشرقية (جزر البليار) عدة مرات. ونتيجة لذلك، أصبحت القوة البحرية الإيطالية هى المتحكمة فى مياه البحر الأبيض المتوسط مما دفعها إلى مزيد من المغامرة، فوجهت نشاطها إلى إفريقية التى كانت لا تزال تحتفظ بقوة بحرية بمد يد المساعدة لإخوانهم فى صقلية أو غيرها من ناحية ثانية، ثم لتحقيق أهداف الحركة الصليبية فى إفريقية من ناحية ثالثة، فقامت قوة بحرية ضخمة مكونة من أسطولى جنوة وبيزا مدعومة بفريق من مدينة أمالفى وقوة عسكرية أخرى أمدهما بها البابا بمهاجمة مدينة المهدية سنة 480هـ/1087م أى بعد الاستيلاء على طليطلة بعامين وقبيل الاستيلاء الكامل على صقلية واستولت عليها باستثناء قلعتها، وظلت فى يدها إلى أن دفع صاحبها تميم بن المعز للقوى المتحالفة فدية مالية ضخمة وعقد مع الغزاة معاهدة نصّ أحد بنودها على تعهّد تميم بعدم التعرض للسفن الإيطالية فى المياه الإفريقية، ومنحهم امتيازات تجارية فى بلاده كما سيذكر فى موضعه.

ومما تقدم يتضح أن هذا الهجوم الصليبى على القسم الغربى من العالم الإسلامى منذ أواسط القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر للميلاد) والذى كانت

(1) القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط أرشيبالد لويس ص 372.

تدير دفته البابوية قد احتدم في ثلاث جبهات كانت إفريقية إحداها. ولا شك أن هذا الهجوم كان وجها من أوجه الحركة الصليبية، وهذا يؤكد أن الحروب الصليبية بدأت في إفريقية قبل الزحف الصليبي إلى المشرق، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة 491هـ[1] إذ يفهم من النص الذي أورده أن تلك الحوادث كانت مترابطة يحركها محرك واحد وأنها كانت بداية لموجة الحروب الصليبية في ذلك الطور من أطوار الحركة الصليبية إذ يقول: كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس .. ثم قصدوا سنة أربعة وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها .. وتطرقوا إلى إفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم – ثم ملكوا غيره على ما تراه – فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام[2]، وعلى الرغم من اتجاه معظم قوى الحركة الصليبية إلى المشرق، إلا أن ذلك لم يمنع من بقاء فكرة احتلال إفريقية ماثلة في أذهان ذوي الأفكار الصليبية وبقي تطلع النورمان للاستيلاء عليها قائماً حتى تم لهم ذلك في عهد رجار الثاني حيث استولى على معظم سواحلها من طرابلس شرقاً إلى مدينة تونس غرباً في سنة 543هـ/ 1148م. فكانت الحرب الصليبية مشتعلة في الجبهة الإفريقية أثناء احتدامها في جبهة المشرق، وبقي الوجود النورماني ماثلاً فيها حتى قام عبدالمؤمن بن علي زعيم دولة الموحدين بطردهم من المهدية آخر معاقلهم فيها سنة 555هـ/1160م[3]، وعندما حدث نوع من تبدل ميزان القوى في المغرب الإسلامي نجد ذلك ساهم في جبهة المقاومة الإسلامية في المشرق في عهد نور الدين محمود زنكي وصلاح الدين الأيوبي، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

---

(1) الحروب الصليبية في شمال إفريقية ص 16.

(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحروب الصليبية في شمال إفريقيا ص 17.

(3) الحروب الصليبية في شمال إفريقيا ص 18.

سادساً: استنجاد إمبراطور بيزنطة بالبابا أوربان الثاني:

استنجد الإمبراطور الكسيوس كومنين (1081–1118م) بالبابا أوربان الثاني ضد السلاجقة، ولم يكن هذا الاستنجاد في الحقيقة الأول من نوعه بل سبقه استنجاد الإمبراطور (ميخائيل السابع) بالبابا (جريجوري السابع) عقب موقعة ملازكرد 463هـ السالفة الذكر، فالمعروف أن شن الحرب على الترك كان من الأغراض التي تنطوي عليها الدعوى البيزنطية، فالأناضول يعتبر أكثر أهمية من بيت المقدس عند الدولة البيزنطية[1]، ولذلك لما أصبحت عاصمة البيزنطيين مهددة من قِبل السلاجقة كان لزاما على الإمبراطور أن يستنجد بالغرب في مقابل اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية، وقد أرسل البابا جريجوري السابع إلى الإمبراطور ميخائيل السابع رداً مرضياً بدافع العاطفة المسيحية من جهة، وبدافع سياسي من جهة أخرى، فما يحشده من جيش سوف يقضي على الانشقاق بين الكنيستين ويزيد من نفوذ البابوية في الشرق مثلما زاد في الغرب. غير أن الحرب التي نشبت بين جريجوري السابع والإمبراطور (هنري الرابع) منعته من المضي في مشروعه ولما خلف الإمبراطور (الكسيوس كومنين) الإمبراطور ميخائيل السابع: بعث برسالة إلى البابا أوربان الثاني وإلى كبار رجال الإقطاع سنة 478هـ يدعوهم لإرسال المساعدات لنجدة إخوانهم في الشرق وحماية القسطنطينية ضد الخطر السلجوقي[2]، ولقد كان (الكسيوس) يرغب في أن يبعث له الغرب ببعض الجند المرتزقة ولكن البابا أوربان لم يشأ أن يجعل نفسه في خدمة الدولة البيزنطية، بل أراد أن تتولى البابوية تقديم المساعدة للمسيحيين في الشرق، وهذا التغيير في الفكرة يؤدي إلى أن يحشد العالم المسيحي اللاتيني جيشاً ضخماً، لا أن يبعث بجنود مرتزقة تخضع لأهواء الأمراء. إن في تصرف البابا مقابل الإمبراطور ميخائيل السابع تبرز أهمية الإبداع والتفكير واقتناص الفرص وتسخير الوسائل في خدمة مشروعهم وعلينا أن نستفيد من هذا الدروس الكثيرة لخدمة المشروع الإسلامي،

---

(1) الحروب الصليبية د. علية الجنزوى ص 253.

(2) الحرب والروم اللاتين (1/150).

وأشار هذا الاختلاف في التفكير من المتاعب منذ البداية ما أساء العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، والثابت تاريخياً أن المسئول الأول عن قيام الحركة الصليبية هو البابا أوربان الثاني، فهو الذي أنذر بقيام تلك الحروب[1] يؤيده في دعواه الجهاز الكنسي في الغرب، وينسب إليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له، الدور الرئيسي في تحقيق هذه الفكرة[2].

سابعاً: شخصية البابا أوربان الثاني ومشروعه الشامل للغزو الصليبي:

ولد أوربان الثاني عام 427هـ/1035م في شاتيون سير مارن واسمه أودو، وقد درس على يدي القديس برنو الذي أسس نظام الكارسوسيين. وفي عام 461هـ/1068م أصبح راهباً في دير كلوني بالقرب من ماكون، وقد التحق بخدمة البابا المتسلط المؤمن إيماناً راسخاً بتفوق البابوية على الإمبراطورية ونعني به جريجوري السابع وتم تعيينه كاردينالا أسقفياً لاوستيا في عام 473هـ/1080م، وخدم الكنيسة في ألمانيا خلال المرحلة من 477هـ/1084م إلى 478هـ/1085م، وقد ساند على نحو شرعي البابا جريجوري السابع في خلال صراعه مع الإمبراطور هنري الرابع، وقد ارتبط أوربان الثاني بسينودس (مجمع كنسي) في ساكسوني الذي عقد عام (478هـ/1085م) وعند وفاة البابا فيكتور الثالث في 16 ديسمبر 1087م في مونت كاسينو تمت السيطرة على روما عن طريق كايمنت الثالث، وتم انتخاب أوربان الثاني بعد تأخير طويل في تراكينا إلى الجنوب من روما بالقرب من جايتا وحمل اسم أوربان الثاني (481- 493هـ/1088- 1099م)[3]. ونلاحظ من خلال سيرة هذا الرجل أنه اتسم بالنشاط الوافر، وإحكام سيطرته على كافة مناطق نفوذ الكنيسة الأم، ولعل موقفه من أسبانيا يمثل لنا بعد مهماً، فقد أيد ذلك البابا الحرب ضد المسلمين وعندما أمكن للأسبان إخضاع بعض المناطق التي كانت من قبل تحت سيادة أعدائهم سارع البابا بجعلها ضمن نفوذ كنيسة روما، ولاشك أن

(1) الحروب الصليبية د. علية الجنزوري ص 254.

(2) المصدر نفسه ص 254 العرب والروم اللاتين (1/ 56).

(3) الحرب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، د.محمد مؤنس ص 63.

أوربان الثانى فى دعمه الحرب ضد المسلمين هناك كان يسير على خطى وهدى البابا الكسندر الثانى، وهذا يؤكد لنا على حقيقة محورية وهى وجود استراتيجية عليا للبابوية فى روما تتجه نحوها وتنفذها بحرص فى القرن الحادى عشر الميلادى/الخامس الهجرى على نحو خاص بغض النظر عن تغير وتقلب البابوات، وأهم ملامح هذه الاستراتيجية هى توسيع نفوذ كنيسة روما، وتوحيد الكنائس، ومحاربة الإسلام أينما وجد باعتباره العدو اللدود الذى لامناص من مواجهته ومحاولة الانتصار عليه بأى ثمن[1]، ومن الملاحظ أنه من خلال الاستغاثات البيزنطية المتعددة، وانشغال من سبق أوربان الثانى بأمور متعددة، جاءت السانحة لهذا البابا، وفى مجمع بياكنزا بإيطاليا فى مارس 1095م،488هـ اتجه إلى الاستجابة لدعوة الإمبراطور الكسيوس الأول كومنينوس (474-512هـ)(1081-1118م) غير أن مجمع بياكنزا أخلق فيه البابا فى الدعوة لشن حرب صليبية ضد المسلمين فى الشرق[2].

1- أوربان الثانى يعقد مجمعاً كنسياً فى جنوب فرنسا :

إن إخفاق مجمع بياكنزا لم يثن ذلك البابا العنيد الطموح عن تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة، وقد اتجه إلى بلاده الأصلية فرنسا من أجل معاونته على نجاح مشروعه المرتقب، وقد دل ذلك الاختيار على ذكائه خاصة أن جنوب فرنسا التقليدى المحافظ كان بمثابة منطقة تماس مع الحرب التى شنها الإسبان ضد المسلمين فى أسبانيا، بالإضافة إلى أن مجرد طرح الفكرة على الأرض الفرنسية كان من الممكن أن يحقق نجاحاً فورياً من خلال أنها الموطن الأصلى للبابا، وهو أدرى بشعابها، خاصة أنها - فى نفس الحين - ذات تاريخ خاص مع الإسلام خلال معركة بواتيه المعروفة لدى المسلمين بمعركة "بلاط الشهداء" عام (114هـ/732م) والتى فيها هزم المسلمون وتم وقف المد الإسلامى وإعاقته عن الامتداد فيما وراء جبال البرانس، وسوف ندرك من خلال تحليل خطاب البابا فى مجمع كليرمنت أن

(1) الحروب الصليبية لعلاقات بين الشرق والغرب د. محمد مؤنس ص 65.
(2) المصدر نفسه ص 65.

كافة تلك الزوايا، لـم تغب عن ذهن ذلك الرجـل الحـاد الذكاء، القوى الإرادة منذ أن تربى فى أحضان حركة الكارسوسيان الرهبانية الصارمة، مهما يكن من أمر، فإن البابا اتجه إلى كليرمنت فران بجنوب فرنسا وعقد مجمعاً كنسياً هناك، وفى اليوم العاشر عقد المجمع الذى تناول فيه العديد من القضايا التى تهم الكنيسة: ألقى البابا على مستمعيه خطاباً بالغ الأهمية والخطورة وذلك فى يوم 27 نوفمبر 1095م[1].

2- الخطبة التى ألقاها البابا أوربان الثانى :

كان للخطبة التى ألقاها البابا أوربان الثانى فى المجمع الدينى الذي انعقد فى كليرمونت عام 488هـ/ 1095م أثرها البالغ فى نفوس المسيحيين المجتمعين فى هذا المجمع، فقد ألهبت حماسهم وأصابتهم بحالة عبر عنها المؤرخ جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب): بأنها نوبة حادة من الجنون[2]، إذ قال البابا : يا شعب الفرنجة، يا شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد، بلاد المسيحيين فى الشرق، وقلب موائد القرابين المقدسة، ونهب الكنائس وخربها وأحرقها، وساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب، ودنسوا الأماكن المقدسة برجسهم، وقطعوا أوصال الإمبراطورية البيزنطية، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين كاملين. على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم أنتم. أنتم يا من حباكم الله أكثر من أى قوم آخرين بالمجد فى القتال، وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون فى وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوى قلوبكم – أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا – الضريح الذى تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التى لوثت ودنست – لاتدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 66.

(2) حضارة العرب نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى ص 237.

من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التى تسكنونها الآن والتى تحيط بها من جميع جوانبها البحار، وتلك الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بمن يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم فى الحروب الداخلية. طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد، واقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها فى ثمارها. هى فردوس المباهج. إن المدينة العظمى القائمة فى وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقادها. فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى فى ملكوت السموات[1].

وهكذا كان لهذه الكلمات الحماسية التى ألقاها البابا أوربان الثانى أثرها البالغ فى نفوس المسيحيين المجتمعين، فبعد أن أنهى البابا خطبته مباشرة صاح المجتمعون صيحة رجل واحد قائلين: هكذا أراد الله[2] ولم يكد البابا أوربان الثانى ينتهى من خطابه هذا، حتى نهض إليه الأسقف أدهمير دى مونتيلن وركع أمام قدمى البابا، والتمس منه الإذن بأن يلحقه بالحملة المقدسة، وأمام هذا الموقف المؤثر تحركت مشاعر المجتمعين وتدافعوا بالمئات يركعون أمام البابا مثل أدهمير فى حماس منقطع النظير وحملوا الصلبان وحلفوا جميعاً على تخليص المدينة المقدسة، ويعقب المؤرخ المعاصر للأحداث وهو - روبرت الراهب - فيقول: يا له من عدد كبير من الناس، من كل الأعمار ومن مختلف المستويات الذين تقلدوا الصلبان خلال مجمع كليرمونت، وقد حلفوا على تخليص المدينة المقدسة، وقد وصل عددهم إلى 300 ألف[3] وإزاء هذا الموقف المتحمس لأدهمير - عينه البابا أوربان الثانى ممثلاً شخصياً ونائباً عنه ليوضح للجميع أن الحملة تحت إشراف الكنيسة، بل تحت إشرافه هو مباشرةً[4].

(1) قصة الحضارة (15/ 16،15) وثائق الحروب الصليبية ص 99 - 100.

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى ص 237.

(3) المصدر نفسه ص 237.

(4) الحرب الصليبية ص 51، حسن حبشى دور الفقهاء ص 238.

3- ما يستنتج من خطاب البابا أوربان الثاني؟

قام الدكتور محمد مؤنس عوض بدراسة واعية للحروب الصليبية واستفاد من مراجعهم وقام بتحليل لخطاب البابا من خلال أربعة نصوص لأربعة من المؤرخين المعاصرين، هم فوشيه الشارترى، وروبير الراهب، وجويرت النوجتى ويودريك الدولى، وهناك تصور بأن فوشيه الشارترى كان من بين الذين حضروا مجمع كليرمنت، وبصفة عامة، من الممكن عقد مقارنة بين النصوص الواردة فى مؤلفات المؤرخين الأربعة من أجل التوصل إلى حقيقة ما أعلنه البابا فى خطبته الشهيرة، وعند مقارنة تلك النصوص يمكن استنتاج لآتى:

أ- وجه البابا حديثه إلى جنس الفرنجة: من أجل التركيز على البعد الأثنى أو العرقى، وأوضح أن الله قد ميزهم بموقع بلادهم، وبعقيدتهم الكاثوليكية، وعمل على تذكيرهم بالبعد التاريخى من خلال أمجاد شارل مارتل وشارلمان وما قدماه للمسيحية من خدمات جليلة، عنى نحو عكس أهمية حافز "الذاكرة التاريخية" فى تشكيل تلك الظاهرة التاريخية الكبرى(1).

ب- أشار البابا إلى أن هناك أخباراً مؤسفة ومزعجة قدمت من الشرق مفادها أن جنساً ملعوناً وهم عرق ملعون، عرق غريب تماماً عن الله وهم حقاً جيل لم يتوجه بقلبه أو يعهد بروحه إلى الله(2)، (ويقصد بذلك الأتراك السلاجقة) ذبحوا المسيحيين الشرقيين، وحولوا الكنائس إلى اسطبلات لخيولهم وأن دماء أولئك المسيحيين تنادى مسيحيى الغرب من أجل إنقاذهم من براثن أعدائهم الكفار.

جـ- عمل البابا على إثارة مطامع سامعيه فى ثروات الشرق فأوضح أن الأرض فى الغرب الأوروبى ولاسيما فى فرنسا ضاقت بسكانها، وطلب من الناس الذهاب إلى الشرق حيث أرض كنعان التى تفيض لبناً وعسلاً وفى ذلك الدليل الجلى

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 67.

(2) الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم كارين آرمسترونغ ص 35.

الذى لا يقبل ارتياب مرتاب على أن البعد الاقتصادى للحركة الصليبية كان موجوداً، وقد تم الإعلان عنه بصراحة كاملة منذ اللحظات الأولى لميلادها.

د - وعد البابا كل من يحمل السلاح ويتجه إلى الشرق بأن تغفر ذنوبه وآثامه وبمعنى آخر قدم لهم الغفران الكنسى، أما إذا استشهد المرء فى سبيل تحقيق هدفه فإنه يعد شهيداً من شهداء المسيحية الأبرار وجميعها مغريات مهمة فى عصر سادته ظاهرة الهوس الدينى العاطفى فى العالم المسيحى الأوروبى.

هـ - اتجه البابا إلى الإشارة إلى بيت المقدس، وهى الجنة الأرضية قلب العالم، التى شهدت ميلاد السيد المسيح وطهرها بموته وذكر لمستمعيه أنها تناديكم من أجل تخليصها من براثن محتليها من الكفار، وأود أن أقرر هنا أن تلك المدينة مثلت محوراً على قدر عظيم من الأهمية من أجل إثارة الشعور الدينى لدى مستمعى البابا، وفى أغلب النصوص التى وردت إلينا بشأن الخطاب المذكور نجد أن بيت المقدس تحتل مكاناً بارزاً ومحورياً، وهو أمر منطقى تماماً من خلال مكانتها وقداستها الدينية، كذلك أنها مثلت الحلم الجماعى الخاص بالحج المسيحى فى ذلك العصر.

و - حرص البابا على تدعيم خطابه بعدد من النصوص الواردة فى الكتاب المقدس من أجل إثارة الشعور الدينى لمستمعيه، أو ربما من أجل أن يعطى لخطابه قداسة خاصة مثل عبارات ذلك الكتاب فى العقل الجمعى الأوروبى فى ذلك العصر، ومن أمثلة ذلك العبارة الواردة فى إنجيل متى وهى: من أحب أباً وأماً أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى[1]. كذلك العبارة القائلة : من لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى[2]. والتى وردت فى نفس الإنجيل المذكور.

ز- ترتيب الأولويات عند البابا أوربان الثانى: كان البابا أوربان الثانى بارعاً فى عرض أفكاره وكذلك فى إخفاء بعضها، وقد ركز على أمر بيت المقدس حتى

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 68.

(2) الكتاب المقدس العهد الجديد، متى، الإصحاح(10، 27، 28).

يقدم طريقًا واحداً على الغرب الأوروبى السير فيه دون تردد ويخلق لمعاصريه (وحدة الهدف) من خلال وحدة المؤسسة الدينية الداعية له فى صورة البابوية، وعلى هذا الأساس، لم يرد فى الخطاب المذكور أية عبارات عن رغبته العارمة فى توحيد الكنائس وإخضاع كنيسة القسطنطينية لسيطرة الكنيسة الأم فى روما كذلك لم يرد فيه ما يدل على الهدف التنصيرى وهو هدف محورى للبابوية من خلال المشروع المرتقب، وتعليل ذلك الإخفاء، يكمن فى أن البابوية أدركت أن هناك أولويات فى طرح المشروع ينبغى عدم تخطيها، وأن وحدة العالم المسيحى تتطلب عدم تشعيب الأهداف وطرحها حتى لا يغيب الأمر منذ اللحظات الأولى لميلاد المشروع، ويلاحظ هنا أن لغة البابوية فى الخطاب ذات طابع متكتم فى عرض الأهداف الأخرى لها، أما فيما بعد نجاح المشروع والاستيلاء على الرمز الدينى المسيحى فى صورة بيت المقدس، وجدنا - والأمثلة هنا أكثر من أن تحصى - الإفصاح عن الأهداف الأخرى بوضوح وصراحة كاملتين، وفى هذا دليل واضح على أن تلك المؤسسة الدينية ذات التأثير الفعال رأت تحقيق أهدافها جزءاً وليس دفعة واحدة، وهو أخطر ما فى المشروع برمته، وفى تقديرى[1]، أن البابا أوربان الثانى لم يغب عن تفكيره ذلك الجانب بحكم أنه المهندس الأول للمشروع والراعى الأصلى لفكرته، وفى واقع الأمر: أن الخطاب الذى ألقاه البابا فى مجمع كليرمنت يعد على جانب كبير من الأهمية التاريخية، فلم نسمع من قبل فى تاريخ أوروبا القرون الوسطى أن خطاباً كان معبراً عن عصره بمثل هذه الصورة كما لم نسمع عن خطاب حرك الجماهير الأوروبية الغفيرة عن مواطنها الأصلية إلى الشرق بمثل تلك الدرجة التى تحدثنا بها المصادر التاريخية المعاصرة، ولذلك لا ننظر إليه على أنه مجرد خطاب عادى، بل إنه إعلان ما يشبه "الحرب العالمية" فى العصور الوسطى من جانب الغرب الأوروبى ضد الشرق الإسلامى، وذلك دونما مبالغة قولية أو اعتساف فى الأحكام، بل من خلال شواهد التاريخ التى وقعت

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 68.

فى أعقابه. ويلاحظ أنه فى أعقاب إلقاء البابا لخطابه صاح الحاضرون صيحة واحدة وهى الله يريد ذلك، وكانت صيحة المسيحية لمحاربة الإسلام وأهله، واتخذو الصليب شعاراً ومن هنا كانت تسميتهم بالصليبيين(1).

ح- قدرة البابا أوربان الثانى على تقديم مشروع عام : استطاع أوربان الثانى أن يوحّد شعوب الغرب فى مشروع عام، على الرغم من أن لغات هذه الشعوب وعاداتها المحلية، واهتمامات أبنائها كانت تختلف اختلافاً بيناً. ولكن الفكرة الصليبية التى جمعت جماهير الغرب الأوروبى لم تكن لتنجح لو لم تكن متوافقة مع حركة المجتمع، هذا التوافق بين الفكر والواقع، بين التبرير الأخلاقى للحرب وحركة المجتمع، هو الذى خلق الإيديولوجية التى تحركت الجماهير الأوروبية فى إطارها، فعلى المستوى الشعبى كان تفكير الناس فى أوروبا الغربية فى القرن الحادى عشر يتوازى مع السياسة البابوية وفكرة الحرب المقدسة إلى حد ما، إذ أن أوروبا كانت قد بدأت حركة إحياء دينية مع مشرق شمس القرن الحادى عشر. ومع اقتراب الألف الأولى بعد المسيح من اكتمالها سرت موجة بالإحساس بالذنب والرغبة فى التوبة فى غرب أوروبا، فقد تعمق لدى الإنسان الغربى الشعور بالخطيئة والإحساس بالذنب، والحقيقة أن من يقرأ مصادر تاريخ القرن الحادى عشر فى غرب أوروبا لا يمكن أن يغفل إصرار الناس فى ذلك الزمان على أن يضمنوا لأنفسهم غفران خطاياهم وكان هذا نتاجاً للمشاعر الألفية والأخروية التى ملكت على الناس وجدانهم وعقولهم مع توقعاتهم لمجيء الدينونة، وانتشر الوعاظ الجوالون فى كل أنحاء الغرب الأوروبى يحثون الناس على الزهد والتوبة والتشبه بحياة الفقر التى عاشها الحواريون. وفى غمرة هذا التدين العاطفى الذى حكم تصرفات المجتمعات الغربية سادت مشاعر الكراهية والتعصب ضد أتباع الديانات الأخرى، بل، وضد من يعتنقون مذهباً غير المذهب الكاثوليكى. وثمة دليل قوى على هذا فى طيات الملحمة الصليبية المعروفة باسم "أنشودة أنطاكية" التى تعكس،

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 69.

بشكل أمين، روح الانتقام التى سرت فى المجتمع الكاثوليكى ضد "الوثنيين المخذولين" - على حد زعمهم - كما أن القصيدة لا تعتبر أن الأمة المعادية للمسيح هم المسلمون فقط، وإنما يصدق هذا الوصف أيضاً على كافة من لا يعترفون بعقيدة الكنيسة الكاثوليكية، وهى بهذا تجسد التفكير الشعبى فى أوروبا القرن الحادى عشر، هذا التفكير الشعبى كان هو الآخر واحداً من ملامح الإيديولوجية العامة التى أفرزت الحركة الصليبية، لقد تمثل نجاح أوربان الثانى فى أن خطبته التى دعا فيها إلى الحملة الصليبية كانت بمثابة بؤرة تجمعت فيها كل الأفكار التى مثلت الإطار الإيديولوجى لحركة المجتمع الغربى آنذاك على الرغم من الاختلافات اللغوية والعادات والتقاليد. وهكذا لم تكن استجابة جماهير المستمعين إلى البابا فى كليرمون مجرد رد فعل لبلاغة كلماته، وإنما كانت هذه الاستجابة تعبيراً عن فرحة أولئك المستمعين بالمشروع الذى مس أوتار الآمال التى كانت تداعب كلماتهم تقريباً، وجاءت الحرب المقدسة ستاراً مدهشاً يمكن للجميع أن يتحركوا من خلاله لضمان تحقيق أحلامهم الدنيوية وخلاصهم الأخروى، وبوسعنا أن نورد عشرات التعبيرات الواردة فى المصادر التاريخية والحوليات المعاصرة تصف الصليبيين بأنهم "فرسان المسيح" و "رجال المسيح" "أولئك الذين يكونون جيش المسيح و"الشعب المقدس" و"شعب الرب" وهى كلها تعبيرات تشير بأن فكرة الحرب الصليبية كانت قد رسخت فى الأذهان بحيث كان الناس على اقتناع كامل بأنهم حين يشاركون فى هذه الحملة لا يفعلون ذلك استجابة لأوامر أى مخلوق، ولا حتى البابا نفسه، وإنما هم يطيعون الرب[1].

4- الاجتماع الاستشارى للبابا بعد خطابه:

كان البابا أوربان الثانى يجتمع مع رجال الدين النصرانى ويستشيرهم فى حشد الطاقات الرسمية والشعبية لغزو المسلمين، فقد اجتمع مع أساقفته وبعد هذا الاجتماع الاستشارى خرجوا بالقرارات الآتية :

---

(1) الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، د.قاسم عبدالله ص 24 ، 25.

* كل من ارتكب جرماً يعاقب عليه، يصبح فى حل من العقوبة إذا اشترك فى هذه الحرب المقدسة.

* كل مال من عقار أو متاع يتركه المحارب الذاهب إلى الأرض المقدسة يكون تحت حماية الكنيسة أثناء غيابه .. وترده كاملاً حين يعود المحارب إلى وطنه.

* ينبغى لكل مشترك فى الحملة أن يحمل علامة الصليب.

* على كل من اتخذ الصليب أن يفى بالوعد بالمسير إلى بيت المقدس فإذا رجع عن عزمه طرد من الكنيسة.

* كل بلد يخلص من أيدى الكفار "المسلمين" يجب أن يرد للكنيسة.

* ينبغي أن يكون كل فرد جاهزاً لمغادرة وطنه في عيد العذراء.

* ينبغى أن تلتقى الجيوش فى القسطنطينية. ولقد قام البابا هذا فأرسل أساقفته بهذه القرارات لتبليغها لملوك العالم المسيحى وأمرائه فى الغرب[1].

5- حملة الدعاية الصليبية :

افتتح خطاب البابا أوربان الثانى مرحلة على جانب كبير من الأهمية فى صورة الدعاية الصليبية وهى دعاية قامت على أساس الانتقال الشخصى للعديد من المواقع، ومخاطبة قطاعات مختلفة من البشر، وقد كان لها دورها الفعال من أجل إنجاح ذلك المشروع، ومن الممكن ملاحظة أن الحملة الصليبية الأولى – على نحو خاص – تم الإعداد الدعائى لها بمنتهى البراعة والإتقان منذ الخطاب المذكور وفى هذا الصدد تم حشد جيش من الدعاة توسيع صوت دائرة الفكر من أجل مخاطبة كافة قطاعات المجتمع الأوروبى كل على قدر تصوره، وقد قام البابا أوربان الثانى بعد عقد مجمع كليرمنت بالانتقال إلى مدن تور، وبوردو، ونيميز ومكث تسعة أشهر داعياً لمشروعه الجديد[2]، كذلك فإنه قام بإرسال العديد من الخطابات،

(1) دروس وتأملات فى الحروب الصليبية ص 18.
(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 69.

من أجل الدعوة لمشروعه الصليبي، ومن ذلك الرسائل التى أرسلها إلى كافة المؤمنين – بالمسيحية – فى الفلاندروز، وكذلك إلى بولونا وقالو ميروز وكذلك إلى كونتات سردانيا وروسيللون، وبيسالون وامبورياس، ويلاحظ أن الخطابات المذكورة لا يمكن فصلها عن دور البابا فى مجمع كليرمنت فهى تكملة ومواصلة حقيقية لدوره الدعائى للحروب الصليبية[1].

6- العقلية التنظيمية لأوربان الثاني :

ويلاحظ أن الخطابات التى أرسلها البابا من أجل مشروعه الصليبى، تقدم لنا عدداً من التفصيلات التى لم ترد فى خطاب كليرمونت ومن بينها تقريره بدور المندوب البابوى أدهيمار أسقف بوى، ويذكر ضرورة طاعة أوامره كأنها صادرة من البابا شخصياً، كذلك قرر أنه لا يسمح للرهبان أو القساوسة بالاتجاه إلى الشرق إلا بعد الحصول على إذن من أساقفتهم، وكذلك مقدمى الأديرة تجنباً للتمرد والفوضى وينبغي أن ندرك : أن تلك المصادر الوثائقية التى بين أيدينا تكشف لنا عن العقلية التنظيمية الدقيقة لأوربان الثاني؛ ولذلك نراه امتلك رؤية شاملة للمشروع الصليبى – فى تلك المرحلة المبكرة على الأقل – وقد حرص الحرص أجمعه على نصيحة من سيشاركون فى الرحلة إلى الشرق بضرورة الطاعة العمياء لأوامره، وكذلك أوامر رؤسائهم المباشرين، كما نستشعر أن البابا ألح على فكرة وحدة العالم المسيحى، وكأن ما حدث فى الشرق للمسيحيين – فى زعم الدعاية الأوروبية المغرضة – هو أمر يدخل فى صلب اهتمامات قاطنى الغرب الأوروبى، وأن مساعدة الفرنجة وغيرهم للمسيحيين الشرقيين هو جزء رئيسى من واجباتهم كمسيحيين[2]، على أية حالة، فإن الثمرة الطبيعية للدور التنظيمى والتخطيطى والدعائى الذى قام به البابا وكبار رجال الكنيسة الذين معه هو قيام الحرب الصليبية، ومما ساعدهم على ذلك اختيار التوقيت المناسب للحرب.

---

(1) المصدر نفسه ص 70.

(2) الحروب الصليبية لعلاقات بين الشرق والغرب ص 70.

7- بطرس الناسك :

تأثر بطرس الناسك بخطاب البابا أوربان الثانى وكان له تأثير شديد على الناس وكان يركب حماراً – ينتقل به من بلد إلى آخر، وكان يسير حافى القدمين ويرتدى ملابس رثة، ويتحدث المؤرخ روبرت الراهب عنه فيقول : إن بطرس هذا هو رائد الحرب الصليبية، وأنه كان يفوق فى ورعه القسيسين والأساقفة، وكان ممتنعاً عن تناول الخبز واللحم بل جعل غذاءه السمك، وكان لا يسمح لنفسه إلا بقليل من النبيذ وبعض الطعام الغليظ[1]. وعلى الرغم من مظهر بطرس الناسك وحالته الرثة إلا أنه كانت له قوة غريبة تثير حماس الرجال والنساء وتجذب الجماهير إليه، فاستطاع أن يجذب وراءه حوالى خمسة عشر ألف شخص من الفقراء الذين كانوا يتبعونه من بلد إلى بلد آخر بحماس شديد على الرغم من أن غالبيتهم كانوا لا يدرون شيئاً عن استعمال السلاح أو الفروسية، بل لم يشتركوا فى أى حرب من قبل، إلا أن تأثرهم بكلمات بطرس الناسك الحماسية ومظهره جعلهم يندفعون فى حماس جارف وراءه دون التفكير فى أى احتمالات أخرى، فلقد كانت خطبه نارية ممزوجة بالبكاء والعويل وصب اللعنات على الكافرين، وبوعد الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة، وتؤثر فصاحته التمثيلية الخيالية فى قلوب الجموع[2]. ومما نحب الإشارة إليه أن الوعاظ الذين قاموا بدور مماثل لبطرس الناسك فى التبشير بالحروب الصليبية والدعاية لها إنما كانوا يعدون بالمئات والآلاف[3] وقد تأثر الناس بهؤلاء الوعاظ. ويصف المؤرخ بودرى بوصفه معاصراً لأحداث هذه الفترة الزمنية أن بعض العامة من المسيحيين كانوا يرسمون على صدورهم علامة الصليب بواسطة الحديد المحمى على النار ليتباهوا بإظهار حماسهم وليوهموا الآخرين بأن هذه العلامات إنما جاءتهم عن طريق معجزة[4] وهكذا انطلق الجميع

---

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الادنى فى الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية ص 239.

(2) حضارة العرب نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء ص 239.

(3) دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص 21.

(4) دور الفقهاء والعلماء ص 240.

يتجهزون للذهاب للأراضي المقدسة بالشام بعد تلك الكلمات التي سمعوها، وكان معظمهم يبيعون ما يملكون ليجهزوا أنفسهم للرحيل طمعاً في محو ذنوبهم ورضاء الله عنهم، وكان الآباء سعداء برؤية أولادهم وهم يرحلون، كما كانت الزوجات في غاية الفرح لدى رؤيتهن لأزواجهن وهم يتأهبون للرحيل، فحماس الجميع كان منقطع النظير، واقتناعهم بهذا العمل كان شديداً[1]، وعلى قدر الفرحة الكبيرة التي شعر بها أولئك الذين غادروا بلادهم للالتحاق بالحملة الصليبية الأولى كان الأسى والحزن يخيم على أولئك الذين لم يخرجوا في تلك الحملة[2].

8- غفلة المسلمين عما يدبر لهم :

كانت الدولة الإسلامية في العهد الأموي مثلاً لها جهاز استخبارات اخترقت به خصومها المحليين والدوليين، وكانت عيون معاوية اخترقت البلاط البيزنطي، وقد بينت ذلك في كتابي عن الدولة الأموية، وأما بالنسبة لعهد الدولة العباسية فإننا لم نعثر في المصادر الإسلامية على أية خطبة حماسية لأي من الخليفتين العباسي أو الفاطمي كرد فعل على خطبة البابا أوربان الثاني أو على الأقل نشعر من أن المسلمين علموا بما جرى في مؤتمر كليرمونت وما بعده. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى انشغال كل من الدولتين العباسية والفاطمية بالتنازع فيما بينهما ومحاولة كل منهما التغلب على الأخرى لتكون لها السيادة، فظلوا في سبات عميق حتى وصلت الحملة الصليبية الأولى بالفعل إلى بلاد الشام[3]، ولعل ما يؤكد هذا ما جاء في كتابات ابن القلانسي من أن أخبار الصليبيين لم تصل للمسلمين في بلاد الشام إلا في سنة 490هـ/ 1097م، فيقول في ذلك. وتواصلت الأخبار بهذه النوبة المستبشعة في حق الإسلام فعظم القلق وزاد الخوف والفرق[4]،

(1) المصدر نفسه ص 240.
(2) المصدر نفسه ص 240.
(3) المصدر نفسه ص 241.
(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 241.

ومع ذلك فإن رد الفعل الإسلامي الوحيد الذى ظهر قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، كان من جهة السلاجقة فى آسيا الصغرى عندما استطاعوا القضاء بكل سهولة على القسم الأول من القوات الصليبية المعروفة باسم "حملة العامة" فضلاً عما قاموا به من عمليات دفاعية عن ممتلكاتهم فى آسيا الصغرى[1]، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى. كان الصليبيون يتحركون من خلال قيادة مؤهلة، ووضوح هدف، وحيوية ونشاط وطول نفس، موظفين القدرات الخطابية فى التأثير على الناس، ومستخدمين عوامل متعددة، كالاقتصادى والسياسى والاجتماعى والدينى لتحريك شعوب غرب أوروبا، كما كان للمكانة الروحية للبابا. تأثير على تحرك الجيوش نحو المشرق، فقد تحرك البابا من خلال مشروع وظف فيه كافة الإمكانات والطاقات المتاحة.

المبحث الثالث: بدء الحرب الصليبية الأولى

بعد خطبة البابا أوربان الثانى فى كليرمونت بفرنسا التى دعا فيها إلى الحرب الصليبية، طلب إلى رجال الكنيسة أن يعودوا إلى بلادهم، كيما يبشروا بالحروب. واجتهد رجال الكنيسة فى ذلك وكانت الثمرة الطبيعية للدور الدعائى الكبير الذى قام به البابا ومن وثق فيهم، قيام الحرب الصليبية الأولى والتى انقسمت إلى قسمين، حملة العامة، والثانية حملة الأمراء، واحتلت الحملة الصليبية الأولى بشقيها اهتماماً كبيراً لا نظير له من جانب المؤرخين المعاصرين لها سواء اللاتين أو البيزنطيين أو المسلمين وكذلك من جانب المؤرخين المحدثين الذين تخصصوا فى دراسة الحروب الصليبية، ولعل مرجع ذلك يكمن فى النتائج الخطيرة التى نتجت عن تلك الحملة على نحو خاص، حيث أدت إلى تأسيس إمارات صليبية فى الشرق طال عمر بعضها إلى قرنين من الزمان[2]. وقد نجحت الحملة الصليبية إلى حد كبير فى تثبيت وتأسيس أربع إمارات لاتينية: الأولى فى أعالى الفرات وهى الرها، والثانية فى أعالى الشام وهى انطاكية، والثالثة على الساحل الشامى وهى

(1) المصدر نفسه ص 241.

(2) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص 71.

طرابلس، أما الرابعة، فكانت فى قلب فلسطين، وهى بيت المقدس[1]، إضافة إلى أربع بارونيات كبرى: هى صيدا ويافا وعسقلان والجليل، واثنى عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبى مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في: أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان، حيفا، تبنين، بانياس، كيفا، اللد، وبيروت[2]، وجدير بالذكر أن هذا النجاح الذى حققته يرجع إلى عدة عوامل وأسباب ساهمت فيه منها.

* انعدام الوحدة السياسية فى العالم الإسلامى.
* الصراع على السلطة داخل البيت السلجوقى.
* وجود الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية.
* سقوط الخلافة الأموية بالأندلس.
* دور النصارى الذين كانوا يعيشون فى بلاد الشام.
* موقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبى.
* دور الباطنية الإسماعيلية الرافضية فى عرقلة الجهاد ضد الصليبيين.
* انتشار الفكر الشيعى الرافضى والباطنى.
* تدهور الحياة الاقتصادية قبل الغزو الصليبى.
* ضعف الدولة البيزنطية.
* تمرس فرسان الإفرنج على الحرب.
* الإمدادات الأوروبية المتواصلة للحملة الصليبية.
* الاستبداد السياسى وأثره على الدين والحياة.

---

(1) دور الفقهاء والعلماء فى الشرق الأدنى ص 37.
(2) المصدر نفسه ص 27.

* انشغال بعض فقهاء الأمة فى معارك فى فقه الفروع وقد تحدثت عن كل سبب من هذه الأسباب بالتفصيل فى كتابى دولة السلاجقة والمشروع الإسلامى لمقاومة التغلغل الباطنى والغزو الصليبى(1).

أولاً: استراتيجية الحملة الصليبية بعد الاحتلال:

يهمنا هنا أن نشير إلى أن القوى الفرنجية المحتلة - والتى قُدر وخطط لها أن تعيش فى بيئة غريبة - كان لابد لها من اتباع مجموعة من الاستراتيجيات القابلة للتطوير تهدف فى مجملها إلى الإبقاء على صيغة احتلالها لأمد طويل ومن هذه الاستراتيجيات.

* المحافظة بقدر الإمكان وبمختلف الوسائل على أهم سبب من أسباب نجاحها ألا وهو العمل على إبقاء المحيط الإسلامى مشتتاً بقدر الإمكان، لأن ذلك يلغى إمكانية مواجهتها بقوة واحدة مقتدرة، وفى سبيل ذلك عملت بدءاً وباستمرار على احتلال مناطق ذات أهمية استراتيجة تخدم غرض عزل مناطق القوة الإسلامية عن إمكانية التلاقى والتوحد، وكان سبيلها فى ذلك احتلال الرُها لتمنع أو تعيق الاتصال بين العراق وبلاد الشام، كما هو الحال لاحقاً بالسيطرة على مناطق جنوبى بلاد الشام مثل الكرك والشوبك بهدف إعاقة أو تعطيل الاتصال ما بين مصر وبلاد الشام، هذا على صعيد الجغرافيا الطبيعية أما على صعيد الجغرافيا البشرية، فقد حرصت القوى الصليبية على إدامة الصراع العرقى والمذهبى بين أطراف المحيط الإسلامى وقد اتبعت فى ذلك وسائل ترغيب وترهيب، وسياسة تحالف مع قوى ضد أخرى، وقد ساعدها فى ذلك إلى حدود معينة العداء ما بين طرفى الصراع الإسلامى الشيعة والسنة، كما ساعدها وجود أقلية مسيحية أمكن لها استغلال بعض قواها للتحالف معها، والتآمر على محيطها الإسلامى.

* ركزت القوى الصليبية فى احتلالها على مناطق تؤمن لها الاتصال بمركز انطلاقها فى الغرب الأوروبى، ولذلك ركزت على احتلال سواحل بلاد الشام

(1) دولة السلاجقة ص 500 - 525.

ضماناً لذلك، وابتعدت قدر الإمكان عن السيطرة على المناطق الداخلية خشية فقدانها لهذه الميزة، وحتى لا تكون محصورة بين قوى إسلامية على افتراض الخوف من توحيد هذه القوى لاحقاً بما يلحق بها ضرراً يؤدى إلى زوالها.

* عملت القوى الصليبية على إيجاد تحالفات مع قوى يمكن أن تمدها بالمساعدة فى مراحل مختلفة، إما لعداء هذه القوى للمحيط الإسلامى، أو رغبة فى تحقيق امتيازات اقتصادية، وفى هذا الصدد يمكن ملاحظة تحالفها بدءاً مع بيزنطة ثم مع المدن الإيطالية أو بعضها، وأخيراً إمكانية التحالف مع القوى المغولية[1] التى كانت فيما بعد أخطر قوة تهدد كيانات المنطقة الإسلامية.

* حرصت القوى الصليبية منذ بداية تأسيس كياناتها فى الشرق الإسلامى على معالجة المشكلة السكانية التى عانت منها نقصاً مقابل الكثافة الإسلامية، وقد تعاملت القوى الصليبية مع هذه المشكلة على صُعد مختلفة وبوسائل متعددة كانت قابلة لتطوير بحسب مقتضيات الأحوال وتطوراتها، ومن ذلك أنها اتبعت سياسة التقتيل والتهجير للمسلمين من مناطق احتلالها، ثم عدلت ذلك فى فترات لاحقة ضمن إطار إبقاء العناصر السكانية إذا كان ذلك يخدم مصالحها، كما عملت فى نفس السياق على استقطاب مهاجرين إلى مناطق السيطرة الصليبية سواء أكان ذلك من الغرب الأوروبى أو من مناطق أرمينيا أو من نصارى المنطقة الإسلامية، كما أنها لجأت إلى عسكرة المجتمع الصليبى ليكون المجتمع بكافة فئاته وطبقاته قادراً على أداء الخدمة العسكرية لعلاج مشكلة النقص السكانى، ولا أدل على ذلك من أن الجماعات الدينية فى المجتمع الصليبى كانت فى مراحل من التواجد الصليبى أكثر الفئات تطرفاً فى المجال العسكرى مثل جماعات الداوية، والاسبتارية[2].

* ركزت القوى الصليبية على بناء تحصينات عسكرية بخبراتها الذاتية أو تقليداً للخبرات التى وجدتها فى المنطقة الإسلامية، وروعى فى هذه التحصينات أن

(1) دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 27.

(2) دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 28.

تكون أشبه بمحطات إنذار مبكر تكون قادرة على رصد التحركات الإسلامية، ولذا روعى فى اختيار مواقعها فى أن تكون فى مقابلة التجمعات الإسلامية الهامة أو على مناطق تهدد مصالح إسلامية كتلك التى أقيمت على مقربة من الطرق التجارية.

* اعتمدت القوى الصليبية وبناء على تجارب حروبها مع الطرف الإسلامى أسلوب الحرب السريعة الخاطفة، هذه الحرب التى لا تحتاج إلى قوات كبيرة وبنفس القدر يُخطط لها أن تختار أهدافاً منتقاة ضمن معايير زمنية محسوبة، كاعتماد أسلوب الإغارة على المناطق الزراعية فى مواسم نضج المحاصيل مما لا يكلفها قوة عسكرية كبيرة ولكنها بنفس الوقت تكون قادرة وفق هذا الأسلوب على إلحاق أذى كبير بالطرف الإسلامى.

* لجأت القوى الصليبية إلى سياسة عقد الهدن وتقديم بعض التنازلات لبعض الأطراف الإسلامية فى سبيل التفرغ لقوى إسلامية أخرى، وكانت هذه الإستراتيجية ناجحة فى فترة التفكك الإسلامى بل وقادها ذلك إلى حد التدخل إلى جانب طرف ضد آخر إما بعرض صليبى على هذا الطرف أو باستدعاء وطلب من بعض الأطراف الإسلامية.

* عملت القوى الصليبية وبمختلف الوسائل على إبقاء روح الحروب الصليبية قوية فى الغرب الأوروبى لضمان استمرار الحملات الصليبية واستمرار تقديم المساعدات للكيانات الصليبية فى الشرق، فقد حرصت على التواصل الدائم مع أوروبا مما كفل لها الإمدادات البشرية والمادية، وقد شعر ملوك أوروبا بالمسئولية الكبيرة تجاه الإمارات الصليبية فى المشرق، والتزموا بدعمها والدفاع عنها.

* ركزت القوى الصليبية مع مرور الزمن على تبنى استراتيجية مفادها، أن ضمان وجودها فى بلاد الشام يقتضى السيطرة على مصر أو إخراجها من ساحة الصراع بأى شكل من الأشكال، وعلى ذلك نجد أن الحملات الصليبية اللاحقة كان جزءاً منها موجهاً بدرجة رئيسية إلى مصر، والمتتبع لتاريخ الحركة الصليبية يجد

أنهم قد حققوا بعض النجاحات فى هذا الصدد مستغلين حالات عداء كانت تثور بين حكام مصر وبعض مناطق بلاد الشام.

* لجأت بعض الأطراف الصليبية إلى القيام بحملات عسكرية تهدف إلى ضرب المعنويات الإسلامية وتهديد المسلمين فى مقدساتهم كما حصل حين غامرت بعض هذه القوى كأمير الكرك والشوبك بالتعدى على الأماكن المقدسة فى الحجاز، كما لجأت إلى ضرب بعض المقومات الاقتصادية والدينية مثل تهديد طرق التجارة وقوافل الحج وقامت بهذا الدور فى مراحل معينة إمارة الكرك والشوبك الصليبية التى كانت تتبع لمملكة بيت المقدس الصليبية.

* لم تغفل الإمارات الصليبية والبابوية الداعمة لها وبعض رجال الدين والمفكرين أن يطوروا استراتيجية جاءت نتيجة لفشل الإستراتيجيات العسكرية التى تدعو إلى محاولة السيطرة بطرق بعيدة عن الأسلوب العسكرى وإنما عن طريق التنصير والدعوة لزيادة عمليات التبشير بالدين المسيحى بين المسلمين، ونحن هنا لا نناقش إمكانية نجاح وفشل هذه الاستراتيجية بقدر ما يهمنا الإشارة إلى أن ذلك كان إحدى البدائل التى سعى الفرنجة لاستخدامها لتحقيق أغراضهم.

* صورت القوى الصليبية نفسها على أنها المدافعة عن المسيحية فى بلاد الشرق بغض النظر عن اختلافاتهم المذهبية، حيث صُورت الحركة الصليبية على أنها جاءت لنجدة بيزنطة ضد الخطر الإسلامى السلجوقى، كما صورت زحفها على أراضى المنطقة الإسلامية بأنه يهدف إلى تحرير المسيحيين الشرقيين من نير السيطرة الإسلامية وضمنت من وراء ذلك مساعدات من الطوائف الأرمينية والسريانية .. فى بدايات سيطرتها على المناطق الإسلامية، ولكن هذه الاستراتيجية المرحلية بدأت تتلاشى مع مرور الزمن(1). والتحالف مع الحركات الباطنية.

إن هذه الاستراتيجيات وإن كانت عامة تخص جميع الصليبيين، إلا أن ذلك لم يمنع من استخدام استراتيجيات مرحلية وخاصة بكل إمارة حسب ظروفها مما

(1) دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 31.

يعنى أن بعض هذه الإمارات ربما اتخذ وتبنى سياسة تخالف هذه المبادئ العامة.

ومن استعراض هذه الاستراتيجيات يبدو لنا أن القوة الإسلامية يقاس نجاحها فى مقاومة هذا الخطر الصليبى بمدى تبنيها استراتيجيات واتباعها وسائل تحد من خطر هذه الإستراتيجيات الصليبية، إما عن طريق تبنى استراتيجيات مضادة أو منع الطرف الصليبى من تطبيق استراتيجياته على أرض الواقع وهذا يمكن أن نلمحه من خلال تطورات ردود الفعل الإسلامية على التحدى الصليبى بدءاً من عهد عماد الدين ونور الدين زنكى وصولاً إلى مرحلة صلاح الدين الأيوبى واستكمالاً لما تم فى عهد الدولة المملوكية، على أن لا يُفهم من ذلك أن هذا التطور فى رد الفعل الإسلامى فى العهد الزنكى والأيوبى والمملوكى كان دائماً فى الإطار الإيجابى بل ما حصل أحيانا هو أن الطرف الإسلامى أو بعض قواه أو أفراده ساعد فى نجاح الاستراتيجيات الصليبية[1].

ثانياً : حركة المقاومة فى العهد السلجوقى :

أيقظت صدمة سقوط القدس غفوة العديد من الفقهاء والقضاة والأمراء وأدركوا حقيقة ذلك الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم فى مدن تلك البلاد فضلاً عن الأرض والعقيدة الإسلامية؛ ولذلك بادر فقهاء وقضاة الشام من دمشق وحلب وطرابلس للاستنجاد بالسلطة المركزية ببغداد والإمارات المحلية باعتبارها تملك القوة العسكرية القادرة على مواجهة ذلك الغزو[2] ولم تكن الاستجابة من قبَل الفقهاء والقضاة فى بلاد الشام ضد الغزو الصليبى مقتصرة على الاستغاثة وطلب النجدة، بل تعدت إلى العديد من الوسائل الأخرى التى من بينها الكتابة والتأليف فى الجهاد ضد الغزو، لتهيئة الأجواء الفكرية، وتثقيف المسلمين عامة، حيث نالت اهتماماً كبيراً من جملة الفقهاء والعلماء، قبل وأثناء الغزو الصليبى، فقد كانت حاجة العصر للتعبئة الفكرية، ونشر الثقافة الإسلامية، أصبحت من الأمور الأساسية آنذاك فى وقت كانت بلاد الشام تخوض صراعاً سياساً، ومذهبياً

(1) دراسات فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 31.

(2) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو ص 68.

وعسكريا انعكس على تدوين التاريخ في الشرق الإسلامي، وظهور العديد من المصنفات والتراجم حول سير السلاطين والملوك والأسر الحاكمة وأحداث القتال والصراع ضد الصليبيين؛ ولذلك اندفعت فئة الفقهاء والقضاة إلى تنوير مجتمعاتها الإسلامية، الذي جاء مجسداً عبر مؤلفاتهم وكتبهم خلال مجموعتين: الأولى ركزت على التأليف والوعظ بصورة تقليدية به؛ وتوضيح أمور وأركان الدين الحنيف للناس، والثانية التي توجهت للتحريض والتأليف في الجهاد، وحث المسلمين عليه، لأنها أدركت الضعف العام في إيمان المسلمين عليه وتركهم لأمور دينهم؛ لذلك كتبت الكثير من المصنفات قبل وأثناء الغزو الصليبي في بلاد الشام والذي يهمنا هنا مؤلفات الفقهاء التي حرضت على الجهاد الإسلامي وتعبئة المسلمين بأمور دينهم للوقوف بوجه ذلك الغزو[1] ومن أبرز أولئك الفقهاء:

1- الفقيه على بن طاهر السلمي (431 - 500هـ/ 1039 - 1106م):

هو على بن طاهر بن جعفر القيسي السلمي الدمشقي الشافعي، كان من علماء بلاد الشام، وعلى إثر مجيء ذلك الغزو تحول إلى واعظ ومحرض على الجهاد، بإلقائه الخطب والدروس في المساجد التي تنقل فيها عبر مدن بلاد الشام وفلسطين، حيث جسد ذلك في كتابه الجهاد، الذي جاء عقب سقوط بيت المقدس عام (492هـ/ 1098م). وذلك من خلال إحدى خطبة التي يحث فيها المسلمين على الجهاد ضد ذلك الغزو. فإن المجاهدين لهذه الطائفة الظافرين بهم الموقنين إخراجهم من بيت المقدس وغيرها من هذه البلاد[2]، وركز السلمي في أبوابه الأولى من كتابه الجهاد على العديد من القضايا والأفكار الهامة التي كانت عليها بلاد الشام، والعالم الإسلامي آنذاك. مبتدئاً سياسة صليبية عامة استهدفت الأندلس وصقلية وبلاد الشام. إذ أنه أول من نبه إلى وحدة أهداف الحروب الصليبية سواء في الأندلس، أو في صقلية أو في بلاد الشام، تلك الفكرة التي أخذها المؤرخون فيما بعد، وطوروها. فقد ذكر ابن الأثير: وكان ابتداء دولة

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 93.
(2) المصدر نفسه ص 93.

الإفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم إلى بلاد الإسلام، واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة، وغيرها من بلاد الأندلس.. ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها .. فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام[1]. وأدرك السلمي أن ضعف العالم الإسلامي، وتشرذمه وتجزئته هو العامل الرئيسي وراء نجاح الغزو الصليبي في المشرق أو المغرب الإسلاميين وليس قوة الصليبيين أنفسهم، وركز على التجزئة السياسية لبلاد الشام بصورة خاصة، لأنه عاش وأحس بالمعاناة هناك، وتثاقل السكان عن جهادهم[2]، وذكر السلمي المسلمين بفكرة استمرارية الجهاد سواء في الحرب أو السلم كجزء من سياسة عامة يجب على الأمراء والخلفاء المسلمين القيام بها كشرط أساسي للمواجهة الناجحة، ففي كل عام يجب على الأمير المسلم القيام بحملة خارج ديار الإسلام لا لطمع، أو لغنيمة يبتغيها، وإنما للمحافظة على دار الإسلام من عدوان غير المسلمين، وإشعارهم بالرهبة وقوة المسلمين بالاستمرار تجسيداً للرأي القائل في العصر الحاضر بضرورة نقل المعارك إلى أرض العدو دوماً[3]، وذكر السلمي الأمراء المسلمين بأن ذلك الغزو لم يكن هدفه الأرض والعقيدة فقط وإنما هدفه هو إزالتهم من سلطاتهم، وإخراجهم من البلاد التي تحت أيديهم، وذلك بهدف إثارة حميتهم، وحثهم على الجهاد[4]، وطلب من عامة الناس مساندة أمرائهم وقادتهم المجاهدين الذين يتبعون السلف الصالح لمواجهة تلك المحنة، وطرد الصليبيين[5]، والقارئ لكتاب السلمي في الجهاد يدرك مباشرة عمق المعاناة التي كان يعانيها السلمي وهو الفقيه الذي يرى بيت المقدس تنتهك حرمته، وتداس قدسيته، ولذلك أول ما حث عليه هو تخليص بيت المقدس من أيدي أولئك الغزاة[6]. فاجتهدوا رحمكم الله في هذا الجهاد لعلكم تكونون

(1) الكامل في التاريخ (8/397).
(2) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 94.
(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 95.
(4) المصدر نفسه ص 95.
(5) المصدر نفسه ص 96.
(6) المصدر نفسه ص 96.

الظافرين بمزية هذا الفتح العظيم[1]، ويعتبر السلمي أول من أدرك ضرورة الوحدة الجهادية بين بلاد الشام والعراق، ومدن آسيا الصغرى، قبل عصر الوحدة الإسلامية ضد الصليبيين بقيادة آل زنكي والأيوبيين[2] ويعتبر في هذا المجال من الرواد، ودعا السلمي المسلمين إلى تطهير النفوس وإصلاحها، فهي الأساس في وحدة إسلامية لعقد العزم والإصرار على مجاهدة ذلك الغزو، وقدموا جهاد أنفسكم على جهاد أعدائكم فإن النفوس أعدى لكم منهم، واردعوها عما هي عليه من عصيان خالقها سبحانه تظفرون بما تؤملونه من النصرة عليهم[3]. إن الغزو الصليبي لبلاد الشام من وجهة نظر السلمي لم يأت من فراغ وإنما أدرك ضعف المسلمين لعدم تمسكهم بدين الله الحنيف ولذلك اجتهد في نصحهم بالعودة إلى الله وتطهير النفوس؛ بالرجوع إلى كتاب الله، والإقلال عما تقدم منهم، والنهوض إلى قرع باب الجهاد، وليكن قصدكم بجهادكم هذا إرضاء ربكم، والذب عن أنفسكم، وعن غيركم من إخوانكم ليمحص لكم ثواب غزوكم[4] ولا يكون ذلك أمام تقدم الغزو الصليبي، وأخذه لمدن عديدة إلا المبادرة إليهم، والمرابطة على المدن التي لم تحصل في أيديهم[5]، فإن النفير إليهم وقصدهم في البلاد التي قد تملكوها علينا إنما هو حرب يقصد بها الدفاع عن النفوس، والأولاد والأهل والأموال والحراسة لما بقي في أيدينا من البلاد[6]، وكانت دعوة السلمي للمسلمين عامة لوحدة القوى الإسلامية: شاميها وجزريها ومصريها. ونصحهم باتباع منهاجه في تطهير النفوس، والتعافي فيما بينهم والإقدام على الجهاد وحتى يحققوا مبتغاهم في النيل من ذلك الغزو[7]، حيث رأى: إن لم يتناس الحكام المسلمون أحقادهم وخلافاتهم فإنهم ما

---

(1) المصدر نفسه ص 97.
(2) المصدر نفسه ص 97.
(3) المصدر نفسه ص 98.
(4) المصدر نفسه ص 98.
(5) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 98.
(6) المصدر نفسه ص 98.
(7) المصدر نفسه ص 98.

زالوا على جاهلية غير مقتدين بالمثل النابع من التراث: عند الشدائد تذهب الأحقاد[1]، واستمر السلمي في مواضع عديدة من كتاب الجهاد يحث ويحرض ويعظ وينبه، ويعلم الحكام عامة على ضرورة الجهاد بخطبه ودروسه التي ألقاها في الجامع الأموي بدمشق، وفي مدن بلاد الشام وفلسطين في اثنين وثلاثين بابا[2]، ولم يترك شاردة ولا واردة في الجهاد إلا وتطرق إليها[3]، ونلاحظ أن السلمي في كتابه الجهاد تطرق إلى توضيح التجزئة والتشرذم في المشرق الإسلامي، وخاصة في بلاد الشام من ضعف القوى الإسلامية، وتفككها مع ضعف الإيمان بفرض الجهاد، وهي نقطة استغلها الغزاة، ولكنه عالج ذلك الخلل بطرحه قضية تطهير النفوس والعودة إلى التمسك بدين الله الحنيف؛ وإصلاح الأمر فيما بينهم، والإقدام على الجهاد لمواجهة ذلك الغزو، وأنه لا يتم ذلك إلا بوحدة القوى الإسلامية، لذا جاء كتابه الجهاد عاماً، لم يخصصه لسلطة سياسية معينة أو لفئة من المسلمين من بلاد الشام مثلاً وفق رؤية إسلامية مبنية على إسناد متين تمثل في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكتب السير والمغازي والتفاسير، وربط موضوعاتها بالخطر الصليبي على بلاد الشام، وهذا دليل على مدى اطلاعه وفكره الثاقب في جمع المعلومات وتسخيرها في مكانها المناسب[4]، ونلاحظ من خلال البحث بأن الدعوة الأولى للجهاد لم تصدر عن مجالس الحكام بل صدرت من محافل الفقهاء والعلماء المسلمين من أساتذة وعلماء وفقهاء وكتّاب، ويعتبر السلمي من أوائل من حث على الجهاد ومن ضمن تيار الرفض العام الإسلامي المدعوم من قبل الفقهاء والقضاة[5] لقد كتب السلمي كتابه في فترة مبكرة من تلك الحروب وهذا دليل على ذكائه وفطنته في إدراكه لمشاكل بلاد الشام المعقدة، ولكن إن لم تتوفر الظروف العامة لإنجاح دعوته للجهاد في تلك الفترة المبكرة ذاتها، فهو قد ساهم

(1) المصدر نفسه ص 98.
(2) المصدر نفسه ص 98.
(3) المصدر نفسه ص 98.
(4) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 99.
(5) المصدر نفسه ص 93.

فى كتابه للتمهيد لمرحلة الزنكيين والأيوبيين. ولقد قام الأستاذ رمضان حسين الشاوش بدراسة وتحقيق كتاب الجهاد للسلمى، وقدمه كرسالة ماجستير بجامعة الفاتح بطرابلس الغرب عام 1992م[1].

2- المشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة فى ساحات الجهاد :

إن من أبرز الأمثلة على مشاركة أولئك الفقهاء للعساكر النظامية فى ساحات القتال للتعبير عن حالة الإيمان المثالية بالجهاد، والدفاع عن الأرض والنفس، كانت حالة القاضى أبو محمد عبدالله بن منصور المعروف بابن صليحة قاضى حصن جبلة، الذى تولى إمارة وفقهاء ذلك الحصن بعد وفاة أبيه منصور عام 494هـ/1100م وكان ذا خبرة عسكرية جيدة لأنه أحب الجندية واختار الجند فظهرت شهامته[2]، وقد برزت مواهب ذلك الأمير القاضى عند محاصرة الإفرنج حصن جبلة للاستيلاء عليه عام (494هـ/1100م) واستخدامه لما يسمى اليوم بالحرب النفسية أولاً؛ وذلك عندما خطط بدهاء، لنشر الذعر بين صفوف قوات الفرنج، حيث أظهر أن السلطان بركياروق قد توجه إلى الشام[3]، لمساعدته، مما أثار الفرنج، والقلق بين عسكر الفرنجة، ورحيلهم فيما بعد. وعندما أدرك الفرنجة حقيقة تلك الخدعة، عادوا فحاصروا المدينة مرة أخرى، ولكن كرر ذلك القاضى تلك الحيلة بصورة أخرى، ونشر بين صفوف الصليبيين: أن المصريين قد توجهوا لحربهم ومساعدته هذه المرة ولذلك تركوا محاصرة ذلك الحصن[4]، ويبدو أن الفرنجة لم يكن لديهم المعلومات الكافية عن حالة الحصن، ولا عن عدد قوات ذلك القاضى وإلا لما تركوا محاصرة ذلك الحصن فى المرتين السابقتين، ولكن سرعان ما فطن الإفرنجة لتلك الحرب النفسية وأهدافها، فعادوا لمحاصرة الحصن للمرة الثالثة فى شهر شعبان عام 494هـ، إلا أن ذلك القاضى أدرك أن الفرنجة قد عرفوا أساليبه

(1) المصدر نفسه ص 93.

(2) الكامل فى التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام.

(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبى ص 120.

(4) الكامل فى التاريخ نقلاً عن موقف فقهاء الشام ص 120.

القديمة ولذلك لجأ إلى أسلوب جديد لمواجهة أولئك الفرنجة بأن: قرر مع النصارى الذين في الحصن، واتفق معهم على إرسال وفد منهم إلى الفرنجة للتفاهم حول تسليم الحصن وإرسال مجموعة من فرسانهم لاستلام الحصن، وأن: يبعثوا ثلاثمائة رجل من أعيانهم وشجعانهم، فوافق الفرنجة على ذلك، ويبدو أن القاضي ابن صليحة قد نصب الكمين لهم[1]: فلم يزالوا يرقون في الحبال واحد بعد واحد وكلما صار عند ابن صليحة، وهو على السور رجل منهم قتله إلى أن قتلهم أجمعين، فلما أصبحوا رمى الرؤوس إليهم[2]، ورغم ذلك لم يسترح الصليبيون للطعم والفخ الذى نصبه لهم قاضي جبلة، وتحقيق ذلك النجاح. ولذا قرروا أخذها منه بأية وسيلة، ونصبوا على البلد برج خشب، وهدموا أبراجاً من أبراجه. ولكن ما يملكه ذلك القاضي من الدهاء والحيلة جعله يفطن لذلك الخطر المحدق به، حيث لم يركن للهدوء والاستسلام، وإنما بادر إلى وضع خطة ذكية على غرار تلك الخطط الناجحة التي كبدت ذلك الغزو الخسائر والفشل أكثر من مرة. ولذلك عمل هذه المرة على استدراج الصليبيين في كمين آخر وضعه لهم بخطة محكمة حيث أحدث ثقوبا في أسوار المدينة. ويبدو أنه كان السور الخلفي، وذلك لتسهيل مهمة خروج مجموعة من جيشه ونقب في السور نقباً[3]، وعندما خرج القاضي ابن صليحة وجيشه من الأبواب لقتالهم تظاهر بالهزيمة أمامهم. بحيث انطوت الحيلة على أولئك الغزاة الذين لهم يفطنوا لها، وبادروا إلى مطاردته حتى أبواب المدينة في الوقت الذى استغل فيه جنده الفرصة في الخروج من تلك الثقوب، والتفوا من حوله، فأتوا الفرنج من ظهورهم فولوا منهزمين[4]، إن القاضي ابن صليحة لابد له وأن أطلع على فنون الحرب، وبعض الأساليب العسكرية الإسلامية، فأسلوب الحرب النفسية ليست جديدة على التراث العسكرى الإسلامي في الفترة الصليبية، إذ استخدام الرسول الكريم ﷺ ذلك الأسلوب في غزوة الخندق من العام الخامس

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 120.

(2) المصدر نفسه ص 121.

(3) المصدر نفسه ص 121.

(4) الكامل في التاريخ (8/425).

للهجرة عندما حفر الخندق وهزم جيوش الأحزاب، وكذلك معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة عندما حول القائد خالد بن الوليد المعركة من الهزيمة إلى النصر على الروم وذلك باستخدامه الحرب النفسية عن طريق تكثيف الغبار بفرسانه حتى ظن أولئك الروم بوصول الإمدادات إلى المسلمين فولوا منهزمين، وانسحب الجيش الإسلامي من أرض المعركة دون أية خسائر أخرى، وقد طبق تلك الحرب النفسية في العديد من المعارك الأخرى، والتي من بينها معركة اليرموك عام 13هـ عندما عمل على تقسيم قواته، بحيث جعل الميمنة ميسرة والخلف إلى الأمام وبهذا الأسلوب العسكري التكتيكي أرهب جيوش الروم الكبيرة العدد وأوقع بهم الهزائم[1].

3- **تحريض الفقهاء والقضاة على القتال في ساحات المعارك :**

تبرز شخصية القاضي أبو الفضل بن الخشاب قاضي حلب المعروف في هذا المجال، فعندما اشتد الحصار الصليبي على حلب عام (513هـ/1119م) أقبل القاضي ابن الخشاب يحرض الناس على القتال وهو راكب على حمار وبيده رمح حيث ألقى فيهم خطبة بليغة، استنهض بها هممهم وألهب مشاعرهم، فأبكى الناس وعظم في أعينهم، حتى أقدموا على قتال الغزاة[2]، ورغم تمكن الحلبيين من تخليص مدينتهم في ذلك العام لم يتردد الصليبيون من محاولة أخرى لأخذ حلب عام 518هـ/1124م وذلك عندما قاموا بتخريب كل القرى المجاورة لحلب، حتى لا يقدموا المساعدة لمدينة حلب ونزل الفرنج حران ثم حلب من ناحية مشهد الجف من الشمال، وكان للقاضي ابن الخشاب دور في التحريض على قتال ذلك الغزو، بل كان له دور في تحريض الأمير أقسنقر البرسقي أمير الموصل وسيأتي بيان ذلك بإذن الله عند الحديث عن دور أمراء السلاجقة في الموصل ودمشق وغيرها في صد هجمات الصليبيين.

---

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها ص 122.
(2) المصدر نفسه ص 129.

ثالثاً: الشعراء ودورهم فى حركة المقاومة:

قام بعض الشعراء بدور كبير فى تحريض المسلمين ووصف أحوال الأمة وطبيعة الغزو الصليبى الذى احتل البلاد وهتك الأعراض. ومن أشهر هؤلاء ما قاله القاضى الهروى وقيل لأبى المظفر الأبيوردى القصيدة التى أولها :

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضه للمراجم[1]
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شُبَّت نارها بالصوارم[2]

إنه، فى هذا المطلع، يصرح ببكاء الناس بكاءً أنزل الدم من العيون لشدته واستمراره، وأنهم بكوا حتى لم يبق فيهم مجال للذم، ولكنه لا يلبث أن يفطن إلى أن البكاء على شدته، لن يغنى فى شيء فى معركة لا يسعر نيرانها إلا السيوف القواطع ومنها :

فإيها بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذُرا بالمناسم
أتهويمةً فى ظل أمن وغبطةٍ ... وعيشٍ كنوار الخميلة ناعم[3]
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كلَّ نائم
وإخوانكم بالشام يُضحى مقيلُهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم[4]
تسومهم الروم الهوان، وأنتم ... تجرون ذيل الخفض، فعل المسالم[5]

وهنا يستصرخ الشاعر المتخلفين عن القتال مع إخوانهم المسلمين فى بلاد الشام، فيبدأ هذا المقطوعة بتوجيه نداء حار للمسلمين : إيهاً بنى الإسلام أن اصُحوا من نومكم فما دهمكم من الغزو يجعل أعزتكم أذلة. ثم يعجب لهم ولنومهم، إذ كيف ينامون ملء عيونهم ويعيشون عيشاً ناعماً آمناً وغير بعيد منهم

---

(1) المراجم : جمع مرجم وهو القبيح من الكلام.
(2) شُبَّت : سُعِّرت واشتدت.
(3) الهوم: النوم الخفيف. نوّار : زهر. الخميلة : الشجر الملتف.
(4) المذاكى : مذكية وهى الفرس. قشاعم : جمع قشعم وهو النسر المسن.
(5) الخفض : الغنى.

تجرى فظائع الأمور التى تقع على رؤوس إخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً قصيراً ينامون فيه فى بيوتهم، فجلّ أوقاتهم على صهوات خيولهم يحاربون أو تكتب لهم الشهادة فتتخطفهم نسور الجو ولا من يدفن جثثهم، وربما يقعون تحت إذلال أعدائهم من الفرنجة، أما أنتم فيبدو عليكم التقلب فى ثياب النعمة كما أنكم مسلمون أو متحالفون مع الأعداء. ومنها :

وكم من دماء قد أبيحت ومن دمىً ... توارى حياءً حسنها بالمعاصم[1]
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمرُ العوالى داميات اللَّهاذم[2]
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرع بعدها سنَّ نادم
سللن بأيدى المشركين قواضباً ... ستُغمد منهم فى الطُّلا والجماجم[3]
يكاد لهن المستجنُّ بطيبة ... ينادى، بأعلى الصوت، يا آل هاشم

وفى هذه الأبيات يصور شراسة المعارك التى وقعت بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة، فقد أُبيحت فيها دماء كثير من المسلمين، ولقد اقتحم فيها على النساء خدورهن وما وجدت ما يدفعن به عن أجسامهن المصونة غير معاصمهن المشتبكة حياءً وخوفاً، وقد اشتدت هذه الحروب واستحر فيها القتل حتى بدت أسنَّة السيوف والرماح حمراء لاهبة، وحتى إن الصبيان ربما يظهر فى شعرهم الشيب لما فيها من هول الطعن والضرب ثم يعود لتنبيه المتخلفين بأنهم سوف يندمون على تخلفهم عن الأشتراك فى هذه الحروب، التى يعود ليتحدث عن أخطارها فيهون من شأن الأعداء وأسلحتهم فيما استلوه من سيوف قاطعة تعود إلى نحورهم وجماجمهم. وفى آخر الآبيات يؤكد فظاعة هذه الحروب بأن الرسول ﷺ، فى ضريحه الطاهر فى المدينة المنورة يستنجد على الأعداء، بالعرب والمسلمين وليس بآل هاشم فحسب[4]. ومنها :

(1) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريسى ص 26.
(2) المصدر نفسه ص 26.
(3) العنديد: المقاتل الشديد، والكماة جمع كمى، وهو لابس السلاح.
(4) نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية، عمر الساريس، ص 26. .

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا رماحهم، والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغفى على ذل كماة الأعاجم[1]؟

فليتهم إذ لم يذودوا حمية عن الدين، ضنوا غيرة بالمحارم

وإن زهدوا في الأجر، إذ حمي الوغى فهلاً أتوه رغبة في الغنائم؟

ويرى الشاعر قعود بعض بني قومه عن الجهاد فيتألم لذلك ألماً يصور معه واقعهم المتخاذل عن نصرة دينهم الذي يحاول الأعداء إضعافه، جبناً وخوفاً وغفلة عما يلحق بهم من العار في حالة الهزيمة، ويعجب لشجعان المسلمين، من عرب ومن عجم، كيف يقبلون بهذا كله ثم يقلب لهم أسباب الدفاع عن الدين وعن البيضة تقليباً منطقياً، فيه الألم الذي يعصر قلبه، والتبكيت الذي يهز أحاسيسهم من الأعماق، فيطالبهم بالدفاع عن الدين أولاً فإن لم ينهضوا له فليحموا محارمهم من النساء والبلدان والعقار، وهذا أضعف الإيمان، أن يهتموا بالدنيا وعَرَضها من غنائم وأسلاب إن فقدوا الثأر للدين والخروج للجهاد ونيل الشهادة !!. وفي نهاية القصيدة يبلغ به الألم مبلغاً أشد فعلاً وتأثيراً، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما يلاقون فيه من إذلال وصغار في أيام أبنائهم الوارثين للخنوع إن قبلوا باحتلال الأعداء لبلادهم، ثم يهددهم بعار تسليم النساء للأعداء إن هم ظلوا على ما هم عليه من الخنوع والجبن والقعود عن الجهاد ولم يزل الشاعر يستصرخهم والحرب مستعرة، ليغيروا على المعتدين غارة شعواء تلقن الفرنجة درساً قاسياً، كما تعودوا في كل مرة يهاجمون فيها بلاد الإسلام :

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبُرَى فلا عطست إلا بأجدع راغم[2]

(1) المصدر نفسه ص 26.

(2) الخيشوم : أقصى الأنف، البُرى : جمع بُرة وهي حلقة من صفر أو غيره توضع في أحد جانبي أنف البعير للتذليل أو في أنف المرأة للزينة.

دعوناكم والحرب تدعو ملحة إلينا بألحاظ النسور القشاعم[1]
تراقب فينا غارة عربية تطيل عليها الروم غَضّى الأباهم[2]
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه رمينا إلى أعدائنا بالجرائم[3]

وقال شاعر آخر في الغزو الصليبي لبيت المقدس:

أحلَّ الكفر بالإسلام ضيماً يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمىً مباح وسيف قاطع ودم صبيب[4]
وكم من مسلم أمسى سليباً ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نُصبَ الصليب
دم الخنزير فيه لهم خَلوقٌ وتحريف المصاحف فيه طيب[5]
أمور لو تأملهن طفل لطفَّل في عوارضه المشيب[6]
أتسبى المسلماتُ بكل ثغر؟ وعيش المسلمين إذن يطيب
أما لله والإسلام حق؟ يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا أجيبوا الله، ويحكم، أجيبوا[7]

- الشاعر ابن الخياط: أبو عبدالله أحمد بن محمد ابن الخياط:

فقد حاول هذا الشاعر تحريك همة عصب الدولة زعيم الجيوش في دمشق فقال قصيدة طويلة يحثه على إعداد العدة للجهاد مطلعها قوله:

---

(1) القشعم: النسر المسن.
(2) الاباهم: جمع الإبهام، كناية عن الندم.
(3) الكامل في التاريخ (8/407).
(4) صبيب: أى سائل.
(5) الخلوق والخلاق: ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران.
(6) أى برز وظهر والعارضان: جانبا الوجه.
(7) البصائر: جميع بصيرة وهي قوة الإدراك والفطنة. النجوم الزاهرة (5/151).

فدتك الصَّواهل قُبًّا وجرداً   وشُمُّ القبائل شيباً ومرداً
وذلت لأسيافك البيض قضباً   ودانت لأرماحك السُّمر مُلْداً(1)

إلى أن يقول:

وإني لمهدٍ إليك القريض   يُطوى على النُّصح والنُّصحُ يُهدَى
إلى كم وقد زخر المشركون   بسيل يُهال له السيل سداً
وقد جَاشَ من أرض إفرنجة   جيوش كمثل جبال تردا
أنوماً على مثل هد الصفاة   وهزلا وقد أصبح الأمر جدا
وكيف تنامون عن أعين   وترتم فاسهر توهنَّ حقداً
بنو الشرك لا يُنكرون الفساد   ولا يعرفون مع الجور قصداً
ولا يردعون عن القتل نفساً   ولا يتركون من الفتك جُهداً
فكم من فتاة بهم أصبحت   تدق من الخوف نحراً وخداً
وأم عواتق ما إن عرفن   حراً ولا ذُقن في الليل برداً
تكاد عليهنَّ من خيفة   تذوب وتتلف حزناً ووجدا

وبعد أن وصف الشاعر حال المشركين وقسوتهم، وحال المسلمين معهم بدأ يحرض عصب الدولة على الجهاد فقال:

فحاموا عن دينكم والحريم   محاماة من لا يرى الموت فقداً
وسُدُّوا الثغور بطعن النحور   فمن حق ثغر بكم أن يُسَدَّا
فقد أينعت أرؤس المشركين   فلا تغفلوها قطافاً وحصدا
فلابد من حدهم أن يُفَلَّ   ولابد من ركنهم أن يُهَدّا(2)

(1) ديوان ابن الخياط ص 182.
(2) ديوان ابن الخياط ص 182 وما بعدها.

وكانت لجهود العلماء والفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء أثر في تقوية حركة المقاومة المسلحة والتي قادها أمراء السلاجقة والتي سيأتي الحديث عنها بإذن الله في الصفحات القادمة.

رابعاً: قادة الجهاد من السلاجقة قبل عماد الدين زنكي:

من الحقائق المسلم بها في تاريخ الحركة الصليبية، أن حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين انبعثت لأول مرة في بلاد المشرق الإسلامي من منطقة الجزيرة وهي تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مُضر وديار بكر، وسميت الجزيرة لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز منطقة الجزيرة بأنها صحية الهواء جيدة الربع والنماء، واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة[1]، ومن الأسباب التي جعلت حركة المقاومة تبعث من منطقة الجزيرة هي:

* أن منطقة الجزيرة أول أقطار المسلمين في المشرق الإسلامي التي اكتوت بنار الخطر الصليبي عندما استولى الصليبيون على الرها وتأسست بها أولى الإمارات الصليبية سنة 490هـ/ 1097م، فأدرك السكان خطر توغل الصليبيين في بلادهم، مما بعث المسلمين على التفكير الجدي في المبادرة إلى مهاجمة الصليبيين.
* أن منطقة الجزيرة قد ظهرت شخصيتها منذ عصر صدر الإسلام بسبب مجاورتها لأطراف الدولة البيزنطية، مما نشأ عنه خطر شديد على المسلمين أيام الأمويين والعباسيين فأصبحت خط الدفاع الأول عن ثغور المسلمين ضد الروم، وبعد الغزو الصليبي أصبحت منطقة الجزيرة تواجه إمارة الرها الصليبية التي شكلت أكبر خطر على الخلافة العباسية في بغداد.
* شهدت منطقة الجزيرة خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي دخول الأتراك السلاجقة إليها مع ما اشتهروا به من حبهم لتربية

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص 123، نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي ص 11.

الخيول والمغامرة مع حماسهم للإسلام بسبب قرب عهدهم به، وانتمائهم للمذهب السنى، وأمد السلاجقة التركمان منطقة الجزيرة بدماء جديدة شديدة التحمس إلى الجهاد فى سبيل الله، بعكس القوى الإسلامية الأخرى فى بلاد الشرق الإسلامى التى خبت جذوة الحماس الدينى فى نفوسها وخمدت روح القتال لديها[1].

* الثروات الضخمة والموارد الكبيرة التى حوتها منطقة الجزيرة بسبب توفر مصادر المياه، وخصوبة الأرض، وسعة الرقعة الزراعية وكثرة المراعى اللازمة للخيل والماشية، الأمر الذى مكنها من مد المجاهدين بمصدر لا ينفد من المؤن والعتاد هذا فضلاً عن الحصانة الطبيعية التى تمتعت بها كبرى مدن وقلاع الجزيرة التى انطلقت منها حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين مثل الموصل وآمد وماردين وحصن كيفا وغيرها، إذ أن تلك المدن التى امتازت بحصانة جغرافية فريدة جعلت اقتحامها عنوة أمراً بالغ الصعوبة وبالتالى أصبحت فى مأمن من الهجمات الصليبية المضادة، ولا يستبعد أن يكون قد اختمر فى نفوس زعماء حركة الجهاد بعث فكرة الجهاد الإسلامى ما يمثله وجود إمارة الرها الصليبية فى منطقة الجزيرة من خطورة بالغة على مركزهم بالإضافة إلى خوفهم من تقدم الصليبيين جنوباً للقضاء على الخلافة العباسية فى بغداد[2]. ومن هنا فلا غرو أن تنبعث فكرة الجهاد الإسلامى فى منطقة الجزيرة بقصد انتزاع الرها من أيدى الصليبيين[3].

1- **جهاد قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل**: وقد اتخذت فكرة المقاومة الإسلامية مظهرها العملى منذ سنة 491هـ/1097م حيث قام قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بجمع ما استطاع جمعه من العساكر بقصد منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين ولكن كربوقا لم يلبث أن توقف فى الطريق حيث حاصر

(1) الإمارات الأرتقية فى الشام والجزيرة ص 201.
(2) الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى ص 137.
(3) المصدر نفسه ص 138.

الرها لمدة ثلاثة أسابيع فأعطى بذلك فرصة كبيرة للصليبيين جدوا فيها لفتح أنطاكية، وقد تم لهم ذلك، ولو أن كربوقا أنفذ إلى أنطاكية مباشرة لأسلمه ياغى سيان مدينة أنطاكية، وتغيرت ظروف المحاصرين[1] ولكن كربوقا رفع الحصار عن الرها حين سمع بسقوط أنطاكية بيد الصليبيين، وعبر الفرات إلى الشام وأقام بمرج دابق حيث اجتمع هناك دقاق بن تتش صاحب دمشق وظهير الدين طغتكين أتابك دقاق، وجناح الدولة حسين صاحب حمص، وأرسلان تاشى صاحب سنجار، وسقمان بن أرتق صاحب بيت المقدس، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم فى القدوة والكفاية على حد قول ابن الأثير[2]. وانضم الأمراء جميعاً تحت قيادة كربوغا وسار بهم صوب أنطاكية فى سنة 491هـ/1097م التى كانت قلعتها لا تزال فى أيدى المسلمين، فاقتربوا منها وشددوا عليها الحصار حتى تغير موقف الصليبيين وساءت حالتهم، إذ وجدوا أنفسهم محاصرين من الداخل والخارج، فتعرضوا لأزمة قاسية بسبب قلة الغذاء مما اضطرهم إلى أكل الجيف وأوراق الشجر[3]، ودفع ذلك الصليبيين إلى إرسال وفد إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من أنطاكية، غير أن كربوقا رفض طلبهم وقال لهم : لا تخرجون إلا بالسيف[4]، وهذا ما دفع أحد رجال الدين المسيحيين واسمه بطرس "بورشلميوا" إلى اختلاق قصة الحربة المقدسة التى أدت إلى دفع معنويات الصليبيين والتفافهم حول زعمائهم، فقويت نفوسهم على الاندفاع تجاه المسلمين والخروج من الباب جماعات متفرقة حتى تكامل خروجهم فزحفوا على المسلمين وهم فى غاية من القوة والكثرة فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم[5]، وهكذا فشل كربوقا فى قيادة التحالف الإسلامى الذى أراد من ورائه منع سقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين سنة 491هـ/1097م وقد ذكر المؤرخون أسباب فشل كربوقا فى منع سقوط أنطاكية

(1) المصدر نفسه ص 138.
(2) الكامل التاريخ (8/400).
(3) المصدر نفسه (8/400).
(4) الكامل فى التاريخ (8/400).
(5) المصدر نفسه (8/400).

فى أيدى الصليبيين فى الوقت الذى كان فيه الصليبيون قد وصلوا إلى درجة من الضعف والتدهور داخل أنطاكية ومن أهم هذه الأسباب:

* ما ذكره مؤرخ أعمال الفرنجة من أن كربوقا صاحب الموصل قد أضاع ثلاثة أسابيع فى حصار الرها مما مكن الصليبيين من الاستيلاء على أنطاكية، والاحتياط بما عسى أن يطرأ لهم من هجوم مباغت سواء من المسلمين الذين كانوا داخل قلعة أنطاكية أو من إخوانهم فى بلاد الشام وغيرها[1].

* عدم وجود تجانس بين قوات كربوقا التى تكونت من العرب والترك وغيرهم، ثم ما قام به رضوان صاحب دمشق من بث روح الشقاق بين العرب والترك.

* عدم وجود خطة عسكرية واضحة أمام كربوقا، ولعل أبرز ما يوضح ذلك هو عدم رغبة كربوقا فى السماح لرجاله بتوجيه الضربة القاضية للصليبيين وهم يخرجون جماعات متفرقة من أنطاكية. وهذا يعود إلى أن كربوقا كان يخشى على ما يبدو من أنه إذا فعل ذلك فسوف لا يقضى إلا على مقدمة الصليبيين[2].

* سوء معاملة كربوقا لمن معه من الأمراء، كانت سبباً من أسباب هزيمته وفشله، فقد شرع بنوع من الاستعلاء عليهم: ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذا الحال، مما أدى إلى استيائهم من تصرفاته[3].

* ارتفاع الروح المعنوية عند الصليبيين بعد اختلاق قصة الحربة المقدسة، بالإضافة إلى ما قام به زعماء الصليبيين قبل وصول كربوقا إلى أنطاكية من مراسلة دقاق صاحب دمشق وإخباره أن مطامعهم لا تتعدى الاستيلاء على ما كان بيد الإمبراطور البيزنطى فى شمال الشام[4]، ولا يمنع هذا من القول بأن محاولة

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية (2/328).
(2) المصدر نفسه (2/350).
(3) الجهاد ضد الصليبيين ص 140.
(4) الجهاد ضد الصليبيين ص 140.

كربوقا منع أنطاكية من السقوط بيد الصليبيين كانت نقطة انطلاق في بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين وكشفت للصليبيين عن مدى قوة المسلمين في حالة اتحادهم، كما أنها رسمت الطريق الصحيح لمن أتى بعده من زعماء المسلمين الذين أخذوا على عواتقهم حمل لواء الجهاد الإسلامي ليكملوا المسيرة من بعده، وتتمثل هذه الحقيقة إذا علمنا أن عماد الدين زنكي قد عاش في كنف كربوقا بعد موت والده[1] على أن كربوقا صاحب الموصل قد وافته منيته عند مدينة خوى بأذربيجان سنة 495هـ/1102م أثناء النزاع بين السلطان بركياروق بن ملكشاه وأخوه محمد بن ملكشاه، فخلت الموصل من أحد الزعماء الذين لم يشغلهم النزاع القائم بين السلاجقة عن مواصلة العمل على بعث فكرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[2].

2- جهاد جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر: جعلت وفاة أتابك الموصل كربوقا الموقف مائعاً وأدت إلى إثارة الحرب الأهلية. ذلك أن كربوقا أوصى بالولاية من بعده إلى سُنقرجه، وهو أحد أمرائه، وأمر الأتراك بطاعته، لكن نازعه موسى التركماني نائبه في حصن كيفا، بعد أن استدعاه أعيان الموصل، واستطاع أن يقتل منافسه بحكم الموصل بوصفه نائباً عن السلطان بركياروق[3]، واستغل شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، فرصة الاضطرابات، ليتدخل في النزاعات الداخلية، فزحف إلى نصيبين واستولى عليها، فهرب موسى إلى الموصل وتحصَّن بها، وهناك حاصره جكرمش مدة طويلة واضطر موسى إلى الاستعانة بسقمان الأرتقي في ديار بكر، فعرض عليه إعطاءه حصن كيفا ومنحه عشرة آلاف دينار، مقابل مساعدته، قَبِل سقمان هذا العرض وقدم له مساعدة عسكرية فاضطر جكرمش إلى فك الحصار عن الموصل ولما خرج موسى لاستقبال سقمان، قتله بعض غلمانه في الطريق فتشتَّت جيشه، وعاد

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين ص 140.

(2) دول الإسلام للذهبي (2/250).

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 62.

سقمان مسرعاً إلى حصن كيفا، فاستولى عليه بينما تقدم جَكَرمش إلى الموصل ودخلها وسط ترحيب سكانها[1].

تولى جكرمش إمارة الموصل عام 495هـ - 500هـ/ 1101- 1106م وعقد تحالفًا مع سقمان بن أرتق أمير الأراتقة في ديار بكر، استهدف التصدى لتقدم الصليبيين شرقاً باتجاه قلب الجزيرة، إذ كان للانتصارات السريعة التي أحرزها الصليبيون، واعتزامهم الاستيلاء على حران الواقعة في مفرق الطرق إلى العراق والجزيرة والشام، مستغلين فرصة الصراع بين الأمراء المسلمين، فضلاً عما يعنيه الاستيلاء على حران من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والجزيرة والشام، وإعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل، وتأمين الرها، والسيطرة على إقليم الجزيرة، كان لهذه العوامل جميعاً الأثر الحاسم في تناسى كل من جكرمش وسقمان خلافاتهما القديمة، والعمل سويًا لإيقاف تقدم الصليبيين[2].

أ- معركة البليخ وانتصار المسلمين على الصليبيين "وتسمى معركة حران":

أرسل كل من جكرمش وسقمان إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع لتلاقي أمر حران. ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه، فأجاب كل منهما صاحبه، واجتمعا على الخابور عند رأس العين، حيث عززا تحالفهما وتوجها على رأس عشرة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد لمنازلة أمير الرها قبل أن يتعرضا للهجوم، وعندما سمع بلدوين الثاني أمير الرها نبأ احتشادهم في رأس العين أرسل إلى جوسلين وبوهمند يستنجد بهما، واقترح عليهما أن يحولا وجهة الهجوم بأن يقوما بمحاولة لمنازلة حران، وبعد أن أبقى بلدوين حامية صغيرة في الرها اتخذ طريقه إلى حران على رأس جماعة صغيرة من الفرسان والأرمن، وانحاز إليه بالقرب من حران كل من جوسلين أمير تل باشر وبوهمند أمير أنطاكية، وابن أخته تانكرد، وبطريرك إنطاكية، وجيش ضم فرسان الصليبيين وأمراءهم وعدداً كبيراً من الأرمن ورجال الدين، بلغ عدده نحو ثلاثة آلاف فارس، ونحو ثلاثة أمثال هذا العدد من

(1) المصدر نفسه ص 63.

(2) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 95 عماد الدين خليل.

الرجالة، والواقع أن هذا الجيش يمثل القوة الضاربة الكاملة لدى صليبيي شمال الشام، عدا حاميات الحصون، وعندما احتشد هذا الجيش أمام حرّان كان جكرمش وحليفه لا يزالان يزحفان نحو "الرها"[1].

كاد الصليبيون أن يستولوا على حران، بعد وقت قصير من فرض الحصار عليها، إلا أن الخلاف الذى نشب بين بلدوين بى بور، وبوهمند، وإصرار كل منهما على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها، ساعد على صمود حران، وأتاح للمسلمين فرصة التحرك لقتال الصليبيين قبل سقوط هذا الموقع بأيديهم، وتم اللقاء بين الطرفين على نهر البليخ في التاسع من شعبان، حيث أظهر المسلمون الهزيمة، فتبعهم الصليبيون نحواً من فرسحين، فأعاد المسلمون الكرة عليهم، وأبادوا معظم قواتهم[2]، وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات[3]، وكان بوهمند أمير إنطاكية وابن أخته تانكر، قد كمنًا خلف إحدى المرتفعات لينقضا على المسلمين من مؤخرتهم حين يشتد القتال، فلما خرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب معسكراتهم، فأقاما فى أماكنهما إلى الليل، ومن ثم تسللا هاربين، فتبعهما المسلمون وقتلوا وأسروا من أصحابهما عدداً كبيراً، بينما تمكّنا هما من الفرار إلى الرها. أما بلدوين وجوسلين فقد تم أسرهما. وكان بلدوين قد انهزم مع جماعة من قواده وخاضوا نهر البليخ، إلا أن الأوحال أعاقت تحركهم السريع، فلحقهم قائد تركماني من أصحاب سقمان وتمكن من أسرهم؛ حيث حمل بلدوين إلى سيده سقمان[4].

ب- **الخلاف بين جكرمش وسقمان**: وعندما رأى أصحاب جكرمش أنّ قوات سقمان قد استولت على حصة الأسد من غنائم الصليبيين قالوا لسيدهم: أى منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا؟ وحسنوا

(1) الحروب الصليبية وسمات (2/71-72) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 96.
(2) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 96.
(3) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 96.
(4) المصدر نفسه ص 97.

له اختطاف بلدوين، فأرسل جكرمش بعض أصحابه، حيث تمكنوا من اختطاف الأمير الصليبي من معسكر سقمان. فلما علم هذا بما حدث، وكان خلال ذلك غائباً عن مقره، شق عليه الأمر، وتهيأ أصحابه للقتال، إلا أنه ما لبث أن ردّهم وقال لهم: لا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين[1]، ومن ثمّ تقدم على رأس قواته، وأخذ سلاح الصليبيين وراياتهم، وألبس، أصحابه ملابسهم وأركبهم خيلهم وجعل يأتي حصون إقليم شبختان من ديار بكر، فيخرج الصليبيون منها، ظناً منهم أن أصحابهم قد انتصروا فيجابههم سقمان ويقضي عليهم ويقتحم حصونهم، وتمكن بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة، وقفل عائداً إلى مقر إمارته في ديار بكر[2].

جـ- **هزيمة جكرمش**: قرر جكرمش المضي في القتال بعد عودة حليفه، وقام باقتحام قلاع الصليبيين في إقليم شبختان الممتد إلى شرق الرها، ليحمي مؤخرته، ومن ثم واصل السير إلى الرها نفسها وإذ أدى تمهل الصليبيين من قبل إلى الإبقاء على حران بأيدي المسلمين، فقد أبقى الرها للمسيحيين ما حدث من تمهل المسلمين، إذ توفر لتانكرد من الوقت ما يكفي لإصلاح وسائل الدفاع وبذلك استطاع أن يردّ أول هجوم قام به جكرمش، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما أظهره الأرمن والمحليون من الولاء والبسالة غير أن ما أحس به تانكرد من ضغط شديد، حمله على المبادرة بالاستنجاد بيوهمند، ومع أن هذا كان يواجه مشاكل عديدة، إلاّ أنه رأى ألابد من جعل الأسبقية لدرء الخطر عن الرها، فنهض لمساندة ابن أخته، غير أنه عطله ما كانت عليه الطرق من أحوال سيئة. واستبد اليأس بتانكرد فأمر رجال الحامية بأن يتخذوا أماكنهم للهجوم قبل بزوغ الفجر، وتحت جنح الظلام انقض رجاله على الأتراك الذين استغرقوا في نومهم مطمئنين، واكتمل الانتصار الصليبي بوصول بوهمند، فهرب جكرمش مذعوراً، وخلف من ورائه معسكره الزاخر بالثروة فانتقم الفرغ من هزيمة حران، وتم احتفاظهم بالرها[3] وكان من بين

---

(1) الكامل في التاريخ (8/466).

(2) المصدر نفسه (8/466) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 97.

(3) الحروب الصليبية ص 98.

الأسرى الذين وقعوا فى يدى تانكرد أميرة سلجوقية من عقائل بيت جكرمش الذى بلغ من تقديره لهذه السيدة أنه بادر لافتدائها مقابل مبلغ كبير من المال 15ألف بيزنت، أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه، وبلغت بيت المقدس أنباء هذا العرض، فأسرع الملك بلدوين بالكتابة إلى بوهيمند بألأ يجعل هذه الفرصة تفلت حتى يتم إطلاق سراح بلدوين. غير أن بوهيمند وتانكرد احتاجا إلى المال على حين أن عودة بلدوين سوف تخرج تانكرد من وظيفته الحالية – كمسؤول على الرها – ليعود إلى إنطاكية ولذا ردًا على رسالة الملك: أنه ليس من الدبلوماسية فى شيء أن يظهرا لهفتهما الشديدة على قبول العرض، على حين أنهما إذا ترددا فى القبول ربما لجأ جكرمش إلى زيادة الفدية. غير أنه فى تلك الأثناء تم اتفاقهما مع جكرمش على قبول عرضه النقدى، وبذا بقى بلدوين فى الأسر[1].

د- **نتائج معركة البليخ أو حرّان**: كانت لمعركة البليخ نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامى والصليبى، لعل أهمها :

* أوقفت تقدم الصليبيين وتوسعهم باتجاه الشرق على حساب المسلمين، وقضت على آمالهم فى التقدم نحوِ العراق وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة.

* تلاشت أحلام بوهيموند فى السيطرة على حلب، وتحويل إمارة إنطاكية إلى دولة كبيرة، وقضت على آمال الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية فى الشام والجزيرة وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب.

* قررت مصير إقليم الرها. ذلك أن هذه الإمارة تعرضت لكثير من المتاعب الداخلية التى أضعفتها وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمراً من الحكم اللاتينى بفعل تعسف هؤلاء مع الكنيسة الأرمينية، واضطهاد رجالها مما دفع الأرمن إلى الاتصال بالأتراك وأضحى احتمال سقوطها فى أيدى المسلمين وشيكاً[2].

---

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى ص 99.

(2) تاريخ الزنكيين فى الموصل وبلاد الشام ص 65.

* أتاحت للمسلمين فرصة استعادة الأملاك التى خسروها فى السابق، وضُمَّت إلى إمارة أنطاكية.

* أضحى تانكرْد، بعد أسر بلدوين، وصياً على إمارة الرها، كما أصبح بوهيموند أقوى الأمراء الصليبيين فى الشمال.

* أدَّت ظروف الانتصار إلى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك، وأوضح ابن القلانسى خطورة النتائج بقوله: وكان نصراً حسناً للمسلمين؛ لم يتهيأ مثله، وبه ضعفت نفوس الإفرنج، وقلَّت عدتهم، وفلَّت شوكتهم، وقويت نفوس المسلمين، وأرهقت عزائمهم فى نصرة الدين، ومجاهدة الملحدين، وتباشر الناس بالنصر عليهم، وأيقنوا بالنكاية فيهم والإدالة منهم.

* حطَّمت أسطورة أن الصليبيين لا يقهرون[1].

* استغل الإمبراطور البيزنطى الكسيوس فرصة ضعف مركز بوهيمند إثر تعرضه للانتقاد بسبب عدم افتدائه لرفيقه بلدوين، فضلاً عن التزامه بالمعاهدات التى كان عقدها مع الإمبراطور الذى راح يشجع الانتفاضات التى قام بها سكان قليقية ضد حكامهم النورمان، كما أوعز إلى قواته بالاستيلاء على عدد من المدن والمواقع التى كان تانكرد قد استولى عليها من قبل، واشترك الأسطول البيزنطى فى السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وطرطوس، يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين تمكنوا من استغلال قواعدهم البحرية فى قبرص لتقديم المساعدات لريموند الضجيلى - عدو بوهيمند اللدود - الذى كان يسعى لتأسيس إمارة حول طرابلس تحاذى إنطاكية من الجنوب فى الوقت الذى لم يتقدم فيه أحد من القدس لنصرة بوهيمند ومساعدته فى هذه المحنة[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 65.

(2) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى ص 100.

وهكذا قدر لجكرمش، بتحالفه مع سقمان، أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية، وأن يقدم وحليفه للعالم الإسلامي، أول نصر حاسم على الصليبيين، فتح به الطريق لظهور قيادات وأحلاف إسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية، تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي، وانتهت بصلاح الدين، عبر إيلغازي وبلك الأرتقيين، وآق سنقر البرسقي، ثم عماد الدين ونور الدين الزنكيين[1].

هـ- **مواصلة جكرمش للجهاد**: ورغم بعض البوادر السلبية التي أعقبت انتصار المسلمين في البليخ فإن جكرمش ظل يطمح لتحقيق انتصارات أخرى في هذا الميدان، وبعد أقل من سنتين أتيح له ذلك عندما تلقى في أواخر عام 499هـ - 1106م أمراً من السلطان محمد بالقيام بحملة جديدة لمهاجمة الصليبيين، فاتصل بأمراء المنطقة وتمكن من تشكيل حلف يضم رضوان أمير حلب وإيلغازي الأرتقي أمير ماردين وألبي تمر تاش صاحب سنجار والأصبهذ صاوا أحد كبار أمراء فارس. إلاّ أن ما طرحه إيلغازي على الأمراء المذكورين، أعاق تنفيذ الخطة المقترحة؛ إذ طلب منهم أن يبدؤوا حملتهم ضد جكرمش بقصد الاستيلاء على الموصل لكسب رضا السلطان محمد الذي كان يحقد على حاكم الموصل بعض تصرفاته، فضلاً عن إمكانية الاستفادة المباشرة من ميزات الموصل وإمكانياتها المالية والعسكرية ضد الصليبيين، فوافقه زملاؤه على ذلك ومضوا سوياً لمهاجمة نصيبين التابعة لحاكم الموصل. إلا أن نواب جكرمش هناك نجحوا - بتوجيه من سيدهم في الموصل - في إثارة النزاع والكراهية بين رضوان وإيلغازي، فاغتنم رضوان فرصة إقامة وليمة أمام أسوار نصيبين وقام باختطاف إيلغازي وتكبيله واعتقاله، إلا أن أتباعه من التركمان تمكنوا من تخليصه، وقاموا بهجوم مباغت على معسكر رضوان أرغمه على الانسحاب والعودة إلى حلب، وبدأ تمزق هذا التحالف قبل أن يخطو خطوة واحدة صوب هدفه الأساسي في قتال الصليبيين[2]، إلا أن ذلك كله

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 102.
(2) المصدر نفسه ص 103.

لم يثن جكرمش عن عزمه على مهاجمة أعدائه الحقيقيين، إذ أنه ما أن تمكن من إحباط مساعي الأمراء المتحالفين ضده حتى بادر بشن الهجوم على الرها، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى الموصل ليواجه متاعب جديدة تجاه السلاجقة بعد أن نجح في التغلب على هجوم قامت به عساكر ريتشادر (سالرنو) الذى كان يحكم الرها آنذاك نيابة عن بلدوين المأسور. ولم يمض وقت قصير على ذلك حتى تحرك قلج أرسلان بن سليمان، سلطان سلاجقة الروم، لمهاجمة الرها، فانتهز نواب جكرمش في حران الفرصة وأرسلوا إليه يستدعونه ليسلموا إليه البلد، فتقدم قلج أرسلان إلى هناك ودخل حران، وفرح به الناس لأجل جهاد الفرنج[1]، وأقام هناك أياماً اضطر بعدها للعودة إلى بلده بسبب مرض شديد ألم به تاركاً فى حران جماعة من أصحابه لحمايتها[2]، ويبدو أن شخصية قلج أرسلان بدأت تطغى، بما تمتع به من قوة واستقلال ونفوذ، على شخصيات رفاقه من الأمراء المسلمين في المنطقة بسبب خلافاتهم المستمرة، وتطاحنهم الدائم من أجل تحقيق مكاسب إقليمية محدودة فضلاً عن أن المشاكل التى جابهت جكرمش فى الموصل، وتدهور علاقته مع السلاجقة صرف اهتمامه كلية عن ساحة الجهاد ضد الصليبيين، الأمر الذى أدّى إلى أن يستقطب قلج أرسلان اهتمام نواب جكرمش فى حران فاستدعوه وسلَّموه البلد، مما يفسر لنا - كذلك - ما حدث بعد قليل من استدعاء قلج أرسلان من قبل أهالي الموصل كي يتولى حكمهم، إثر مقتل حاكمهم السابق جكرمش[3].

3- جهاد جكرمش صاحب الموصل وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر : لم يكد الغرب الأوروبى يعلم بنبأ النجاح الذى حقَّقته الجموع الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين حتى تحمَّس كثير من الأمراء الذين لم يشاركوا من قبل فى الذهاب إلى الشرق، تدفعهم مطامع شخصية دنيوية وهى الحصول على الغنائم

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى ص 103.

(2) الكامل فى التاريخ نقلاً من المقاومة الإسلامية ص 104.

(3) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى ص 104.

والضياع فضلاً عن مطامع دينية وهي الحصول على الثواب والغفران، ويُذكر بأن الصليبيين في الشرق كانوا بحاجة ماسّة إلى محاربين ومستعمرين بهدف:

* مواصلة الحرب ضد المسلمين.

* استئناف عملية التوسع.

* حراسة ما حقّقوه من مكاسب.

* المحافظة على هذه الحقوق ضد أي محاولة استرداد من جانب المسلمين.

استجاب المجتمع الغربي لهذه الظاهرة، وانبعثت منه صحوة صليبية جديدة أسفرت عن تدفق جموع صليبية أخرى إلى الشرق. وشكّل اللمبارديون أولى تلك الجموع، فغادروا إيطاليا في عام 494هـ/ 1101م بقيادة أنسلم بوى رئيس أساقفة ميلان، وصحبه عدد من الأمراء من بينهم ألبرت كونت بياندرات، وجيوبرت كونت بارما، وهيوكونت مونتيبلو[1]، ويبدو أن هذه المجموعة اللمباردية على الرغم من وفرة عدد المشتركين فيها، لم تكن تختلف كثيراً من حيث النوعية عن جموع العامة السابقة، بدليل أنها لم تضم سوى عدد قليل من الفرسان المحاربين، وتألفت غالبيتها العظمى من العامة الذين لا يحسنون القتال، ويفتقرون إلى النظام، ولما وصلوا إلى ضواحي القسطنطينية ارتكبوا أعمال السلب والنهب مما حمل الإمبراطور البيزنطي على الإسراع بنقلهم إلى آسيا الصغرى، وذلك في جمادى الأولى (آذار)، واستقروا في نيقوميدية بانتظار وصول جموع أخرى[2]، وفعلاً لم تلبث أن وصلت مجموعة أخرى من الفرنسيين بقيادة ستيفن بلوا، وانضم إليه عدد من الأمراء أمثال ستيفن كونت برجنديا وهيو كونت بروى، وبلدوين كونت جراندبريه، وهيو بيرفون أسقف سواسون بالإضافة إلى سرية ألمانية بقيادة كونراد كندسطبل الإمبراطور هنري الرابع وعبرت هذه المجموعة البوسفور، وعسكر أفرادها عند نيقية على مقربة من المعسكر اللمباردي، وبلغ عدد أفراد

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 96.

(2) المصدر نفسه ص 96.

المجموعتين بين مائتين وثلاثمائة ألف مقاتل، وعين الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين صديقه ريموند كونت تولوز، قائداً عاماً عليهم، وألحق بهم جماعة من الجنود البيزنطيين بقيادة تسيتاس[1].

أ- معركة مرسيفان : تحرك الجيش الصليبي الضخم من نيقوميدية إلى دوريليوم بهدف الوصول إلى الأراضي المقدسة، على أن يعيد أثناء زحفه فتح الطريق الذي يجتاز آسيا الصغرى، لذلك أوصى الإمبراطور ستيفن بلوا بأن يسلك الجيش الطريق الذي سلكته الجموع الصليبية السابقة الذي يجتاز دوريليوم وقونية، غير أن اللمبارديين رفضوا التوجه إلى الأراضي المقدسة إلا بعد فك أسر بوهميوند الذي اتخذوه مثلاً يُحتذى وبطلاً لهم، والمحارب الوحيد الذي يثقون به ليقودهم إلى النصر، وأصروا بأن تتوجه الحملة إلى كمبادوكية. ويذكر ابن الأثير أن هدف تلك الجموع الصليبية كانت تخليص بوهيموند من الأسر[2]، وعلى الرغم من احتجاج بعض القادة الأمراء فقد توجّه أفراد الحملة إلى الأراضي الداشمندية عبر أنقرة التابعة لقلج أرسلان، فاستدلوا عليها وتابعوا طريقهم إلى كنغرى الواقعة في جنوب بافلاجونيا كي يسلكوا الطريق الرئيسي المؤدي إلى أماسية ونيكسار. وحتى يعرقل التقدم الصليبي، عمد قلج أرسلان إلى الانسحاب التدريجي من أمام القوة الصليبية، واتبع أسلوب البدو بتخريب البلاد أثناء انسحابه وحرق كل ما يمكن أن يستفيد الصليبيون منه وبخاصة مواد التموين، وفي الوقت نفسه، أخذت القوى التركية تتجمَّع في تحالف جديد لمواجهة الخطر الصليبي، فبادر كمشتكين أحمد الدانشمند بتجديد تحالفه مع قلج أرسلان، كما حثَّ رضوان صاحب حلب على أن يرسل عدداً من الجنود[3]. وصل الصليبيون إلى كنغرى فألفوا الأتراك فيها بكامل قوتهم، واستعصت عليهم المدينة لمناعتها، فاضطروا إلى متابعة سيرهم بعد أن نهبوا القرى المجاورة، لكن التعب بدأ يظهر عليهم بسبب النقص في المؤن،

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ سلاجقة الروم ص 97.
(2) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا ص 97.
(3) الحروب الصليبية (2/43) رنسيمان.

وشدة الحرارة، ومضايقة الأتراك. واقترح ريموند، حتى يجنِّب الجيش الدمار المحقَّق أن يتوجه صوب الشمال الشرقي إلى قسطموني، ومنها إلى إحدى المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود. على أن الرحلة إلى قسطموني كانت بطيئة وشاقة بسبب نفاذ المؤن وتدمير الأتراك للمحاصيل الزراعية، وردمهم للآبار، وتعرض الصليبيون لهجوم تركي مفاجئ فتفرقوا لا يلوون على شيء قبل أن يعيد ريموند لمَّ شعثهم، ولما وصلوا إلى أطراف قسطموني، كان على ريموند أن يشق طريقاً بين الجموع التركية إلى الساحل، على أن اللمبارديين، أصروا مجدداً على التوجه إلى الشرق، ونزل في الأطراف على رأيهم مرغمين[1] واجتاز الجيش الصليبي نهر هاليس إلى بلاد الدانشمنديين ووصل أفراده إلى مدينة مرسيفان الواقعة في منتصف الطريق بين النهر وأماسية[2]. وعندما أدرك الأتراك أن القوة الصليبية أضحت منهكة تقدَّموا نحوها واصطدموا بها، ولم يمض وقت طويل حتى تضعضع الصليبيون وفروا من أرض المعركة تحت ضغط القتال مخلفين وراءهم نساءهم ورهبانهم، ولجأ ريموند إلى تل صغير احتمى به إلى أن أنجده الفرنسيون والألمان، ثم هرب خلال الليل بعدما يئس من إحراز أي نصر، وترك وراءه المعسكر الصليبي ومن كان به من غير المحاربين ليقع غنيمة في أيدي الأتراك[3]. تلت المعركة عملية مطاردة لم ينج منها إلا الفرسان، وبلغت خسائر الصليبيين أربعة أخماس الجيش[4]، واستولى الأتراك على كميات كبيرة من الأسلحة، وغنموا كثيراً من الأسرى بيعوا رقيقاً.

ولم يلبث ريموند أن وصل إلى بافرا، الميناء البيزنطي الصغير على البحر الأسود قرب سينوب، وأقلته من هناك سفينة بيزنطية إلى القسطنطينية[5]، ويشير المؤرخ اللاتيني ألبرت أوف أكس، أن ريموند تلقى رشوة من الأتراك كي يقود الجيش إلى قسطموني، وهذا مستبعد، لأن من يتتبع سير الحملة وما رافقها من

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 98.
(2) المصدر نفسه ص 98.
(3) المصدر نفسه ص 98.
(4) المصدر نفسه ص 98.
(5) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 99.

أحداث يلمس مدى ما بذله ريموند من جهد في إقناع اللمبارديين بعدم التوجه إلى بلاد الدانشمندبين أولاً، ثم محاولته إخراج الجيش من المأزق الذي أوقع نفسه فيه ثانياً، وما اختياره للطريق إلى قسطموني إلا نتيجة لما تعرض له الجيش من متاعب، وأما فراره من أرض المعركة، فناتج عن إدراكه بعدم جدوى متابعة القتال بعد أن ولّى اللمبارديون الأدبار وتبعهم البجناك المرتزقة[1].

ب- **معركة هرقلة الأولى**: محت الكارثة التي حلّت بالصليبيين في مرسيفان، الشهرة، التي اكتبسها هؤلاء نتيجة انتصارهم في دوريليوم، وزاد من أثرها أنها لم تكن الكارثة الأخيرة. إذ، في الوقت الذي غادر فيه اللمبارديون مدينة نيقوميدية، وصل إلى القسطنطينية جيش فرنسي بقيادة وليم كونت نيفر على رأس خمسة عشر ألفًا من الفرسان والمشاة وحرص وليم على اللحاق باللمبارديين على وجه السرعة، فغادر القسطنطينية إلى نيقوميدية، وعلم فيها أن الجموع الصليبية مضت في طريقها إلى أنقرة فسار إلى هذه المدينة ووصل إليها بسهولة. لكن لم يكن أحد يعلم بالجهة التي سارت إليها هذه الجموع، لذلك لم يسع الكونت إلا أن توجه نحو قونية، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، وتولت حامية تركية سلجوقية الدفاع عنها، وما قام به من محاولات للاستيلاء عليها باءت بالفشل فتركها[2].

كان السلاجقة وحلفاؤهم قد فرغوا، في غضون ذلك، من إبادة الجموع اللمباردية، وعلم قلج أرسلان وكمشتكين أحمد دانشمند بقدوم العدو الجديد، وإذ لا زالت تغمرهما حرارة الانتصار، سارا نحو الجنوب، وسبقا وليم إلى هرقلة وسارت عساكر نيفر ببطء من قونية متوجهين نحو الشرق، ولما وصلوا إلى مكان قريب من هرقلة، وكان التعب قد استبد بهم، هاجمهم الأتراك، فانهارت مقاومتهم بعد معركة لم تستمر طويلاً، ولقي الجيش الفرنسي بأسره مصرعه، باستثناء الكونت وستة من أتباعه[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 99.
(2) المصدر نفسه ص 99.
(3) المصدر نفسه ص 99، 100.

جـ- **معركة هرقلة الثانية**: في الوقت الذى كانت فيه حملة نيفر تجوس آسيا الصغرى، وصلت الدفعة الأخيرة من تلك الجموع الصليبية إلى القسطنطينية، وتألفت من فرنسيين وألمان بقيادة وليم التاسع دوق أكويتين، وولف الرابع دوق بافاريا، وبلغ عدد أفرادها ستين ألف مقاتل خرجت هذه الجموع من القسطنطينية باتجاه قونية، وسلكت الطريق نفسه الذى سلكه بوهيموند، من قبل، وانتهج الأتراك تجاهها الخطط نفسها التى طبقوها من قبل، بإحراق الغلال وإتلاف المؤن وطمر الآبار، ولما وصل أفراد هذه المجموعة إلى قونية وجدوا المدينة خاوية، وكانت الحامية السلجوقية قد أخلتها بعد أن قاومت حملة نيفر، وحملت معها كل ما كان فيها من مؤن، كما جردت البساتين والحدائق من كل ما يمكن أن يفيد الصليبيين[1] ولم يمكث الصليبيون فى قونية وغادروها إلى هرقلة عن طريق يبلغ طوله خمسة وخمسين ميلاً، فعانوا من المتاعب الكثيرة حتى اشتد بهم الجوع والعطش، وكان الأتراك يتخطفونهم بالقتل بين الحين والآخر ولما دخلوا إلى المدينة وجدوها مهجورة[2]، وتربص المسلمون فى هذا الوقت بالصليبيين، وكمنوا لهم فى الغابات المحيطة بهرقلة، وباغتوهم وهم يشربون من ماء ذلك النهر المتفجر وراء المدينة، وإذ اضطرب نظامهم، انقضَّ عليهم الأتراك وأبادوهم عن آخرهم، باستثناء قلَّة قليلة استطاعت النجاة بصعوبة، من بينهم وليم التاسع وولف الرابع وتوجها إلى طرسوس ومنها إلى أنطاكية[3].

د- **نتائج معارك قلج أرسلان السابقة**: انتهت كل مجموعة من المجموعات الثلاث، نهاية محزنة أثَّرت نتائجها فى سير الحركة الصليبية من جهة وفى الأتراك بعامة والسلاجقة بخاصة من جهة أخرى. وأهم هذه النتائج هى:

* ثأر السلاجقة لما حلَّ بهم فى دوريليوم، فلن يجرى بعدئذ طردهم من الأناضول كما رفعت الانتصارات المتتالية روحهم المعنوية.

(1) تاريخ سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ص 100.
(2) المصدر نفسه ص 100.
(3) المصدر نفسه ص 100.

* ظل الطريق الذى يجتاز آسيا الصغرى إلى بلاد الشام غير آمن للجيوش الصليبية والبيزنطية على السواء على الرغم من نجاح المجموعات الصليبية الأولى فى اقتحامه، فخشى المهاجرون الصليبيون سلوك هذا الطريق البرى الذى يجتاز القسطنطينية إلى إيسوس، ما لم يكونوا فى جيوش ضخمة، ولم يعد بوسعهم القدوم إلا بحراً مع ما يتطلَّب ذلك من مصاريف إضافية لم يتمكَّن من دفعها إلا القليل. وظل هذا الطريق البرى مغلقاً فى وجه الصليبيين عدة أعوام(1).

* ألقى الصليبيون اللوم على البيزنطيين بما حلَّ بهم من مصائب وحملوهم مسؤولية ما حدث. وتردَّدت الشائعة بينهم أن ريموند كان يُنفذ تعاليم الإمبراطور عندما أخرج الجيش الذى يقوده عن الطريق المرسوم ليلقى أفراده حتفهم فى كمين سبق إعداده، والواقع أن اللاتين أرادوا التماس كبش فداء يتحمَّل مسؤولية أخطائهم، فألقوا اللوم على البيزنطيين، وعدُّوهم مسؤولين عمّا حلَّ بهم من كوارث(2).

* لم يلبث قلج أرسلان أن ازداد افتخاراً بعد هذه الانتصارات وشاركه سائر أتراك الأناضول، وأضحى بوسعه أن يعيد سيطرته على جوف الهضبة، ثم أقام فى عاصمته قونية الواقعة على الطريق الرئيسى الذى يربط القسطنطينية ببلاد الشام(3).

* استأنف الدانشمنديون فتوحهم فى وادى الفرات دون عائق وبلغوا أطراف إمارة الرها، كما فتحوا ملطية وأسروا حاكمها فى 23ذى الحجة 495هـ/ 18أيلول 1102م.

* أعاد رحيل الصليبيين إلى بلاد الشام، الخصومة والتنافس بين السلاجقة والدانشمنديين، وتنازع البيتان التركيان الكبيران حول امتلاك ملطية وفدية بوهيموند، فتفكَّكت بذلك جبهة الأتراك فى المنطقة(4).

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ص 101.
(2) المصدر نفسه ص 101.
(3) المصدر نفسه ص 101.
(4) المصدر نفسه ص 101.

* **أثر وفاة قلج أرسلان**: راسل زنكى بن جكرمش قلج أرسلان الأول يستنجد به وكان آنذاك فى ملطية، ووعده بتسليمه الموصل والأعمال التابعة لها، واستغل السلطان قلج أرسلان السلجوقى هذه الفرصة للتوسع على حساب الأمراء المتنازعين، فأسرع لنجدة زنكى، ولما علم جاولى بمسيره، انسحب من المدينة، لاسيما وقد توفى جكرمش فجأة وهو فى الأسر، وكان ينوى اتخاذه أداة للمساومة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه أدرك أن لقلج أرسلان الأول من القوة ما لا يستطيع مجابهته فى معركة سافرة، لذلك قرّر تكوين حلف مناهض له حتى يدعم موقفه[1]، لكن قلج أرسلان الأول تمكن من دخول الموصل وسط ترحيب السكان، وقد وعدهم باحترام حرياتهم وأجرى فيها بعض الترتيبات الإدارية[2]، وأما جاولى، فقد انسحب إلى سنجار، وأجرى مباحثات مع كل من إيلغازى الأرتقى ورضوان صاحب حلب، واتفق فى نهايتها على طرد قلج أرسلان الأول من الموصل، والتوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية وانتهت الحرب ضد قلج أرسلان الأول بهزيمته وغرقه فى نهر الخابور[3] فى عام 500هـ/ 1107م[4]، ويعتبر قلج أرسلان الأول من الشخصيات الفذّة التى أنجبتها سلاجقة الروم، وتأثر الشرق الأدنى بمختلف فئاته بموته.

* فسلاجقه الروم الذين لم يظهر بينهم زعيم قوى يحل محل قلج أرسلان تعرضوا لضغط متزايد من جانب الإمبراطورية البيزنطية التى حدّدت تدخلها فى شؤونهم الداخلية، واستطاع ألكسيوس كومنين أن يعيد، باطمئنان، سيطرته على المناطق الغربية لآسيا الصغرى وعلى امتداد ساحلها الجنوبى.

* أطالت وفاة قلج أرسلان من عمر دولة السلاجقة العظام، ما يقرب من مائة عام. ذلك أن الانقسامات الحادة داخل الدولة بين السلاطين والأمراء للسيطرة على

(1) تاريخ الزنكيين فى الموصل وبلاد الشام ص 68.

(2) المصدر نفسه ص 68.

(3) نهر الخابور: نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة.

(4) الكامل فى التاريخ (8/502).

العرش، وكثرة الحروب الداخلية بينهم بالإضافة إلى الأخطار الخارجية التي أحاقت بهم، كخطر الحشيشية والخطر الصليبي، شجع قلج أرسلان على التدخل في شؤون الشرق للسيطرة على مقاليد الحكم، وليوحد من جديد كل القوى السلجوقية في المشرق وكان باستطاعته تحقيق حلمه هذا، فالظروف السياسية الداخلية والخارجية مواتية غير أن وفاته ساهمت السلاجقة العظام من الزوال وأطالت أمد عمرها.

* تُعدُّ وفاة قلج أرسلان مرحلة بالغة الأهمية في انفصال سلاجقة الروم عن سلاجقة المشرق. ذلك أن الأخطار الداخلية والخارجية التي أحاقت بدولة السلاجقة العظام حالت بينهم وبين التدخُّل في شؤون الفروع السلجوقية الأخرى وبخاصة في بلاد الشام وآسيا الصغرى، والجدير بالذكر أن دولة سلاجقة الروم كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تابعة اسمياً للسلاجقة العظام، ولم تستقل تماماً إلا في عام 552هـ/1157م[1].

* حرم موت قلج أرسلان، سلاجقة الشام من قوة كانت كفيلة بإقامة الوحدة بينهم، ذلك أن السيادة السلجوقية في بلاد الشام، أخذت تتقلص سريعاً، لأن ابني تتشي، رضوان ودقاق لم يتمتعا بالمقدرة السياسية التي تمكنهما من مواجهة الأوضاع القلقة التي عاشتها بلاد الشام في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وأوائل القرن التالي، ولعل أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرهما، هو ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة التي تجمعها رابطة الاتصال بالبيت السلجوقي، وظهرت من تلك البيوت وحدات سياسة أطلق عليها اسم الأتابكيات وعلى أصحابها اسم الأتابك[2].

* أزالت وفاة قلج أرسلان خطراً شديداً عن صدر الإمبراطورية البيزنطية في وقت حرج، إذ كان بوهيموند يستعد لمهاجمة بلاد البلقان في عام 501هـ/1107م

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 111.
(2) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 111.

انطلاقاً من حصن دورازو المنيع، وقد ضحى ألكسيوس كومنين بحدود بلاده الجنوبية الشرقية من أجل إنقاذ دورازو، فعقد معاهدة مع قلج أرسلان حصل بموجبها منه على مساعدة عسكرية، إلا أن وفاته المفاجئة، وعدم وجود شخصية قوية تحل محله، أعطاه الفرصة ليتفرَّغ وهو مطمئن، لمواجهة خطر بوهيموند، الذى انهزم أمامه عام 502هـ/ 1108م[1].

* جعلت وفاة قلج أرسلان الموقف فى آسيا الصغرى مائعاً إذ أن أكبر أولاده الأربعة وهو ملكشاه أضحى أسيراً فى يد السلطان محمَّد بعد معركة الخابور، بينما استولت أرملته على ملطية والأقاليم الشرقية بمساعدة الأمير أيدبر الذى اعترف بسيادة طغرل أرسلان، أصغر أولاد قلج أرسلان، على بلاد الروم، أما الأخوان الآخران، وهما مسعود وعرب، فقد عاش الأول فى بلاد الدانشمنديين فى حين استقر الثانى فى قونية[2].

* لم يكن انهيار الحكم المركزى لسلاجقة الروم لصالح البيزنطيين، لأن أولئك استمروا فى شن الغارات على أراضى الإمبراطورية، وعلى الرغم من ذلك، فقد تمكَّن الإمبراطور البيزنطى من الاستيلاء على بعض الحصون فى المناطق الحدودية[3]، على أنه لم يشأ أن يغامر بالذهاب إلى قلقيلية أو إلى بلاد الشام، وكان هذا التصرف منه لصالح السلاجقة الذين تفرغوا لمعالجة مشكلاتهم الداخلية[4].

* **جاولى سقاوة**: بعد وفاة قلج أرسلان وغرقه فى نهر الخابور عام 500هـ/ 1107م، أضحى بوسع جولى أن يدخل الموصل، غير أن ما اقترن به حكمه من الوحشية لم يلبث أن جعله مكروهاً عند الناس كما أنه لم يزد عن جكرمش فيما أظهره من الاعتراف بسلطة السلطان محمد على الرغم من أنه خطب باسمه فى

(1) المصدر نفسه ص 112.
(2) المصدر نفسه ص 112.
(3) المصدر نفسه ص 112.
(4) المصدر نفسه ص 112.

الموصل[1]، إذ أعلن استقلاله وقطع كل صلة به، مما دفع السلطان محمد لأن يعهد في شهر ذي القعدة عام 501هـ/ شهر حزيران عام 1108م إلى أحد رجاله، وهو مودود بن التونتكين بطرد جاولي من الموصل والحلول مكانه في حكمها[2]، وهكذا اضطر جاولي إلى الفرار مجدداً من الموصل، وذهب إلى الجزيرة حيث التفّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية، كما لم يتردد في محالفة القوى الصليبية المجاورة، فأطلق سراح بلدوين الثاني دي بورج أمير الرها، وعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة[3]. ودخل مودود الموصل وسط ترحيب السكان في شهر صفر عام 502هـ/ شهر أيلول عام 1108[4].

5- **شرف الدولة مودود بن التونتكين 501 - 507هـ/ 1108- 1113م**: يحتل مودود مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين، وقد أسهمت في تكوين هذه المكانة عوامل عدة أهمها - ولا ريب - الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة لسمحة وقدرته - بناء على ذلك كله - على تزعُّم حركة الجهاد وإيجاد نوع من لتنسيق، ربما لأول مرة، بين كافة القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، الأمر الذي نن نجده متبلوراً وناضجاً إلاّ في عهد الأراتقة وزنكي فيما بعد .. وأخيراً نجاحه في وضع الصليبيين في موضع الدفاع، وتحقيقه عدداً من الانتصارات، جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين، بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين وأعدائهم .. ثم جاء مقتله السريع، إثر ذلك، في جامع دمشق على أيدي الشيعة الباطنية الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة، والحزن العميق الذي شمل جماهير المسلمين بعيد اغتياله

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ نزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 68.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ نزنكيين في الموصل ص 68.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد ستام ص 68.
(4) الباهر لابن الاثير ص 17.

والكلمات المخلصة التي قالها قبيل استشهاده، جاء ذلك كله لكي يؤكد مكانة مودود الإسلامية كبطل من أبطال الحروب الصليبية ورائد من رواد الجهاد الأولين[1].

أ- حملة مودود الأولى ضد الرها: في عام 503هـ/1109م بعد أشهر قليلة من استتباب الأمر له في الموصل وبعد أن تلقّى أمراً من السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه بالتحرك لقتال الصليبيين فبدأ مودود بتشكيل تحالف إسلامى ضم الأمير إيلغازى الأرتقى أمير ماردين بعساكره من التركمان، وسقمان القطبى أمير أرمينية المعروف باسم شاه الأرمن وعدد كبير من المتطوعين[2]. وكانت هذه أول مرة يجتمع فيها هذا العدد من الأمراء المسلمين لقتال الصليبيين، ولهذا تُعد هذه الحملة فاتحة عهد جديد من النضال ضد الصليبيين، ونقطة تحول هامة من التفرق والتخاذل إلى التجمع والهجوم[3]، وما أن علم الصليبيون فى الرها بحشود المسلمين حتى أنفذ بلدوين دى بورج رسولاً إلى بيت المقدس يلتمس النجدة العاجلة من الملك بلدوين، متجاهلاً الاستعانة بـ "تانكرد" صاحب أنطاكية، إذ كان يشك فى نواياه، وباتفاقه مع المسلمين ضد الرها، وكان الملك بلدوين آنذاك يحاصر مدينة بيروت، ولم يتحرك إلا بعد أن استولى عليها، فأسرع بالمسير نحو الشمال، وصحبه برترام أمير طرابلس، وانضم إليه قرب سميساط، بعض زعماء الأرمن وعلى رأسهم كوغ باسيل، فوصل إلى الرها فى آخر شهر ذى الحجة/أواخر شهر تموز، وظل الأتابك مودود يحاصر الرها مدة شهرين دون أن يتمكّن من اختراق استحكاماتها، فلما تراءى له جيش بيت المقدس، رفع الحصار عنها وتراجع إلى حران وفق خطة عسكرية محكمة، وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق[4]، وقرر الملك بلدوين مطاردة الجيوش الإسلامية، إلا أنه كان عليه أن يوحد كلمة

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى ص 112.

(2) المصدر نفسه ص 113، تاريخ الزنكيين فى الموصل ص 69.

(3) نور الدين محمود، حسين مؤنس ص 123.

(4) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص 271.

الصليبيين قبل أن يقوم بهذا العمل، فاستدعى تانكْرد صاحب أنطاكية، ونجح في تحقيق المصالحة بينه وبين أمير الرها[1]، وكان مودود قد أمعن في انسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم، ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال، لكن عملية المطاردة توقفت فجأة، وانفرط عقد التحالف الصليبي، لأنه تظافرت عدة دوافع جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة ويتراجعون من المنطقة لعل من أهمها:

* لقد تلقّى الملك بلدوين تحذيراً مبكراً بخطة مودود، ففكّ الحصار عن قلعة شناو التي تقع إلى الشمال الغربي من حران، كما تلقّى إنذاراً من بيت المقدس بتحرك فاطمي ضد بيروت، فقرر التخلي عن الحملة[2].

* راجت شائعات في الأوساط الصليبية، بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكرد إلى التخلي عن الحملة.

* وبناء على نصيحة الملك، بأنه لا جدوى من محاولة حماية الجهات الواقعة شرقي نهر الفرات، أوعز بلدوين إلى السكان بالجلاء إلى الجهات الواقعة على الضفة اليمنى، واحتفظ بحاميات عسكرية، في حصن الرها وسروج الكبيرين، وبعض القلاع الصغيرة، مع تدعيم الإمكانات الدفاعية لها. أما مودود فقد اكتفى بمهاجمة مؤخرة الصليبيين العابرين وعاد إلى الموصل[3].

ب- **حملة مودود الثانية ضد الرها**: جاءت الجولة الثانية بعد أقل من سنتين، إثر الاستنفار الذي دعا إليه وفد من أهالي حلب قدم إلى بغداد للدعوة إلى الجهاد، بعدما رأوا من تمادي رضوان في إذعانه للصليبيين، والهزائم المتتالية التي مُنِيَ بها مسلمو الشام والتي سقط على إثرها عدد من المواقع بأيدي الأعداء. وقد استفز نداء الوفد الحلبي جماهير بغداد وفقهاءها، فقاموا بتظاهرة واسعة طالبوا

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 70.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 70.
(3) المصدر نفسه ص 70.

المسؤولين خلالها، خلفاء وسلاطين بضرورة إعلان الجهاد وتسيير الجيوش لوقف الزحف الصليبي، .. وقد أسرع الخليفة بإعلام السلطان السلجوقي بما جرى، وطلب منه الاهتمام بالأمر والإسراع بالاستجابة لنداءات المسلمين، فأصدر هذا أوامره على الفور إلى واليه على الموصل الأمير مودود بتشكيل تحالف إسلامي جديد جاعلاً القيادة الأسمية لابنه الملك مسعود[1]، واجتمع تحت قيادة مودود، حاكم الموصل، جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة، سقمان القبطي صاحب خلاط[2]، وتبريز[3]، وبعض ديار بكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة[4]، وأبو الهيجاء صاحب إربل، فضلاً عن بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين أيلنكي وزنكي التي بُرسُق أمير همذان[5].

بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في شهر محرم عام 505هـ شهر تموز عام 1111م بفتح عدة مواقع صليبية شرقي الفرات ثم اتجه أفرادها لحصار الرها، أثارت الحملة الذعر بين السكان، لكن في الحقيقة لم تغير الموقف فيها، فقد أعيت المسلمين بسبب مناعتها وصمود أهلها، عندئذ رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر[6]، فتحولت قوات المسلمين إليها كي يجرّوا أعداءهم إلى عبور الفرات فيتمكنوا منهم، إلا أن هذا كان خطأ من قادة المسلمين، لأن الصليبيين تمكنوا لدى عبورهم الفرات من نقل مقادير كبيرة من الميرة والأعتدة والأقوات إلى الرها فقويت من بعد ضعف كاد يوقعها بأيدي المسلمين لو استمروا على حصارهم لها[7]. وما لبث جوسلين صاحب تل باشر، الذي تعرض لضغط القوات الإسلامية، أن تمكن من رشوة القائد الكردي أحمديل الذي كان الجزء الأكبر من قوات المسلمين بمعيته فانسحب متراجعاً بالرغم من معارضة سائر الأمراء[8]. ولم

---

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 115 نقلاً عن الكامل في التاريخ..

(2) قصة أرمينية الوسطى.

(3) تبريز : من أشهر مدن أذربيجان.

(4) مراغة : أعظم وأشهر بلاد في أذربيجان.

(5) ذيل تاريخ دمشق ص 278 ـ 279.

(6) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 73.

(7) نهر الذهب للغزي (3/82).

(8) مرآة الزمان (8/35 ـ 36)، المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 116.

يمض وقت طويل حتى استنجد رضوان بمودود واستدعى قواته للقدوم إلى حلب كي يعملوا سوية من هناك ضد المواقع الصليبية، فغادر مردود تل باشر متجهاً إلى حلب على رأس قواته، وما أن ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج إليهم جوسلين، على رأس قوة من فرسانه، وتمكن من مهاجمة مؤخرتهم، وقتل ما يقرب من ألف رجل منهم، وعاد إلى بلده مثقلاً بالغنائم. ولم تكن دعوة رضوان لمودود صادقة، فلم تكد القوات الإسلامية تقترب من حلب حتى أقفل رضوان بوجهها الأبواب، واتخذ من إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات أن أمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن ولم يسع مودود إلا أن يتحرك بجيشه جنوباً إلى شيزر بعد أن أغار على عدد من المواقع الصليبية في الشمال. وفي شيزر اجتمع به طغتكين الذي كان قد توجه إلى بغداد طالباً المساعدة لاستعادة طرابلس، إلا أنه خاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين سراً وأما تانكرد الذي عسكر أمام شيزر فإنه تراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين يستنجد به، فاستجاب له هذا وبعث إلى سائر الفرسان في الشرق الصليبي ليلحقوا به فانضم إليه عدد كبير منهم، كما قام تانكرد باستدعاء أتباعه من سائر جهات إنطاكية. وأما مودود فقد تحصن خلف أسوار شيزر قبل أن يكتمل حشد الصليبيين الذين بلغ عددهم نحو ستة عشر ألف مقاتل كان على رأسهم ملك بيت المقدس، وأمراء الرها وإنطاكية وطرابلس. ورفض مودود أن يجره أعداؤه إلى معركة حاسمة. إلا أن الأمور لم تجر على نحو طيب في جيشه، إذ إن طغتكين لم يشأ أن يبذل له المساعدة إلاَّ بعد أن تعهد مودود بالمضي في حملته إلى الجنوب لقتال الصليبيين في فلسطين رغم خطورة هذه المحاولة من الناحية العسكرية وأما برسق الكردي فأصابه المرض وأراد أن يعود إلى بلاده، ومات سقمان القطبي فجأة فانسحبت عساكره صوب الشمال حاملة جثمانه، وبادر أحمديل إلى الانسحاب بعساكره محاولاً انتزاع جانب من ممتلكات سقمان، ولم يعد بوسع مودود القيام بالهجوم نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم كما أنه لم يكن راغباً في أن يقضي الشتاء بعيداً عن الموصل، فقفل عائداً إليها[1]. كان لتلك البوادر السيئة من قبل بعض الأمراء أثرها المباشر على إمكان

(1) مرآة الزمان (8/35 – 36)، المقاومة الإسلامية عماد الدين ص 118.

تحقيق أى نصر حاسم ضد الصليبيين، كذلك الذى حققه جكرمش وسقمان فى معركة البليخ. وقد أظهرت هذه الأحـــداث مدى تفكُّك القيادات الإسلامية وعدم وحدتها، فى الوقت الذى تجمعت فيه القوى الصليبية فى شمالى الشام وجنوبه، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة على سائر أمراء الصليبيين[1].

كانت سياسة رضوان فى إمارة حلب شراً كلها، فقد هادن الإسماعيلية والصليبيين، وحالفهم ضد خصومهم من المسلمين، إذ انضم إلى صاحب أنطاكية الصليبى ضد صاحب الموصل جاولى عام 501هـ، وعندما هاجم الأمير مودود صاحب الموصل أنطاكية وتل باشرن رفض رضوان مساعدته وأغلق مدينة حلب فى وجهه بل تحالف مع "تنكرد" الصليبى صاحب أنطاكية ضد المجاهدين، وبقيت أبواب المدينة مغلقة سبع عشرة ليلة فى وجه الجيش الإسلامى[2]، ولم يحفظ له الصليبيون هذه المواقف فحاصروا حلب عام 504هـ واشتد الحصار، حتى أكل الناس الميتات وورق الشجر، وفرضوا على رضوان مبلغاً من المال كان يحمله إليهم سنوياً[3]، وحصل الإسماعيلية الباطنية الرافضية على مكانة مرموقة فى حلب، بفضل تشيع رضوان لآرائهم، ومساعدته لهم، ومن ثم صار يستخدمهم فى اغتيال خصومه السياسيين[4]، وكان يميل إلى الفاطميين، فخطب للمستعلى فى بلاده، ولوزيره الأفضل، ودامت الخطبة لهما عامين فى حلب، وكان دميم السيرة، قرب الباطنية، وعمل لهم دار دعوة فى حلب فكثروا وهلك سنة 507هـ[5]، وصفه المؤرخ أبو المحاسن فقال: كان شحيحاً بخيلاً قبيح السيرة، ليس فى قلبه رحمة للرعية، وكانت الفرنج تغير وتسبى ... ولا يخرج إليهم[6]، خلفه ابنه ألب أرسلان

(1) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى ص 118.
(2) زبدة الحلب (2/159) الجهاد والتجديد ص 119.
(3) الكامل فى التاريخ (8/544).
(4) الجهاد والتجديد ص 119.
(5) الكامل فى التاريخ (8/552) سير أعلام النبلاء (19/315).
(6) النجوم الزاهرة (5/205).

المعروف بالأخرس، فنكب الإسماعيلية وقتل زعيمهم أبا طاهر الصائغ، وبقية زعماء تلك الطائفة.

جـ- حملة مودود الثالثة ضد الرها: ومع أن مودوداً وجد نفسه وحيداً في حركة الجهاد إلا أنه قام في شهر ذي القعدة 505هـ/شهر أيار 1112م، بمهاجمة الرها فجأة، وحاصرها لكن المدينة صمدت في وجه الحصار، فرأى عندئذ أن يترك حولها قوة عسكرية ويهاجم سروج في شهر محرم عام 506هـ/شهر تموز عام 1112م بوصفها المعقل الثاني للصليبيين شرقي الفرات. وبهذه الخطة العسكرية يكون مودود قد قسَّم قواته، أضعفها متخلياً عن حذره في مواجهة الصليبيين، وكانت النتيجة أن لحق به جوسلين صاحب تل باشر وهزمه وقتل عدداً كبيراً من رجاله، فلم يسعه عند ذلك إلا التراجع نحو الرها، لكن جوسلين سبقه إليها لمساعدة بلدوين دي بورج في الدفاع عنها، وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الأحداث، تآمر الأرمن في الرها ضد بلدوين، واتصلوا بمودود ليخلصهم من حكم الصليبيين، وجرى الاتفاق على أن يساعدوه في الاستيلاء على قلعة تسيطر على القطاع الشرقي من المدينة، مما يمكنه بعد ذلك من الاستيلاء على بقية المدينة بسهولة، لكن وصول جوسلين السريع حال دون تنفيذ الاتفاق ورُدَّ المسلمون على أعقابهم، فلم يتمكنوا من انتزاع المدينة من أيدي الصليبيين(1).

د- حملة مودود ضد إمارة بيت المقدس : معركة الصنبرة(2): ظل مودود متمسكاً بفكرة جهاد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد السلجوقي، بوصفه ممثله في إقليم الجزيرة وبلاد الشام، فتحرك في مطلع عام 507هـ/شهر حزيران عام 1113م على رأس تحالف إسلامي لقتال الصليبيين في بيت المقدس بناءً على استنجاد طغتكين أتابك دمشق به، بعد أن تعرضت إمارته لهجمات شديدة من صليبيي بيت المقدس، الذين نفذوا من وادي التيم إلى البقاع، ووصلوا إلى بعلبك، انضم تميرك صاحب سنجار، وأياز بن إيلغازي أمير

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 76.

(2) الصنبرة : موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال.

ماردين إلى هذا التحالف[1] وكان هدف المسلمين منقطة فلسطين. فنجحوا في استدراج الملك بلدوين إلى أراضي دمشق حتى جسر الصنبرة، الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن. وفي الثالث عشر من شهر محرم حدث اللقاء الذي انتهى بانتصار المسلمين، ونزلت بالصليبيين هزيمة ساحقة، فارتد ملك بيت المقدس إلى طبرية[2]، ولم يلبث أن وصل لنجدته روجر أمير أنطاكية، وبونز أمير طرابلس، في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة[3]، ومضى المسلمون في زحفهم، بعد المعركة، حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يغامروا بمواجهة التحالف الصليبي، وبخاصة أنه دخل فصل الشتاء، فقرروا الانسحاب إلى دمشق[4]. وكان ذلك أول مرة تتعاون الموصل ودمشق في حرب الصليبيين في مملكة بيت المقدس، وتكمن أهمية الأتابك مودود في أنه: أعاد للمسلمين الثقة بأنفسهم، فتحولوا من الدفاع إلى الهجوم في علاقاتهم مع الصليبيين وبلور فكرة الاتحاد بين المسلمين، وأعطاها بُعداً سياسياً وعسكريا، فأضحى أمراؤهم على استعداد للتعاون المثمر بنوايا صادقة[5].

هـ- **مقتل مودود**: سيَّر مودود وحليفه رسولاً إلى السلطان السلجوقي في أصفهان يبشرانه بما تمَّ على أيديهما من فتح وبعثوا مع الرسول بعض ما غنموه، وعدداً من أسرى الفرنج ورؤوسهم، إلا أن بُعد المسلمين عن بلادهم، وانقطاع الإمداد والتموين عنهم، واشتداد البرد عليهم، اضطرهم إلى وقف عملياتهم في المنطقة والعودة إلى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول على أمل الرجوع ثانية لقتال الصليبيين بعد حلول الربيع، وبعد أن يتلقى مودود جواب السلطان على رسالته، والتعليمات التي سيصدرها لهذا الصدد[6] ودخل جامع دمشق يوم

(1) الكامل في التاريخ (8/550).
(2) المصدر نفسه (8/550).
(3) ذيل تاريخ دمشق ص 294 - 297.
(4) المصدر نفسه ص 297.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 77.
(6) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 122.

الجمعة في ربيع الأول، ليصلي فيه، وطغتكين، فلما فرغوا من الصلاة وخرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحات وقتل الباطني، وأخذ رأسه، فلم يعرفه أحد فأحرق، وكان مودود صائماً، فحمل إلى دار طغتكين، واجتهد به ليفطر فلم يفعل وقال: لا لقيت الله إلا صائماً، فمات من يومه رحمه الله[1]، وتأثر المسلمون لمصرع بطل من كبار أبطال الجهاد، واشتهر بإخلاصه وتفانيه وجرأته، وحزنوا حزناً عميقاً لاختفائه السريع، بعد الانتصار العظيم الذي حققه مع حليفه في قلب البلاد الصليبية، وقد عبرت جماهير دمشق عن حزنها وغضبها، حيث شهدت المدينة اضطرابا لم تشهد له مثيلاً منذ فترات بعيدة، ولم يهدئ من روع الناس سوى أملهم بنجاة القائد من الجراح التي أثخنته، لكنهم ما أن سمعوا نبأ استشهاده بعد ساعات قلائل، حتى عادوا – ثانية – إلى ما كانوا عليه[2]، وكتب ملك الفرنج في بيت المقدس كتاباً إلى طغتكين جاء فيه : إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها[3]!! غير أن ملك الفرنج وغيره من أمراء الصليبيين تجاهلوا أو تعمدو التجاهل آنذاك، إن ما هو أكثر عونا لهم وأشد خطراً على كل محاولة إسلامية لقتالهم، ليست هي الأمة التي ظنوا أنها قتلت عميدها في بيت معبودها. فقد عرفنا موقف هذه الأمة من مقتل بطلها المجاهد، إنما هي تلك الفرقة الباطنية الرافضية الحاقدة التي قامت على مذهب جديد، شديد الميل إلى التدمير كان قد أنشأه في بلاد فارس، شخص يدعى الحسن بن الصباح وقد تحدثنا عنه وقد دعمته الدولة الفاطمية الرافضية الباطنية ولم تكن كراهية الحشاشين هؤلاء للمسيحيين تزيد على بغضهم للمسلمين السنيين[4]، وما نشاهده اليوم خير دليل على ذلك.

و- ما ترتب على حملات بطل الإسلام مودود من نتائج: وعلى الرغم من الإخفاق الذي حل بحملات بطل الإسلام مودود إلا أنها تمخضت عن عدد من

---

(1) الكامل في التاريخ (8/551).

(2) تاريخ دمشق لابن القلانسي ص 187 – 188.

(3) الكامل في التاريخ (8/551).

(4) المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي ص 124.

النتائج المهمة فى مسار تاريخ حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين، ويمكن إجمالها فى الآتى:

* إن إمارة مودود – على قصر مدتها – تعد نقطة تحول فى تاريخ الصراع الإسلامى – الصليبى خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الجهاد حقيقة واقعة[1]، ووجدت فارسها المخلص الذى حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التى تولى فيها أمر إمارة الموصل[2].

* يمكن اعتبار حملات مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكى مع عدم إغفال الفارق الزمنى فى صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين إنجاز كل منهما والتى أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام 539هـ/1144م حيث أن مودود وجه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها على نحو نصفه بأنه المقدمة الأولى لجهود زنكى ضدها، على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.

* كشفت حملات مودود عن الضعف الذى كانت عليه القوى الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة وعدم إخلاص بعضها لقضية الجهاد ضد الغزاة الصليبيين[3].

وعلى الرغم من الدور الرائد الذى قام به مودود؛ إلا أننا نجد البعض يرى أن عماد الدين زنكى هو الذى وضع أساس حركة الجهاد ضد الصليبيين[4]، وفى هذا إجحاف بدور تلك القيادة السلجوقية، وواقع الأمر: أن المؤرخين الذين أرخوا لتلك المرحلة من تاريخ الصراع الإسلامى الصليبى انبهروا بحجم الإنجاز الكبير الذى قام به عماد الدين زنكى من حيث إسقاط أول إمارة صليبية أقيمت فى المنطقة، فتصوروا أن المراحل السابقة عليه ليست قيمة كبيرة على الرغم من أنها كانت الممهدة الحقيقية لإنجاز عام 539هـ/1144م ولا نغفل أيضاً أن الدعاية السياسية

(1) شرف الدين مودود ص 150 عبد الغنى رمضان.
(2) الحروب الصليبية بين الشرق والغرب ص 156.
(3) المصدر نفسه ص 156.
(4) المصدر نفسه ص 157.

الناجحة والفعالة التى قدمها المؤرخ العراقى الفذ ابن الأثير من خلال كتابه الباهر لمؤسس البيت الزنكى قد جعلت المؤرخين يتأثرون بها بصورة أو بأخرى، على نحو جعل سقوط عماد الدين زنكي في مثل ذلك - الموقف - من حيث تقويم دورهم التاريخى، ويكفى مودود فخراً أنه نجح في ضرب الوجود الصليبى فى الجليل، وهى منطقة لم تصل إليها فعاليات المسلمين منذ قرابة عقدين من الزمان، ويكفيه أنه ألحق الهزيمة بمؤسس مملكة بيت المقدس الصليبى، ونستطيع أن نصل إلى رؤية محددة من خلال أن قادة الجهاد الإسلامى كلٌ يكمل الآخر، ولا خصومة بينهم، وما قام به مودود أفاد - فيما بعد - القائد العظيم صلاح الدين الأيوبى، ولذا فبالإمكان القول، اليوم الصنبرة وغداً حطين؛ وهذا ما أثبته السياق العام لتاريخ تلك المنطقة فى القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى[1] وعلى أية حال عند مقارنة جهد مودود بسابقيه فى صورة كربوغا، وجكرمش، وجاولى سقاوة سيتضح لنا أنها أدوار متدرجة ومتصارعة، فكربوغا انحصر أمره فى نجدة إنطاكية وجكرمش زاد الأمر من خلال تحالفه مع سقمان بن أرتق على نحو أدى إلى الانتصار فى معركة حران 498هـ/1104م أما مودود فإن دوره أكثر تعاظماً على نحو أدى إلى هزيمة الصليبيين فى معركة الصنبرة عام 507هـ/1113م، وهو أمر يثبت لنا أنه خلال نحو تسعة أعوام فقط تم إلحاق هزيمتين كبيرتين بالصليبيين، غير أن العقبة القائمة تمثلت فى عدم الإفادة من كل من الانتصارين فى اجتياح مناطق الأعداء، وتحقيق انتصار سريع خاطف يصعب على الصليبيين تعويض خسائرهم من جرائه، غير أن بقايا ظاهرة التشرذم السياسى، والتباغض بين القيادات الإسلامية كان عائقاً دون تحقيق ذلك[2].

6- **نجم الدين ايلغازى صاحب ماردين:** ارتبطت حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين ارتباطا شديداً بزعماء الموصل الذين كانوا تحت طاعة السلاجقة، وأدت وفاة السلطان محمد بن ملكشاة سنة 512هـ/1117م إلى ازدياد تدهور أحوال

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 157.

(2) المصدر نفسه ص 158.

السلاجقة فى العراق، فسعى السلطان محمود بن محمد ملكشاه إلى استدعاء آقسنقر من الموصل لتوليته شحنكية بغداد[1] الأمر الذى أفقد الموصل مكانتها القيادية فى بعث حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين مؤقتاً، وانتقال هذه القيادة إلى نجم الدين ايلغازى صاحب ماردين، واستهل ايلغازى أعماله بالاستيلاء على حلب سنة 511هـ/1117م، لأهميتها بالنسبة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين، وذلك لما كانت تتمتع به من مركز استراتيجى حيوى من النواحى البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية، وكانت حلب تقع بين إمارتين صليبيتين هما الرها وأنطاكية، وفى نفس الوقت يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة فى منطقة الجزيرة. لذا كان الاستيلاء عليها بمثابة فتح الطريق لقيادة حركة الجهاد، وذلك ما حدث فعلاً بالنسبة لنجم الدين ايلغازى وابن أخيه بلك بن بهرام ومن بعدهما آقسنقر البرسقى وعماد الدين زنكى ونور الدين محمود فيما بعد[2]. وأما عن تفاصيل استيلاء نجم الدين ايلغازى على حلب سنة 511هـ/1117م فقد تجدد بها من الحوادث ما أطمع الصليبيين فى الاستيلاء عليها حيث بلغت حداً من الضعف والضائقة الاقتصادية مما أعجز أهلها عن تقديم القوت لدوابهم ولكن خوف أهلها من أن تسقط بيد الصليبيين قد أجبرهم على استدعاء نجم الدين إيلغازى وتسليمه حلب فى السنة المذكورة، واستهل إيلغازى أعماله بحلب بفرض سيطرته على بعض المواقع التابعة لها كبالنس، ومصادرة بعض رجال حلب للحصول منهم على مال يهادن به الصليبيين، فاستوحش منه أهل حلب وجندها – على حد قول ابن العديم – مما اضطره إلى مغادرتها إلى ماردين بعد أن استخلف على حلب ابنه حسام الدين تمرتاش واستغل الجند المقيمون فى بالس موجة الغلاء التى مروا بها فى نفس السنة 511هـ/1117م، فأرسلوا إلى الصليبيين ليسلموها إليهم فاضطر إيلغازى إلى العودة على رأس قوة من التركمان إلى حلب، فلما شعر الصليبيون بالخطر، انسحبوا عنها فتسلمها إيلغازى للمرة

(1) الوافى بالوفيات (9/310) النجوم الزاهرة (5/214).
(2) الإمارات الأرتقية فى بلاد الشام والجزيرة ص 234 – 235.

الثانية، وعاد إلى ماردين بعد أن عقد معهم هدنة بعدم اعتداء أى منهما على ممتلكات الطرف الآخر[1].

* **نقض الصليبيين للهدنة**: ولكن الصليبيين وجدوا الفرصة سانحة بعد خروج إيلغازى وأغاروا على عزاز وشددوا الحصار عليها حتى اضطر من بها من المسلمين إلى التسليم، واضطر أهل حلب إلى مراسلة الصليبيين وطلبوا منهم التمسك بالهدنة التى كان قد عقدها معهم إيلغازى وأن يسلموهم أى أهل حلب تل هراق ويؤدون لهم القطيعة المقررة على حلب عن أربعة أشهر ومقدارها ألف دينار ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً[2]. وغضب نجم الدين ايلغازى لما وصلت إليه أخبار حلب، ولكنه لم يستطع العودة إليها وإنقاذها مما هى فيه لقلة عساكرها فاتجه إلى شرق منطقة الجزيرة بقصد جمع العساكر فى الوقت الذى أبلغ فيه ظهير الدين طغتكين عن رغبته فى الاجتماع به سنة 512هـ/1118م واجتمعا على قلعة دوسر بهدف القيام بدفع الصليبيين عن حلب ولكن ذلك لم يتيسر لهما، الأمر الذى دفع الصليبيين إلى إحكام السيطرة على مداخل حلب بعد أن استولوا على بزاغة فتردت الأحوال بحلب حتى بلغت حد التلف على حد قول ابن العديم[3]، ولم يجد أهل حلب بداً من الاستعانة بالخلافة العباسية والدولة السلجوقية فى بغداد، إلا أنهم لم يغاثوا نظراً لانشغال السلاجقة بالمنازعات الأسرية فيما بينهم من جهة وضعف الخلافة العباسية من جهة أخرى.

* **إعلان النفير ضد الصليبيين**: لم يتيسر لنجم الدين ايلغازى لقاء الصليبيين فقد فارق طغتكين وعاد إلى ماردين لجمع العساكر تمهيداً للعودة للجهاد والالتقاء مع الصليبيين فى معركة حاسمة[4] وفى ماردين حشد نجم الدين ايلغازى ما

(1) زبدة الحلب (2/180) الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى ص 125.
(2) زبدة حلب (2/185 - 186).
(3) المصدر نفسه (2/ 186).
(4) المصدر نفسه (2/186).

يزيد على عشرين ألفا من التركمان[1]. بقصد قتال الصليبيين الذين ضيقوا على حلب حتى كادت أن تعدم القوت. وأرسل ايلغازى رسله إلى بغداد لإعلان النفير ضد الصليبيين وإعلام الخليفة العباسى المسترشد بالله والسلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه بما فعله الصليبيون بالديار الجزرية وأنهم ملكوا قلعة عند الرها وقتلوا صاحبها بن عطير[2] وكان نجم الدين ايلغازى قد تواعد مع ظهير الدين طغتكين في سنة 512هـ/1118م على ملاقاة الصليبيين في شهر صفر من السنة التالية 513هـ/1119م بالشام. وتوجه ايلغازى قبل الموعد المحدد إلى الرها وشدد عليها الحصار، مما اضطر من بها من الصليبيين إلى مصالحته لقاء تنازلهم عن الأسرى المسلمين الموجودين بها فأجابهم ايلغازى وشرط عليهم عدم التوجه لمساعدة أمير انطاكية فى حالة حدوث قتال معه فأجابوه من عزل إحدى قوى الصليبيين عن مد يد العون للقوى الأخرى وهذا دليل واضح على ضعف رضوخ الصليبيين في منطقة الجزيرة إلى مطالب الأمراء المسلمين[3].

* **معركة ساحة الدم**: وبعد أن اطمأن ايلغازى إلى أنه لن يتعرض إلى طعنة الصليبيين من الخلف توجه إلى بلاد الشام وقد انضم إليه أسامة بن المبارك بن شبل الكلابى والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس وارزن، وواصل سيره حتى بلغ قريباً من الاثارب بأرض سرمدا فى ربيع الأول سنة 513هـ/1119م وهناك انتظر وصول ظهير الدين طغتكين، وكان الصليبيون بقيادة روجر صاحب أنطاكية قد نزلوا بتل عقرين وشرعوا في بناء حصن لهم هناك ولم يدر بخلدهم أن نجم الدين ايلغازى سيباغتهم هناك لضيق الطريق، ثم لتوهمهم أن المسلمين سينالون الإثارب أوزوردنا، حتى أن الغرور قد أصابهم لاعتقادهم بحصانة موقعهم، فأرسلوا إلى ايلغازى يقولون له: لا تتعب نفسك بالمسير إلينا فنحن

(1) المصدر نفسه (2/187 ـ 190).
(2) الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى ص 153.
(3) الإمارات الأرتقية فى بلاد الشام والجزيرة، عماد الدين خليل ص 241.

واصلون إليك[1]. ولما طال انتظار ايلغازى لوصول حليفه، لبى رغبة الأمراء الذين كانوا معه فى التعجيل بمباغتة الصليبيين، فما شعر الصليبيون إلا ورايات المسلمين قد أقبلوا وأحاطوا بهم من كل جانب، وذلك يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول من السنة 513هـ/1119م. وخرج قاضى حلب أبو الفضل بن الخشاب وخطب فى المسلمين خطبة بليغة استنهض فيها عزائم المسلمين على الجهاد، فحمل المسلمون على الصليبيين حملة واحدة من جميع الجهات فكانت السهام على الصليبيين كالجراد فى الوقت الذى أخذتهم السيوف من سائر نواحيهم، فلم يفلت منهم غير يسير بينما كان الباقون بين قتيل وجريح وكان ضمن القتلى روجر صاحب أنطاكية الذى كان قد تعجل لقاء المسلمين قبل وصول قوات بيت المقدس وطرابلس وغيرها ووقع فى الأسر نيفا وسبعين من فرسان الصليبيين ومقدميهم، وحاولوا أن يفتدوا نفوسهم بمبلغ ثلاثمائة ألف دينار فلم يقبل منهم نجم الدين ايلغازى بل أمر بقتلهم جميعاً[2]، وقد عرفت هذه الوقعة عند المؤرخين اللاتينيين، ومن نقل عنهم من المؤرخين المحدثين باسم ساحة الدم لكثرة ما قتل فيها من الصليبيين والتى لم يقتل فيها من المسلمين سوى العدد القليل[3].

* **الأبعاد التى حققها الانتصار على الصليبيين فى معركة ساحة الدم**: إن أهمية ما حل بالصليبيين لم يقف عند حد النصر العسكرى الذى حققه نجم الدين ايلغازى عليهم، بل تعداه إلى أنه قد صاحب هذا النصر قيام جبهة إسلامية متحدة من الأمراء المسلمين فى الشام والجزيرة إضافة إلى أنها جعلت حلب فى منأى عن أخطار الصليبيين خصوصاً بعد استيلاء نجم الدين ايلغازى على حصن قريب من الإثارب فى السنة نفسها فضلاً عن أنها كانت كارثة فادحة حرمت أنطاكية من زعيمها روجر وجيشها مما جعل السريان والأرمن بأنطاكية

---

(1) زبدة الحلب (2/190) الجهاد ضد الصليبيين ص 154.
(2) الجهاد ضد الصليبيين ص 154 نقلا عن الكامل فى التاريخ.
(3) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (1/473) الإمارات الأرتقية ص 242.

يتشككون في موقعهم إلى جانب الصليبيين وهذا على ما يبدو ما دفعهم إلى التآمر للخلاص من الصليبيين الغربيين فيما بعد[1]، وذكر ابن العديم أن نجم الدين ايلغازى نزل بعد انتهاء المعركة إلى خيمة روجر ليسلم إليه المسلمون الغنائم التي حصلوا عليها ولكنه رد جميع الغنائم إلى المقاتلين ولم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام ليبعث في نفوسهم حب الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[2] واستطاع ايلغازى أن يحقق سلسلة من الانتصارات في شمال الشام هيأت للمسلمين جوا من الهدوء والاستقرار. فقد استطاع المسلمون أن يلحقوا بالنجدة الصليبية التي أتت بزعامة بلدوين ملك بيت المقدس لنجدة روجر صاحب إنطاكية هزيمة ساحقة[3]، ولم يكتف نجم الدين ايلغازى بهذا بل اجتمع في ارتاح بحليفه طغتكين واتفقا على مهاجمة الإثارب وزردنا، فاستطاعا الاستيلاء عليهما من الصليبيين، ثم سار ايلغازى إلى دانيت بنفر قليل من المسلمين والتقى ببلدوين ملك بيت المقدس وروبرت صاحب زردنا ودارت بين الطرفين معركة في جمادى الأولى من السنة 513هـ/ 1119م أسفرت عن انتصار نجم الدين ايلغازى وهزيمة الصليبيين الذين احتموا بحصن هاب بعد مطاردة نجم الدين لهم[4] ثم عاد نجم الدين ايلغازى إلى حلب بينما التقى رجاله في طريق عودتهم بصاحب زردنا روبرت الأبرص وبصحبته قوة من الصليبيين، فهاجمتهم قوة ايلغازى مما اضطر من سلم من الصليبيين إلى العودة إلى حصن هاب، في الوقت الذى وقع فيه الأبرص أسيراً في أيدى المسلمين فحملوه إلى ايلغازى بحلب، وأنفذه بدوره إلى طغتكين بدمشق حيث قتله صبراً[5]. وفي أواخر جمادى الأولى سنة 513هـ/1119م غادر ايلغازى حلب إلى ماردين بسبب الضائقة المالية التي مر بها إضافة إلى أن حلب كانت من الضعف

(1) الاعتبار ص 40، 41، الحركة الصليبية (1/ 492).
(2) زبدة الحلب (2/ 190) الجهاد ضد الصليبيين ص 155.
(3) الجهاد ضد الصليبيين ص 155.
(4) زبدة الحلب (2/ 190) الجهاد ضد الصليبيين ص 156.
(5) تاريخ الحروب الصليبية (2/ 245).

بحيث جعلته لا يستطيع البقاء فيها[1].

* **حصار إنطاكية وعقد الهدنة مع ملك بيت المقدس:** وبالرغم من انشغال نجم الدين ايلغازى ببعض الأمور الإدارية فى ماردين، فقد جمع جيشاً من التركمان عبر بهم الفرات إلى بلاد الشام فى سنة 514هـ/1120م واجتمع بطغتكين وسارا إلى أنطاكية حيث ضرب عليها حصاراً، فلم يتمكنا منها، فدخلا إلى قنسرين، وحاصراها يوماً وليلة، ولم ينالا منها شيئاً، وعندها أشار ظهير الدين طغتكين على صاحبه برفع الحصار عنها وأن يعود كل منهما إلى بلده، فقبل نجم الدين ايلغازى مشورة صاحبه، وعاد إلى حلب بعد أن أدرك ما عليه الصليبيون من القوة. وتفرق عساكره من التركمان واضطر ايلغازى إلى عقد هدنة مع ملك بيت المقدس بلدوين الثانى على أن يكون للصليبيين المعرة وكفر طاب والبارة وضياع من جبل السماق، وعلى أن يكون أمد هذه الهدنة نهاية السنة[2].

* **نقض الهدنة:** لم يتقيد الصليبيون بهذه المعاهدة، فقد أغار جوسلين صاحب تل باشر فى السنة نفسها 514هـ/1120م على بعض البلاد التابعة لحلب، مما اضطر أهل حلب إلى إرسال احتجاج شديد اللهجة إلى بلدوين الثانى ملك بيت المقدس يخبرونه فيه باعتداءات جوسلين على المسلمين، ولكنه رد عليهم بقوله: ما لى على جوسلين يد[3]. ولم يقف الصليبيون عند هذا الحد بل أغار الصليبيون بأنطاكية على بلد شيزر وأسروا جماعة من المسلمين وطالبوا أمير شيزر العربى أبو العساكر سلطان بن منقذ ببعض المطالب التعسفية مما اضطره إلى مصالحتهم على مال يدفعه إليهم[4]. وبالإضافة إلى ذلك فقد استغل الصليبيون فرصة خلو حلب من ايلغازى فشنوا فى صفر من سنة 515هـ/1121م هجوماً على الإثارب وأحرقوا ما بها من الدور والغلال وسار بلدوين الثانى وأغاز

(1) الجهاد ضد الصليبيين ص 156.
(2) المصدر نفسه ص 156.
(3) المصدر نفسه ص 156، 157.
(4) المصدر نفسه ص 157.

على حلب نفسها، وفرض عليها حصاراً شديداً أدى إلى وقوع خمسين أسيراً من أهلها في يده ونجح الحلبيون في استنقاذ إخوانهم وأجبروه على التراجع عنها إلى أنطاكية[1] وعلى ما يبدو فإن نجم الدين ايلغازى قد اضطر إلى البقاء في ماردين بعض الوقت مما دعاه إلى مراسلة ولده سليمان بن إيلغازى النائب عنه في حلب يأمره بعقد صلح مع الصليبيين، حصل الصليبيون بموجبه على سرمين وبلدة ليلون وبعض الجهات الزراعية المحيطة بحلب، والإثارب[2].

* **تمرد سليمان بن ايلغازى على أبيه**: وعلى الرغم من أن الصلح الذى عقده سليمان بن ايلغازى مع الصليبيين لم يكن في صالح المسلمين، فإن سليمان بن ايلغازى لم يسع إلى علاج ما استجد بحلب من الفوضى والاضطراب، بل أعلن عصيانه على والده وأعلن استقلاله بحلب، وقد شجعت هذه الخطوة من قبل سليمان بن ايلغازى الصليبيين على مضايقة حلب والاستيلاء على بعض المواقع المحيطة بها في جمادى الآخرة من سنة 515هـ/ 1121م، ومطالبة صاحبها سليمان بالتنازل عن الإثارب لبلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ولكن سكان الإثارب من المسلمين رفضوا الخضوع للصليبيين الأمر الذى أجبر بلدوين على التراجع إلى إنطاكية ومنها إلى بيت المقدس[3].

* **القضاء على التمرد**: وأما نجم الدين ايلغازى، فإنه ما أن سمع بعصيان ابنه بحلب حتى قدم إليها على وجه السرعة، فعاقب من كان وراء عصيان ابنه، فلما رأى سليمان ما نزل بأعوانه من عقاب شديد خاف على نفسه وهرب إلى دمشق وطلب من صاحبها طغتكين حق اللجوء، ولما تم لايلغازى القضاء على الفتنة بحلب استناب بها ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار بن أرتق، وعقد هدنة جديدة مع الصليبيين لمدة سنة كاملة، وكان هدف ايلغازى من عقد تلك الهدنة مع الصليبيين هو كسب الوقت حتى يتمكن من العودة إلى

---

(1) زبدة الحلب (2/ 199) الجهاد ضد الصليبيين ص 157.

(2) زبدة الحلب (2/ 199-205) الجهاد ضد الصليبيين ص 157.

(3) المصدر نفسه.

ديار بكر وحشد ما يمكن حشده من قوات ليعيد الكرة على الصليبيين، إضافة إلى خوفه من قيام الصليبيين بغارة على حلب فلا يستطيع ابن أخيه صدهم[1]، وفي ماردين استطاع نجم الدين ايلغازى أن يحشد أكبر عدد من التركمان ثم سار بهم إلى بلاد الشام في شهر ربيع الآخر سنة 516هـ/1122م، مستغلاً في ذلك الشقاق الذى حصل بين بلدوين ملك بيت المقدس وبونز صاحب طرابلس، ولكن نجم الدين ايلغازى لم يستطيع أن يحقق نصراً حاسماً على الصليبيين، وبالرغم من انضمام بلك بن بهرام بن أرتق وظهير الدين طغتكين إلى جانبه غير أنه لم يمكن الصليبيين بأن يمدوا نفوذهم وسيطرتهم على حلب[2].

* **وفاة ايلغازى وأثر ذلك على المسلمين:** في شهر رمضان من سنة 516هـ/1122م أحس ايلغازى بتدهور صحته فعاد إلى ميا فارقين حيث وافته منيته هناك، وبقدر ما كانت وفاة نجم الدين ايلغازى خسارة فادحة للمسلمين في بلاد الشام والجزيرة عامة فإن المصيبة كانت أعظم على أهل حلب الذين عظمت عليهم وفاته، لأن نجم الدين ايلغازى كان قد قطع أمل زعماء الصليبيين في الاستيلاء عليها، ولم تقف أهمية وفاة نجم الدين إيلغازى إلى هذا الحد، بل أدت إلى أن إمارته قد تفككت وقسمت بين أولاده حسام الدين تمرتاش الذى حصل على ماردين، وابنه سليمان الذى حصل على ميا فارقين، بينما بقيت حلب من نصيب ابن أخيه سليمان بن عبدالجبار بن أرتق، واحتفظ بلك بن بهرام بن ارتق بقلعة خرتبرت وضم إليها حران فيما بعد[3]، ويضاف إلى ذلك أن حلب التى كانت تعتمد على عساكر التركمان الذين كان يحشدهم ايلغازى من شمال الجزيرة قد افتقرت هذا العنصر البشرى الذى رجح كفة المسلمين على الصليبيين في عهد إيلغازى مما جعلها عرضة لغارات الصليبيين، وضعف مركز

---

(1) الإمارات الأرتقية ص 60.

(2) زبدة الحلب (2/205) الجهاد ضد الصليبيين ص 158.

(3) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (1/480 - 481) للعريني.

صاحبها سليمان عبدالجبار بن أرتق عن دفع الصليبيين الذين استغلوا وفاة نجم الدين وأغاروا بقيادة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس على بزاعة وبالس على نهر الفرات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استطاع الملك الصليبى الاستيلاء على قلعة البيرة، حتى أصبحت حلب محاطة بالصليبيين من جميع الجهات، مما حتم على سليمان بن عبدالجبار أن يعقد مع الصليبيين صلحاً سنة 517هـ/1123م تنازل بموجبه لهم عن حصن الأثارب[1].

7- **بلك بن بهرام بن أرتق**: بلك بن بهرام صاحب قلعة (خرتبرت) استلم راية الجهاد بعد عمه "إيليغازى - صاحب ماردين" كان خصماً عنيداً للصليبيين وكان يتطلع للقضاء عليهم لا فى منطقة الجزيرة فقط بل وفى بلاد الشام، وقد استهل أعماله العسكرية أثناء مرض عمه نجم الدين إيلغازى فى رجب سنة 516هـ/1122م بحصار الرها، ولكنه لم يستطيع النيل منها بعد فترة طويلة من الحصار، مما اضطره إلى الانسحاب عنها، لذا رأى الصليبيون الذين بالرها أنه لابد من الاستعانة بجوسلين صاحب الأطماع الكثيرة وخصم المسلمين العنيد، الذى كان وقتذ ك مع بلدوين ملك بيت المقدس بالبيرة مستغلين فى ذلك تفرق عساكر بلك بن بهرام بن ارتق عقب عودته من الرها، إلا أن بلك بن بهرام استطاع أن ينصب لجوسلين ومن معه من الصليبيين كميناً عند سروج بأرض موحلة ومشبعة بمياه الأمطار فلم تتمكن خيولهم من الإسراع بسبب هذا الوحل، فى الوقت الذى سلط عليهم بلك ورجاله الذين لا يتجاوز عددهم أربعمائة فارس وابلاً من السهام فلم يفلت منهم إلا القليل، وأسر جوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة فى سنة 516هـ/1122م. وقد ترتب على هذا الانتصار الذى حققه بلك بن بهرام على الصليبيين ضياع قوة الصليبيين المعنوية فى بلاد الشام وازدياد حماسة المسلمين وتطلعهم إلى الوثوب على الصليبيين من كل ناحية[2]. وحاول بلك بن بهرام بن أرتق أن يحصل من جوسلين ومن معه من الصليبيين الذين وقعوا فى الأسر على

---

(1) الكامل فى التاريخ (8/632).

(2) نور الدين محمود والصليبيون حسن حبشى ص 20.

تتنازل منهم على الرها، مقابل إطلاق سراحهم ولكنهم رفضوا قائلين: نحن والبلاد كالجمال، متى عقر جمل حول رحله إلى آخر والذى بأيدينا قد صار بيد غيرنا[1] عندها حمل بلك بن بهرام أسراه إلى قلعة خرتبرت ووكل بهم من يحرسهم وتوجه سنة 517هـ/1123م إلى حصن كركر التابع لإمارة الرها بقصد الاستيلاء عليه[2]، وأدرك بلدوين ملك بيت المقدس الذى أصبح وصياً على الرها مضافاً إلى وصايته على إنطاكية أن من واجبه التحرك لتخليص جوسلين من الأسر ومنع كركر من السقوط بيد بلك بن بهرام وإفهام المسلمين بأن قوة الصليبيين لا زالت قوية باطشة. وخرج بلدوين على رأس جيشه حتى وصل عند الضفة الشرقية لنهر سنجه أحد روافد الفرات تجاه معسكر بلك بن بهرام الذى كان قد رفع الحصار عن كركر وعاد لمواجهة بلدوين الثانى ملك بيت المقدس، ودار القتال بين الطرفين فى التاسع عشر من شهر صفر سنة 517هـ/1123م، انهزم الصليبيون بالرغم من قلة قوات المسلمين، ولم تقف أهمية الوقعة عند حد انتصار بلك بن بهرام بل تعدته إلى أن بلدوين ملك بيت المقدس قد وقع فى أسر بلك فى بن بهرام بالإضافة إلى استيلائه على حصن كركر، وحمل بلك أسيره الجديد إلى خرتبرت وضمه إلى جوسلين ومن معه من زعماء الصليبيين وفرسانهم[3]. وهكذا خلت إمارات الصليبيين، الرها، وإنطاكية، ومملكة بيت المقدس من زعمائها الذابين عنها، مما أدى إلى اضطراب وضع الصليبيين فى الجزيرة وبلاد الشام ولكن القوى الإسلامية فى بلاد الشام لم تستطع وقتذاك أن تهتبل هذه الفرصة والانقضاض على إماراتهم والقضاء على شأفة الصليبيين[4].

* **محاصرة الصليبيين لحلب**: أما بلك بن بهرام بن أرتق فإنه بعد أن جمع أسراه فى قلعة خرتبرت توجه إلى حران للاستيلاء عليها فى ربيع الأول من سنة 517هـ/1123م، بهدف التقوى بها، فتم له ذلك وكان بلك بن بهرام يطمع فى

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى ص 160.

(2) زبدة الحلب (2/206) الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى ص 160.

(3) نور الدين محمود والصليبيون ص 20.

(4) الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى ص 160.

الاستيلاء على حلب من سليمان بن عبدالجبار عقب استيلائه على حران لأنه كان يدرك أهمية حلب الاستراتيجية، وأنه لن يحقق أية نتيجة حاسمة على الصليبيين ما لم يضم حلب إلى إمارته كي تكون له قاعدة في بلاد الشام، يستطيع من خلالها التحرك في ميدان فسيح، وليتفرغ لقتال الصليبيين[1]، لذلك فرض بلك بن بهرام على حلب الحصار حتى اضطر من بها إلى تسليمها إليه في صباح يوم الثلاثاء غرة جمادى الأولى سنة 517هـ/ 1123م[2]. إلا أن بلك بن بهرام لم يستطع المضى قدماً فى جهاد الصليبيين بالشام حيث وصله نبأ تمكن جوسلين من الفرار من الأسر بمعونة جماعة من الأرمن الذين كان بلك بن بهرام قد أحسن إليهم بخرتبرت، فعاد على وجه السرعة إلى خرتبرت فى رجب من نفس السنة 517هـ/ 1123م واستطاع إعادة الأمن بها ونقل الأسرى المتبقين فيها إلى حران بعد معاقبة الأرمن الذين كانوا بها[3]. وأما جوسلين صاحب الرها الذى هرب من الأسر فقد استطاع تكوين جيش من صليبيى بيت المقدس وإنطاكية، واتجه به صوب حلب وضيق على من بها من المسلمين، ولم يكتف بهذا، بل اقعد على نبش قبور الموتى من المسلمين فى البلاد المحيطة بها وظل محاصراً لها حتى شهر رمضان من السنة نفسها 517هـ/ 1123م ولما لم يستطع النيل منها عاد إلى تل باشر، على أن حلب لم تسلم من حصار الصليبيين بعد عودة جوسلين إلى تل باشر، بل تعرضت لحصار آخر من صليبيى أنطاكية، أدى إلى قطع الصلة بينها وبين غيرها من البلاد الإسلامية فى الشام، تلك البلاد التى كانت تزودها بالمؤن[4]، وجد بلك بن بهرام بن أرتق أنه لابد من الاستعانة بآقسقر البرسقى صاحب الموصل وبظهير الدين طغتكين صاحب دمشق لرفع الظلم عن أهل حلب ولإنزال ضربة بالصليبيين يستطيع بعدها بلك بن بهرام العودة إلى حلب وإقرار الأوضاع بها، فوصل إليه سنة

(1) الإمارات الأرتقية ص 268.

(2) الكامل فى التاريخ (8/ 632، 633).

(3) الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق الإسلامى ص 161.

(4) المصدر نفسه ص 161.

517هـ/1123م كل من صاحب الموصل آقسنقر البرسقي وصاحب دمشق طغتكين على رأس قواتهما يعبر بهم الفرات ونزلوا على عزاز، ولكن الصليبيين الذين كانوا قد تجمعوا بها تمكنوا من طرد المسلمين، فعاد كل منهم إلى بلده، ودخل بلك بن بهرام حلب في سنة 518هـ/1124م وتخلص من بعض المناوئين له وقضى على فوضى قطاع الطرق، وتزوج بإحدى بنات رضوان بن تتشى لتويثق صلته بالسلاجقة، واتخذ من حلب عاصمة له من بلاد الشام، وقاعدة انطلاق لتوجيه الضربات ضد الصليبيين ولم يكتف بهذا بل نقل إليها أسراه من حران واعتقلهم في قلعة حلب ويبدو أن ما قام به بلك بن بهرام من نقل أسراه إلى حلب إنما كان من أجل الاطمئنان عليهم من أية محاولة لانقاذهم أثناء بعده عنهم، والدليل على ذلك أنه حين جهز فرقة عسكرية في صفر من سنة 518هـ/1124م لقتال الصليبيين بعزاز، لم يخرج معهم خوفاً من أن يغدر به بعض سكان حلب المعارضين له ويطلقوا سراح أسراه[1].

* **مقتل بلك بن بهرام:** لم يمهل الأجل بلك بن بهرام وبينما كان يحاصر الفرنجة عند قلعة منيح وافته المنية بسهم طائش أصابه فقتله لا يدرى من رماه، واضطرب عسكره، وتفرقوا، وبمقتله فقد المسلمون فيه رجلاً عظيماً أثبتت أعماله أنه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين في الشام والجزيرة ضد الصليبيين، ويمكن القول إنه بمقتل بلك بن بهرام سنة 518هـ/1124م انتهت مرحلة قيادة الأراتقه لحركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، على الرغم من أن حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي قد استطاع الاستيلاء على حلب عقب مقتل بلك بن بهرام إلا أن حلب لم تتمتع في أيامه بأوضاع مستقرة، بل فسدت أحوالها وضعف أمر المسلمين بها، حيث ألهاه الصبي واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ولم يقف حسام الدين عند هذا الحد من الخمول وعدم المبالاة بجهاد الصليبيين، بل قبل وساطة أبي العساكر سلطان بن منقذ

(1) زبدة الحلب (2/216 – 217) الجهاد ضد الصليبيين ص 164.

صاحب شيزر في إطلاق سراح بلدوين ملك بيت المقدس، الذي كان في أسر بلك بن بهرام[1]، الأمر الذي أدى إلى ازدياد حماس الصليبيين في النيل من المسلمين، وهذا بالطبع كان له أثر كبير في تصدي الصليبيين بصلابة لحركة بعث فكرة الجهاد الإسلامي في المرحلة التالية التي قادها كل من آقسنقر البرسقي صاحب الموصل وظهير الدين صاحب دمشق[2].

8- جهاد أمير الموصل آق سُنقُر البرسقي لإنقاذ حلب:

أ- **حلب تتصدى للصليبيين**: تعرضت حلب لضغط الصليبيين وهجماتهم مراراً عديدة بدأت مع فجر الغزو الصليبي لبلاد الجزيرة والشام وكان أبرزها وأخطرها ولا ريب حصار عام 518هـ وقد أدرك هؤلاء الغزاة الأهمية البالغة لهذه المدينة وما كانت تتمتع به من مركز استراتيجي حيوى من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، فهي تقع في مركز وسط حصين بين إمارتين صليبيتين، هما: الرها شرقاً في الجزيرة الفراتية، وإنطاكية غرباً على البحر المتوسط في نفس الوقت الذي يمكنها الاتصال بالقوى الإسلامية التركمانية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي الشام مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين، وفي المقابل فإن إسقاط حلب وضمها إلى الكيان الصليبي سوف يؤمن المواصلات بين الرها وإنطاكية، ويعجل إقامة وحدة سياسية وعسكرية بينهما، كانت ستلعب ولا شك دوراً خطيراً لصالح الغزاة[3] وإذ أدرك الحلبيون عدم جدوى بقاء حلب على هذه الأوضاع القلقة، وضرورة تسليمها لأمير قوى، لذلك أرسلوا إلى إيلغازي الأرتقي حاكم ديار بكر يطلبون منه القدوم لتسليمها إياه، فتقدم هذا إلى حلب عام 511هـ وتولّى مقاليد الأمور فيها، وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها، ولكن انشغال الرجل بأمور ولايته في ديار بكر كان يضطره في كثير من الأحيان إلى

---

(1) الجهاد ضد الصليبيين ص 162، 163.

(2) المصدر نفسه ص 163.

(3) دراسات تاريخية ص 12، 13.

الغياب عن حلب وإدارة ظهره لمشاكلها، وكان الصليبيون يستغلون ذلك ويشددون هجماتهم على حلب والمناطق المحيطة بها، حتى إذا توفي الرجل في رمضان عام 516هـ سعى الصليبيون لاستغلال الفرصة وانقسام إمارته بين أبنائه وانعزال حلب عن القوى المقاتلة في ديار بكر لتحقيق انتصارات سريعة في شمال الشام، ولكن ظهور ابن أخيه بلك بن بهرام وتوليه قيادة حركة الجهاد ضد الغزاة؛ قطع الطريق على هؤلاء، وأنقذ حلب من خطر محقق، غير أن مقتل بلك بعد سنتين من توليه الحكم وانتقال إمارته إلى ابن عمه حسام الدين تمرتاش الذى تميز بالضعف والانهزامية، فتح الطريق ثانية أمام الصليبيين لكي يشددوا النكير على حلب ويحققوا حلمهم بالسيطرة عليها، ويصف المؤرخ ابن العديم كيف تدهورت الأوضاع في حلب إثر تولي تمرتاش الحكم، ويقول : فأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب، ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال وضعف أمر المسلمين بذلك[1]. وقد بدأ تمرتاش ولايته بإطلاق سراح بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذى كان بلك قد أسره في إحدى معاركه ضد الغزاة، وذلك لقاء مبلغ تافه من المال، وقد أطلقه تمرتاش من معتقله وأحضره إلى مجلس؛ فأكلا وتشاربا وخلع عليه تمرتاش قباءً ملكياً، وأعيد إليه الحصان الذى كان قد أخذه منه بلك يوم أسره[2]. ولم يلبث تمرتاش – بعدها – أن انسحب إلى ولايته في ديار بكر لكي يتبع سياسة انعزالية فلا يرمي بسهم ضد الغزاة وبهذا أتيحت لهؤلاء الفرصة – كرة أخرى – لتضييق الخناق على حلب والسعي لتحقيق هدفهم الذى عجزوا عنه في السنين السابقة، وهكذا شهدت حلب في عام 518هـ حصاراً من أخطر ما تعرضت له في تاريخ الحروب الصليبية الطويل[3].

ب– خيانة دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة: بدأت المحاولة لإسقاط حلب بخيانة تقدم بها أحد الأمراء العرب : دبيس بن صدقة المزيدي أمير الحلة الواقعة

---

(1) زبدة حلب (2/220).

(2) الاعتبار ص 103 ، 120، 121.

(3) دراسات تاريخية د. عماد الدين خليل ص 14.

جنوبي بغداد، والهارب من وجه الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بسبب استفزازه المستمر لهما وتآمره عليهما، قال للصليبيين بأن له أنصاراً في حلب، وأنهم متى رأوه على رؤوس المهاجمين سلموا إليه البلد ومما قاله للصليبيين: إن أهلها شيعة وهم يميلون إليّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليّ، وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرة[1] ووعد بلدوين أمير إنطاكية وجوسلين أمير الرها بأنه سيقدم لهما الكثير لقاء مساعدتهما له، وقال لهما: إنني أكون في حلب نائباً عنكم مطيعاً لكم[2]. وتمكن – أخيراً – من التوصل مع الصليبيين إلى اتفاق تكون حلب بموجبه له، أما الأموال فتكون لهم، فضلاً عن بعض المواقع القريبة من حلب[3]، وتقدم بلدوين على رأس قواته ونزل على نهر قويق قريباً من حلب، وأفسد المناطق الزراعية المحيطة به، ثم رحل إلى حلب فنزل عليها في أواخر شعبان 518هـ، وتقدم جوسلين أمير الرها بصحبة دبيس بن صدقة[4] – وكان دبيس شيعياً كآبائه –[5] صوب ناحية أخرى من أعمال حلب، وقاما بتدمير مزروعاتها، وقدرت الخسائر بما يقرب من مئة ألف دينار، ومن ثم رحلا ونزل مع بلدوين على حلب، واجتمع بهم هناك (خونة) آخرون من أجل تطمين مصالحهم واقتسام الغنائم في حالة سقوط حلب : سلطان شاه بن رضوان السلجوقي، عيسى بن سالم بن مالك العقيلي، ياغي سيان بن عبدالجبار الأرتقي .. وفرضوا جميعاً الحصار على حلب من شتى جهاتها[6]. ووطّنوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر[7]، فضلاً عن ثلاثمائة من الخيام، بينما لم يكن في حلب يومها سوى خمسمائة فارس[8].

(1) الكامل في التاريخ (8 / 642).
(2) ذيل تاريخ دمشق ص 212.
(3) الاعتبار ص 103، زبدة حلب (2/ 222 – 223).
(4) دراسات تاريخية د. عماد الدين خليل ص 15.
(5) سير أعلام النبلاء (19 / 613).
(6) زبدة حلب (2 225 – 226)
(7) الكامل في التاريخ (8 / 642).
(8) زبدة حلب (2 / 224 – 225) دراسات تاريخية ص 15.

جـ- أعمال استفزازية صليبية ضد أهالي حلب: بدأ الغزاة بشن هجماتهم الدورية على حلب، وقطعوا أشجارها، وأفسدوا بساتينها وزروعها في محاولة لتدمير اقتصادياتها التي تعتمد على الزراعة بالدرجة الأولى، كما قاموا بتخريب مشاهد المسلمين ونبشوا قبور موتاهم، وسلبوا أكفانهم، وجعلوا من توابيتهم أوعية يتناولون بها طعامهم، وعمدوا إلى من لم تتقطع أوصاله منهم فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم أمام أنظار المسلمين المحاصرين في حلب، وجعلوا يصيحون: هذا نبيكم محمد!! وأخذت جماعة منهم مصحفاً من المشاهد المحيطة بحلب وصاحوا: يا مسلمين أبصروا كتابكم !! ثم ثقبه أحدهم بيده ثم شده بخيطين وربطه بأسفل برذون قريب فراح هذا يروث عليه .. وكلما أبصر صاحبه الروث يتساقط على المصحف الشريف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً[1].

د- المقاومة الحلبية الشعبية: لم يكتف الصليبيون بهذا بل راحوا يمثلون بكل من يقع بأيديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى مجاراتهم بالمثل، وكان يقود المقاومة الإسلامية القاضي أبو الفضل بن الخشاب الذي كان قد تمرس على أعمال الدفاع منذ بداية العقد، وكان يملك شعبية واسعة في حلب فأصدر أوامره بتوجيه ضربات مباشرة في قلب معسكرات الغزاة فكانت جماعة من مقاتلي حلب تخرج سراً لتغير على هذه المعسكرات، فتقتل وتأسر وتقفل عائدة من حيث أتت ... وفي الوقت نفسه كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل إلى اتفاق ولكن دون جدوى[2].

هـ- استنجاد أهالي حلب بأمير ديار بكر: ضاق الأمر بالمسلمين في حلب واعتصرهم الإرهاق والجوع، فاتفق أميرهم بدر الدين الأرتقي وجماعة من كبار المسؤولين على إرسال وفد من زعماء حلب إلى ديار بكر للاستنجاد بأميرها حسام الدين تمرتاش وتسلل أعضاء الوفد الثلاثة ليلاً ومضوا إلى ماردين - قاعدة ديار بكر - ليستغيثوا بأميرها علّه يولي اهتماماً لما تعانيه حلب من ويلات وعندما وصلوا

(1) دراسات تاريخية ص 15.

(2) المصدر نفسه ص 16، ذيل تاريخ دمشق ص 212.

إلى هناك كان حسام الدين منهمكاً في الاستيلاء على بلاد أخيه سليمان الذي كان توفي في تلك السنة، الأمر الذي دفعه إلى إهمال شؤون حلب وعدم الاستجابة لمطالب وفدها، وقد بقي أعضاء هذا الوفد فترة من الوقت في ماردين يحثون حسام الدين على التوجه إلى حلب لإنقاذها من الحصار، وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه، والحلبيون يكفونه أمر الغزاة[1] إلا أن مساعيهم فشلت وفي نهاية المطاف تمكن الوفد الخلاص من مراقبة حسام الدين التي فرضها عليهم حتى لا يغادروا ماردين للاستنجاد بأمير آخر، خوفاً من ازدياد ضعف مركزه وفقدانه مدينة حلب، واستطاع الوفد الاتصال بوالي الموصل السلجوقي آق سنقر البرسقي[2].

و- **آق سنقر البرسقي واستجابته لاستغاثة أهل حلب**: كان البرسقي حينذاك مريضاً، وكان الضعف قد بلغ منه مبلغاً عظيماً، فمنع الناس من الدخول عليه إلاّ الأطباء ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك، فأعلن البشائر في عسكره وارتفع عنده التكبير والتهليل، ونادى بعض أصحابه أهل حلب: قد مات من أملتم نصره؛ فكادت أنفس الحلبيين تزهق[3]، وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذن البرسقي لهم، فدخلوا عليه واستغاثوا به وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب ومدى الصعوبات التي يعانيها أهل المدينة، فأجابهم الرجل: إنكم ترون ما أنا الآن فيه من المرض، ولكني قد جعلت لله عليَّ نذراً لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم والذبّ عن بلدكم وقتال أعدائكم. ولم تمض ثلاثة أيام على مقابلته تلك حتى فارقته الحمى، وتماثل للشفاء، وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل، ونادى قواته لأن تتأهب لقتال الصليبيين وإنقاذ حلب، وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد فغادر الموصل متجهاً إلى الرحبة، وأرسل من هناك إلى طغتكين أمير دمشق وخير خان أمير حمص يطلب منهما مساعدته

(1) دراسات تاريخية ص 16.

(2) زبدة حلب (2/227) دراسات تاريخية ص 17.

(3) دراسات تاريخية ص 17.

في إنجاز مهمته، فلبى هذان الأميران دعوته وبعثا عساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب وأرسل من هناك إلى مسؤوليها وشرط عليهم – مسبقاً – تسليم قلعة حلب لنوابه لكي يحتمي بها في حالة انهزامه أمام الصليبيين فأجابوه إلى طلبه، وما أن استتب الأمر لهؤلاء النواب واطمأن الرجل إلى وجود حماية أمينة في حالة تراجعه، حتى بدأ زحفه صوب مواقع القوات الصليبية التي تطوق حلب[1]. وصلت قوات طلائع البرسقي حلب يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة من سنة 518هـ وما أن اقترب البرسقي بقواته المنظمة حتى أسرع الصليبيون في التحول إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جوشن على الطريق إلى إنطاكية، وهكذا غدوا في حالة الدفاع بعد أن كانوا مهاجمين، وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنالوا منها ما أرادوا، بينما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي والاحتفاء به لدى وصوله، وقد أدرك الرجل ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم واتخاذهم موقفاً دفاعياً، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل أن يعيد تنظيم قواته من جديد، خوفاً من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط، وأرسل طلائعه الكشفية لرد القوات المتقدمة إلى معسكراتها في حلب وقال موضحاً خطته هذه : ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويهلك المسلمون؟ ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل إلى البلد ونقويه وننظر إلى مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله، ثم نخرج بعد ذلك إليهم. ومن ثم دخل البرسقي حلب، وبدأ بحل مشاكلها ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل وأصدر مرسوماً برفع المكوس والمظالم المالية وإلغاء الصادرات وعمَّت عدالته الحلبيين جميعاً بعد ما منوا به من الظلم والمصادرات وتحكم المتسلطين طيلة فترة الحصار الصليبي[2]، ولم يكتف البرسقي بذلك، بل قام بنشاط واسع لجلب المؤن والغلال إلى المدينة كي يخفف من حدة الغلاء، ويقضي على الضائقة التي يعانيها الحلبيون، وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب أن عاد إلى حالته

---

(1) نهر الذهب للغزي (3/86 – 87) دراسات تاريخية ص 18 .

(2) زبدة حلب (2/ 229 – 230) دراسات تاريخية ص 19 .

الطبيعية، حيث استأنف المزارعون العمل في الأراضي التي شُردوا عنها، كما عاد النشاط التجاري إلى سابق عهده اعتماداً على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار[1]، وهكذا استطاع البرسقي أن يحكم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلص هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية ويوحده مع الوصول لأول مرة منذ بدء هذه الحروب، الأمر الذي أتاح لهذا القائد ولعماد الدين زنكي من بعده أن يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الغزاة[2] يقول المؤرخ الإنكليزي المعاصر ستيفن رنسمان: ... سرعان ما غدت الإمارة التي شكلها البرسقي نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة إسلامية متحدة زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ولم يكن الصليبيون الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك سوى بلاد تنازعتها في الشام قوى عديدة وإقطاعات متفرقة زادت من ضعفها، وما حدث - إذن - من توحيد حلب مع الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الإسلامية التي قدر لها أن تقضي في يوم من الأيام على قوة الصليبيين في الشام[3]. ونلاحظ حرص عامّة المسلمين على الاندماج في كيان إسلامي سني بغض النظر عن القيادة سواء كانت تركية أو عربية أو غيرها وإنما المهم من يقوم بواجب الدفاع عن الإسلام والمسلمين تحت راية أهل السنة.

ز- **مقتل البرسقي**: في سنة 520هـ ثامن ذي القعدة، قتل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي صاحب الموصل، بمدينة الموصل قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع وكان يصلي الجمعة مع العامة، وكان قد رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به، فقتل بعضها، ونال منه الباقي ما آذاه فقص رؤياه على أصحابه، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام فقال: لا أترك الجمعة لشيء أبداً، فغلبوا على رأيه، ومنعوه من قصد الجمعة، فعزم على ذلك، فأخذ المصحف يقرأ فيه، فأول ما قرأ ﴿... وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ (الأحزاب)، فركب إلى

---

(1) دراسات تاريخية ص 19.

(2) المصدر نفسه ص 20.

(3) الشرق الأوسط والحروب الصليبية (1/345، 485 - 486).

الجامع على عادته، وكان يصلي في الصف الأول، فوثب عليه بضعة عشر نفساً عدة الكلاب التي رآها، فجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً[1].

ح- **الباطنية من أخطر معوقات حركة الجهاد** : أثبت الباطنية عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين وهكذا أثبتت وقائع التاريخ كيف التقى قادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر في بعض الأحيان - في الشهادة - فمن قبل اغتيل شرف الدين مودود، والآن نجد آق سنقر البرسقي يلقى نفس المصير، وقد عكس ذلك كله : أن مسلك الإسماعيلة النزارية في ذلك الحين كان من أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة نظراً لوجود عدوين في وقت واحد أمام القيادات السنية على نحو عكس المشاق البالغة التي واجهت أولئك القادة[2] في الدفاع عن عقيدة الأمة ودينها وأعراضها وأوطانها.

هذا وإن كان أقسنقر البرسقي قد استشهد فإن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله، ففي ربيع الآخر من عام 521هـ/1127م عهد السلطان محمود إمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين[3]، وقد بدأ عماد الدين بتكوين جبهة إسلامية متحدة ضد الصليبيين فسيطر على القلاع القريبة منه مثل جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وبلاد الخابور وحران، ثم اتجه

---

(1) الكامل في التاريخ (8/.).

(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 161.

(3) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية ص 48.

تفكيره بعد ذلك للاستيلاء على حلب، أكبر المراكز الإسلامية بشمال الشام، وواتته الفرصة عندما علم باضطراب الأحوال بها وتهديد كل من جوسلين الثانى صاحب الرها وبوهيمند الثانى صاحب أنطاكية لها، فسارع عماد الدين زنكى إليها فلقيه أهلها بالبشر ودخل البلد في يوم الاثنين 13 جمادى الآخرة سنة 522هـ/ يونيو 1128م[1]، واستولى عليه ورتب أموره وأقطع أعماله الجنود والأمراء، ويؤكد ابن الأثير على أهمية هذا الفتح بقوله: ولولا أن الله تعلى مَن على المسلمين بولاية الشهيد لكان الفرنج استولوا على جميعه[2].

خامساً: أهم أعمال عماد الدين زنكى فتح الرها:

استطاع عماد الدين زنكى أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه، مكانة خاصة في التاريخ الإسلامى، كسياسى بارع وعسكرى متمكن ومسلم واع أدرك الخطر الذى أحاط بالعالم الإسلامى من قِبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة فى نطاق دولة واحدة استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات فى سبيل تحقيق برنامجه المزدوج فى تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين. وقد فصلت ذلك فى حديثى عن عماد الدين زنكى فى كتابى عن الدولة الزنكية. ويعتبر فتح الرها من أهم إنجازات عماد الدين زنكى، فقد كانت إمارة الرها الصليبية أولى الإمارات التى تأسست فى الشرق سنة 491هـ/ 1097م بزعامة بلدوين الأول الذى استمر فى حكم هذه الإمارة حتى سنة 494هـ/ 1100م حين انتقل إلى حكم بيت المقدس عقب وفاة جورفرى ملك بيت المقدس[3]. وقد تميزت الرها عن بقية الإمارات الصليبية بموقعها فى الحوض الأوسط لنهر الفرات حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الصليبية فى بلاد الشام،

---

(1) الكامل فى التاريخ (8/ 663).

(2) الكامل فى التاريخ (8/ 664).

(3) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الجهاد ضد الصليبيين فى الشرق ص 230.

وذلك لقربها من الخلافة العباسية ثم لوقوفها فى وجه التركمان الذين كانت تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذى أصاب السلاجقة فى بلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه 485هـ/1092م[1]، ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الاستراتيجى وكونها خط الدفاع الأول عن بقية الإمارات الصليبية فى بلاد الشام بل إنها شكلت خطراً أساسياً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة[2] وعلى الرغم من أن الرها لم تقع فى نطاق الأراضى المقدسة فى فلسطين فقد عدها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية، ثم إن وفرة ثرواتها ساعدت أمراء الرها على توسيع رقعتهم فامتدت إمارة الرها الواقعة على ضفتى نهر الفرات من راوندان وعين ثاب غرباً إلى مشارق ومن بهنسى وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً[3].

واكتسبت الرها أهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوة والشجاعة واستطاعت الصمود فى وجه المقاومة الإسلامية، على الرغم أن الرها كانت تعانى من نقطتى ضعف واضحتين إحداهما الحدود الطبيعية إذ لا توجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة وثانيها عدم وجود تجانس بين سكانها إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين " السريان والأرمن اليعاقبة " ومن الصليبيين الغربيين فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا فى مدن بكاملها كسروج والبيرة التى خضعت للصليبيين[4]، ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبى، بل كانت فى نظر المسلمين من أهم المواقع التى يجب السيطرة عليها، فقد ذكر ابن الأثير مكانتها فى بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب، ووصفها بأنها من الديار الجزرية عينها ومن البلاد الإسلامية حصنها مما جعل القوى الإسلامية سواء فى العراق أو الشام ترغب فى السيطرة عليها[5].

---

(1) سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسين ص 84.

(2) إمارة الرها، علية الجنزوى ص 34.

(3) الحركة الصليبية (1/ 424)، الجهاد ضد الصليبيين ص 230.

(4) الجهاد ضد الصليبيين ص 231.

(5) التاريخ الباهر ص 66.

1- **أوضاع إمارة الرها الداخلية**: كانت ظروف الرها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكى، إذ اتصف أميرها جوسلين الثانى بضعف الشخصية وانسياقه وراء العواطف والأهواء وعدم امتلاكه مقدرة سياسية، وبعد نظر، والواقع أن جوسلين الثانى تأثر فى نشأته بالميول الأرمينية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفى نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية الشرقية وفضّلهم على النصارى الغربيين الأمر الذى أثار الفرسان الصليبيين وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة، وعُرف عن صاحب الرها أنه كان من ذلك النوع الذى يؤثر الراحة والعافية، حتى إنه فى الوقت الذى هاجم فيه عماد الدين زنكى إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم فى تل باشر على الضفة الغربية للفرات، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نكون فكرة عامة عن العوامل التى ساعدت على سقوطها. والجدير ذكره أن هذه شكلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية فى بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكى من الأمراء المسلمين فى المنطقة[1]، فكان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية[2] ودينية.

2- **عمليات الفتح**: استغل عماد الدين زنكى الظروف السابق ذكرها وسعى إلى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من أقصر طريق. وكان يعلم أنه لن يستطيع أن ينال غرضه من الرها ما دام جوسلين وقواته موجودين بها، وهكذا انصب اهتمامه على إيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر إمارته، فاتجه إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وأنها هدفه دون غيرها، وبث عيونه - فى الوقت نفسه - فى منطقة الرها ليطلعوه - أولاً بأول - على تحركات أميرها الذى ما أن رأى انهماك زنكى بجيوشه فى ديار بكر وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية،

(1) تاريخ الزنكيين فى الموصل وبلاد الشام ص 149.

(2) المصدر نفسه ص 149.

حتى غادر مقر إمارته على رأس قواته[1]، بعد أن اتخذ إجراء احتياطياً بأن عقد هدنة مع فرار أرسلان صاحب حصن كيفا الذى كان قد التجأ إليه بعد تهديد زنكى لإمارته[2]، ومن ثم اتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات، كى يتخلص هناك، من كل مسؤولية، ويتفرغ لملذاته، تاركاً حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة[3]، جاءت عيون عماد زنكى لتطلعة على النبأ الذى كان يتحرق إليه فأسرع بالتوجه إلى الرها مستعيناً على السرعة بركوب النجائب الإبل مستنفراً كل قادر على حمل السلاح من مسلمى المنطقة للجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله، وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين، فطوق بهم الرها من جهاتها الأربع، وحاول فى البدء أن يتوسل بالطرق السلمية علها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف، فراسل أهالى الرها، باذلاً لهم الأمان، طالباً منهم أن يفتحوا له الأبواب قبل أن يجد نفسه مضطراً إلى تدمير أسوار بلدهم وإخلاء دياره، إلا أنهم أبوا قبول الأمان[4]. وحينئذا اشتد زنكى فى التضييق على الحصن، مستخدماً آلات الحصار الضخمة التى جلبها معه لتدمير أسواره، قبل أن تتاح الفرصة لتجمع الصليبيين والتقدم لإنقاذ هذا الموقع الخطير، وأرسل جوسلين لدى سماعه نبأ الهجوم فى طلب نجدة مستعجلة من كافة الإمارات الصليبية فى الشام، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس، التى وصلت نجدتها بعد فوات الأوان[5]، كما أنه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة، أو إرسال نجدة لتعزيز دفاعها فحيل بينه وبين ذلك. وفى السادس والعشرين من جمادى الآخرة 539هـ وبعد مرور ثمان وعشرين يوماً على بدء الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن، إثر الضرب المركز الشديد الذى تعرضت له، فاجتاحت قوات

(1) الباهر ص 67، عماد الدين زنكى ص 151.

(2) عماد الدين زنكى ص 151.

(3) المصدر نفسه ص 152.

(4) المصدر نفسه ص 152.

(5) الحركة الصليبية (2/605، 606) عاشور، عماد الدين زنكى ص 152.

المسلمين المدينة[1]، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برصوما بإجراءات تسليم الرها لزنكي[2].

3- **سياسة عماد الدين زنكي في الرها:** رأى عماد الدين زنكي، بعد أن فتح الرها، أن ذلك البلد لا يجوز في السياسة تخريب مثله[3] وأصدر أوامره إلى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر والسلب، وإعادة ما استولوا عليه من سبي وغنائم، فأعيدوا ولم يفقد إلا الشاذ النادر، وأعقب ذلك بإصدار أمر آخر بالإسراع في تنظيم ما اضطرب من أمور الرها، وتعمير ما تهدم خلال أسابيع طويلة من القتال ورتّب من رآه أهلاً لتدبير أمرها وحفظها والاجتهاد في مصالحها، ووعد أهلها بجمال السيرة وبسط العدالة[4] مستهدفاً من وراء ذلك استمالة سكانها الأصليين من المسيحيين الشرقيين ضد الصليبيين الكاثوليك، الأمر الذي يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية، واحتفاظه بكنائس الشرقيين[5].

4- **العوامل التي ساعدت عماد الدين على استعادة الرها:** هناك العديد من العوامل التي ساعدت عماد الدين على تحرير الرها منها:

* تنامي حركة الجهاد الإسلامية حتى عصره وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمرة من جانب أتابكة الموصل على نحو خاص طوال ما يزيد على أربعة عقود من الزمان على نحو مثل موتاً بطيئاً لها إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور.

---

(1) ذيل تاريخ دمشق ص 279 - 280) عماد الدين زنكي ص 152.
(2) عماد الدين زنكي ص 153.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 153.
(4) ذيل تاريخ دمشق ص 280، عماد الدين زنكي ص 153.
(5) عماد الدين زنكي ص 153.

* ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين زنكى العسكرية الذى فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجم، فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها ووجه لها ضربته القاضية التى انتهت بإسقاطها، وهكذا أثبت ذلك القائد المسلم الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكرى العظيم.

* زد على ذلك: أن الخلاف الواقع بين إمارتى الرها وأنطاكية أثر بدوره على إمارة الرها، وأدى إلى إجهادها واستهلاكها سياسياً وعسكرياً[1]، على نحو أثبت أن الخلافات التى كانت تحدث بين القيادات الصليبية أثرت بدورها على كياناتهم السياسية ،وها هى – لحسن الحظ – إمارة الرها تدفع الثمن بأن سقطت فى قبضة من استحقها من قادة الجهاد الإسلامى فى ذلك الحين.

* ولا نغفل – من ناحية أخرى – شخصية أمير الرها جوسلين الثانى الذى لم يكن على نفس القدر من الكفاءة السياسية والعسكرية التى اتصف بها والده جوسلين الأول، وكان أميل إلى حياة الخلاعة والمجون والسعى الحثيث إلى الملذات، بل إن كثيراً ما غادر مدينة الرها ذاتها واتجه إلى تل باشر من أجل أن يجد هناك ما يبحث عنه من صور الفساد، ولذلك أدرك فيه المسلمون تلك الزاوية فأحسن قائدهم الإفادة منها وهاجم الرها وقت أن غاب عنها جوسلين الثانى، فأصابها فى مقتل[2].

* ويبدو أن الجيل الصليبى الذى حل بعد الجيل الأول الذى أسس الكيان الصليبى وحافظ عليه، لم يكن قادراً على الحفاظ على ما شيده السابقون بل لم يكن يدرك أهمية دوره التاريخى فى ذلك الموقع الشديد الحساسية الذى أحاطه المسلمون من كل جانب، وهكذا شارك جوسلين الثانى – دون أن يدرى – فى إنجاح حركة الجهاد الإسلامية حينذاك بقيادة قائدها الكبير عماد الدين زنكى[3].

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 162
(2) المصدر نفسه ص 162.
(3) المصدر نفسه ص 163.

* وعلى أية حال: من الممكن أن من المؤرخين الغربيين من حاول إظهار عوامل الضعف الداخلي في إمارة الرها، وجعل تلك العوامل وحدها هي التي أدت إلى إسقاطها، وهدف من وراء ذلك إضعاف فعاليات المسلمين السياسية والحربية، غير أن المنطق التاريخي يدعونا إلى تصور أن العوامل الداخلية والخارجية تعاونت معاً من أجل صنع انتصار عام 539هـ/1144م ومهما كان من شأن عوامل "النحر والانتحار" الداخلية ونتائجها في الرها فإنها ما كانت لتسقط دون الفعاليات العسكرية لقائد موهوب مثل عماد الدين زنكي، وجنوده من خلفه(1).

5- موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها وماذا جرى في صقلية:

* **موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها**: كان للفقيه المؤذن موسى الأرمني المدرس بإحدى مدارس الموصل موقف مشكور في فتح الرها حيث استخدم أسلوب الحرب النفسية في حملة عماد الدين زنكي على الرها عام 539هـ/1145م فقد نزل الفقيه محاصراً ومقاتلاً، فخطرت بذهنه فكرة ذكية أثناء حصار عماد الدين للرها، فقد نزل السوق، واشترى ملابس الأرمن، لكي يدخل بها إلى المدينة حتى لا يعرفه الصليبيون، ويشكون في أمره(2): فقال: فنزلت السوق، واشتريت لباساً من لباس الأرمن، وتزينت في زيهم(3) ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله، فجئت إلى الجامع فدخلت ورأيت المنارة فقلت في نفسي أصعد إلى المنارة، وأؤذن حتى يجرى ما جرى، فصعدت وناديت الله أكبر الله أكبر، وأذنت، والكفار على الأسوار، فوقع الصياح في البلد أن المسلمين قد هاجموا البلد من الجهة الأخرى، فترك الكفار القتال ونزلوا على السور، فصعد المسلمون وهاجموا المدينة(4).

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 163.

(2) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 22.

(3) المصدر نفسه نقلاً عن بغية الطلب في تاريخ حلب.

(4) بغية الطلب في تاريخ حلب (9/ 3851) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 122.

* **ملك جزيرة صقلية**: كان ملك جزيرة صقيلة من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان يُحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذى فتحت فيه الرُّها سير هذا الملك الإفرنج جيشاً فى البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربى، وقد نعس وهو شبيه النائم فأيقظه الملك وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها – أى أتباع رسول الله ﷺ – فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم. واشتد هذا على الملك، فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعلوّ منزله الرّها عند النّصرانية[1].

* **رؤيا للشهيد بعد قتله**: ويحكى أن رجلاً من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله فى المنام فى أحسن حال، فقلت له: ما فعل لله بك؟ فقال: غفر لى. قلت: بماذا ؟ قال: بفتح الرها[2].

* **مؤامرة فاشلة من سكان الرها**: ما لبث سكان الرها من الأرمن أن دبروا – فى العام التالى – مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين وإعادة المدينة إلى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين، إلا أن زنكى سرعان ما تمكن من كشف هذه المحاولة الخطيرة، والقبض على مُدبريها وإعدامهم، ثم أعقب ذلك بنفى عدد من الأرمن كيلا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف، وتسليم أهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين[3].

6– **نتائج فتح الرها**: حقق عماد الدين زنكى بفتح الرها أهم إنجازاته التى قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكانت لهذا النصر نتائج هامة فى العالمين الإسلامى والنصرانى ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

---

(1) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (1 / 141).
(2) المصدر نفسه (1 / 141).
(3) عماد الدين زنكى ص 157 .

أ- تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامية وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحاف بإنجازات القادة السابقين على زنكى - لاسيما مودود - وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية، واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقى الكيان الغازى الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء، وإنجاز.

ب- تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية غير الشرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكرى الدخيل وبالتالى عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبى الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق، وكذلك بلاد فارس[1].

ج- زاد الضغط على النطاق الصليبى الذى اتخذ شكلاً طولياً من أنطاكية فى الشمال إلى إيلات (الرشراش) جنوباً ومن نهر الأردن شرقاً إلى الساحل الشامى - باستثناء عسقلان، إذ أن صور سقطت بالفعل عام 518هـ/ 1124م بما اشتمله من إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، فالمؤكد أن رأس الحربة الصليبية فى الرها سقطت إلى غير رجعة، والآن أصبح ذراعها قائماً فى باقى الكيان الصليبى، ولذلك ازداد الضغط العسكرى عليه من قبل القوى الإسلامية التى سيطرت على الظهير الشامى الموازى للساحل والسهل الساحلى، وكأن المعركة صارت - على المستوى الجغرافى - معركة بين الساحل والظهير، واعتمد الأول على الدعم الخارجى الأوروبى فى الأساس، واعتمد الثانى على إمكاناته المحلية الوافرة التى تزايد شأنها مع ظهور قادة الوحدة بين المسلمين.

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 164، 165.

د- أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق، والرحم الأم في الغرب الأوروبي، فلم يكن ذلك الغرب ليسمح لامتداده السياسي والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعة قطعة، بل لابد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام حملة صليبية 542-544هـ/1147-1149م التي اشتهرت بالحملة الصليبية الثانية، وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامي حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين – عامة – في عهد الحروب الصليبية.

هـ- ومن النتائج العديدة التي نتجت عن ذلك الإنجاز، ارتفاع شأن عماد الدين إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية، تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين، فقد احتل مكانة بارزة[1]، فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء، أمير العراقين والشام[2]. وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودارت في المحافل الإسلامية، أحاديث تمحورت حول شخصه، تصور لنا مدى التقدير، والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير، ومهد هذا الفتح الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة، وفرض سيطرته التامة على أملاك أعدائه في

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق الغرب ص 165.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 156.

المنطقة، وأدى فتح الرها دوراً كبيراً فى إنقاذ إمارة عماد الدين زنكى من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها، فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين[1] وهذا إن شاء الله من عاجل بشرى المؤمن.

7- **رأى المستشرق جون لامونت فى عماد الدين**: يعد المستشرق جون لامونت من أبرز المؤرخين الأمريكيين خلال النصف الأول من القرن الماضى، وتعددت مؤلفاته فى مجال الصليبيات، ولاسيما دراسته الوافية عن الملكية الإقطاعية فى مملكة بيت المقدس، غير أن له دراسة أخرى عنوانها الحرب الصليبية والجهاد ضمن كتاب التراث الإسلامى الذى نشره نبيه فارس، وفى هذه الدراسة؛ اتجه لامونت إلى تفنيده فكرة الجهاد عند المسلمين حينذاك، وتصوير تحرك قادة الجهاد الإسلامى حينذاك على أنه من خلال الدوافع السياسية والاقتصادية، فقد ذكر بأن عماد الدين زنكى لا يعتبر بأى حال من الأحوال بطل الجهاد، فإن عماد الدين وإن كان يطمع فى استرجاع الرها منذ وقت طويل كما يقول كمال الدين بن العديم، لم يقم بهذا العمل بوضوح إلا متأخراً، وإلا بعد حثه على ذلك أمير حران جمال الدين أبو المعالى فضل الله بن ماهان الذى بين له سهولة احتلال المدينة[2]، ويستمر فى تصوره قائلاً: الظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجاً عن سياسته وعملاً قام به بناء على تحريض الآخرين[3] وذكر أيضاً: أن استيلاء زنكى على حماه، وحلب وحروبه ضد الأرتقيين أعظم أهمية عنده من حرب النصارى، وما كان ليكره التحالف مع اللاتين إذا رأى فى ذلك مصلحته[4]. ومن الممكن تفنيد تلك الآراء على النحو التالى:

* كان اتجاه عماد الدين زنكى لمهاجمة الرها متأخراً وذلك أمر لا يقلل البتة من دوره الجهادى خاصة أنه كان يرى أن يستهلك طاقات تلك الإمارة الصليبية فى

---

(1) المصدر نفسه ص156.

(2) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب ص 166.

(3) المصدر نفسه ص 166.

(4) المصدر نفسه ص 166.

صراعاته وحروبه معها ضد حصونها ومعاقلها، ثم يتجه بعد ذلك إلى مهاجمة الإمارة نفسها بعد أن يتمكن من سبر غور دفاعاتها، ومعرفة نقاط الضعف فيها، وكذلك نقاط القوة، ومن ناحية أخرى من الطبيعي تصور أن نصيحة أمير حران لزنكي بإسقاط الرها لم تكن لتغير من الموقف شيئاً إذا لم يكن زنكي قد خطط مسبقاً لذلك، بل أغلب الظن أن سقوط تلك الإمارة من الصعب تصور حدوثه على النحو الذي يصوره لامونت، بل أنها في الأغلب كانت من مخططات الزنكيين منذ أمد بعيد، أما تعليل عدم تبكير زنكي، بالاستيلاء عليها، فذلك مرجعه إلى عدم رغبته في إجهاض قوته الحربية في صدام مبكر مع الصليبيين غير مضمون النتائج خلال مرحلة حكمه المبكرة، ولذا فمن الممكن اعتبار توقيت الاستيلاء على الرها - على نحو ما فصلته المصادر اللاتينية والسريانية، والعربية يعتبر بحق من أبرز دلائل حنكة زنكي السياسية، ويبدو أن ادعاء لامونت بأن إسقاط الرها كان بعيد عن سياسة عماد الدين زنكي هو أكبر الادعاءات التي لا تجد سنداً تاريخياً يدعمها، فمن المعروف أن زنكي كان مشتركاً في جيش مودود، وبنص عبارة ابن الأثير: شهد معه حروبه[1]، ولا ريب في أنه أدرك أهمية إسقاط الرها، بل إن ذلك الحلم ترسب في ذهنه منذ زمن بعيد، والمتصور أنه أراد النجاح فيما أخفق فيه مودود من قبل، وقد اعتقد أن إسقاطها أمر ضروري على اعتبار أنها الهدف الصليبي الأقرب إلى الموصل، كما أن تحقيق مثل ذلك الهدف من شأنه تيسير اتصاله بشمال الشام، وخاصة من خلال رؤيته التوحيدية الثاقبة[2].

* إن افتراض جون لامونت بأن زنكي كان يمكن أن يتحالف مع اللاتين من أجل مصلحته السياسية، افتراض يدعم حنكة عماد الدين زنكي السياسية، فقد لجأ إلى عقد الاتفاقيات مع الصليبيين أحياناً من أجل التقاط الأنفاس، وعدم الوقوع في آتون جبهتين جبهة الشرق بصراعه مع قواه السياسية وجبهة الصراع مع الصليبيين، ثم إنه أراد أن يبعث الطمأنينة في نفوس الأخيرين من خلال مثل تلك

---

(1) الباهر ص 17، الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 167.

(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 167.

الاتفاقات، في حين كان يبطن النية للإجهاز على الرها، ولذا جاءت عمليات الحصار من جانبه نحوها أمراً مفاجئاً لأهلها(1).

* أما القول بأن زنكي لم يكن هدفه الوحيد إسقاط الرها، بل إنه كان يسعى أيضاً إلى بناء دولته على حساب جيرانه سواء المسلمين أو الصليبيين، فينبغي ملاحظة أن كافة القيادات الإسلامية التي ظهرت خلال عصر الحروب الصليبية على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/السادس والسابع الهجريين وساهمت في قضية الجهاد، كان لديها طابع ما من الطموح السياسي وكانت تسعى بالفعل إلى توطيد أركان دولها على حساب القوى السياسية المجاورة لها، غير أن العبرة هنا بأن الطموح السياسي - كما أشرت من قبل - يتم تفجيره في قضية الأمة بأسرها وهي الجهاد، لأن مثل تلك القيادات كان من الممكن أن ترضى العيش في ذلة وانكسار مع الصليبيين ولا تتوسع على حسابهم تجنباً لإثارة المشكلات السياسية معهم ولسقوط القتلى والجرحى بل وتعرض مناطق نفوذها الأصلية لاعتداءات الغزاة، غير أنها رفضت ذلك وقبلت التحدى الصليبي وأظهرت قدرتها على تغيير الجغرافية السياسية للمنطقة من خلال تبنيها لمشاريع الجهاد(2).

* من المهم أن تعرف أنه لا يخفى على دراسي تاريخ العلاقات الإسلامية مع القوى المسيحية في مرحلة الحروب الصليبية، كيف أن قطاعاً من المستشرقين حرص على سلب المسلمين إنجازاتهم، وشككوا في المراحل الناصعة من تاريخهم، كما أن هناك تياراً ملازماً ذلك القطاع منهم لاسيما مع فكرة الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام، ولذلك حرصوا الحرص أجمعه على إنكارها، والتشكيك فيها، والإساءة إلى كافة التجارب الجهادية الماضية للمسلمين حتى لا يتبنوها في الحاضر والمستقبل، وهكذا من الممكن التقرير - بموضوعية ودون اعتساف في الأحكام - أن عصر الحروب الصليبية شهد نقلة نوعية في تطوير فكرة الجهاد في الإسلام، حيث إن الجهاد هذه المرة ضد عدو استقر على الأرض الإسلامية، بعد ضعف

(1) المصدر نفسه ص 167.
(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق الغرب ص 168.

المسلمين من جراء صراعاتهم مع بعضهم البعض، فإذا ما أدركنا أن هويتهم الدينية كانت في خطر أمام مشاريع التنصير التي علقت عليها البابوية آمالاً كباراً، أدركنا كم كانت فكرة الجهاد فكرة محورية في عصر الحروب الصليبية[1]، إن المراجع الغربية حاولت تشويه صورة هذا المجاهد الكبير قديماً وحديثاً، ومن أشهر الكتب المعاصرة، كتاب الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، قالت صاحبة الكتاب كارين أرمسترونغ عن عماد الدين زنكي: لم يكن هذا بأي حال قدوة تحتذى، بل كان سكيراً عربيداً قلما يفيق من سكره، كما كان قاسياً بطاشاً مثل معظم رجال الحرب في عصره[2]، وسيرة الرجل تكذب ما يقولون ووصفه مؤرخونا بالشهيد وهو وسام عالي الرتبة والمقام لا يعطى إلا لمن هو أهل لهذا الوصف الكبير، فقد قالوا في سيرته: من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً للأمور وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف[3]، وكان معظماً للشريعة ومقيماً لحدودها في دولته وقد كلف بذلك القضاة.

إن من أهداف بعض المستشرقين:

- تشويه رموز الجهاد لكي تبقى أجيالنا بدون قدوات تقوي العزائم وتنهض بالهمم.
- إضعاف روح الفداء والتضحية والشهادة والجهاد في الأمة حتى يستطيعوا سوقها كالبهائم.
- محاولة فصل الأمة عن تاريخها بالأكاذيب والتشويه حتى لا ترجع إلى تاريخها الحافل فتستخرج منه الدروس والعبر.
- كانت كتاباتهم تنبثق من روح صليبية حاقدة على الأبطال الذين ساهموا في إفشال المشروع الصليبي لذلك حاول بعض المستشرقين تشويه صورة عماد الدين زنكي.

---

(1) المصدر نفسه ص 168.

(2) الحرب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم ص 245.

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/157).

- إن سيرة عماد الدين ومن حوله من أعوانه المخلصين كالقاضي الشهرزوري تقطع بدون شك بكذب أولئك المستشرقين الذين حاولوا طمس الحقائق وإلصاق التهم الباطلة بذلك الرجل العظيم، فتجربته الجهادية تستحق الدراسة والتحليل العميق مع ربط ما وصلنا إليه من دروس وعبر بواقعنا المعاصر، لكي نستفيد منها في السعي الجاد لنهضة الأمة.

8- مدح الشعراء لعماد الدين عند فتح الرها : إن كثيراً من الباحثين والكتاب لم يهتموا بالأدب في الحروب الصليبية، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الانحطاط، آخذين بأقوال وآراء المستشرقين الذين رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ وأدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها رغبتهم في عدم اطلاعنا على وحشية الصليبيين وقسوتهم، ثم حتى لا نشعر بالعزة والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين عرباً وأكراداً وأتراكاً، يقودون الجيوش وهم يحملون راية الإسلام، مقاتلين ومجاهدين ومنتصرين يترفعون عن القوميات والوطنيات الجاهلية ويجمعهم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة، ثم إلى إعادة تقييم وحينئذ سنجد أن آراءنا قد تغيرت تغيراً إيجابياً؛ لأننا سنجد فيه الكثير مما يستحق الدراسة وسنجد الكثير من الأشعار اللطيفة الرقيقة في الحماسة ووصف المعارك ومديح الأبطال وسنجد الشعر الحزين الباكي في رثائهم[1] وهذه باقة طيبة من الأشعار متعلقة بفتح الرها ومدح عماد الدين زنكي.

فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرها فقال:

بجيش جاش بالفُرسان حتى ... ظننت البر بحراً من سلاح
وألسنة من العذبات حُمْر ... تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليلٌ بهيم ... وغُرَّته عمود للصباح

(1) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين ص 10.

صفـــوح عند قــدرته ولكن قليل الصـفح مـا بين الصـفـاح
فكان ثبــاته للقلب قلبــاً وهيــبتــه جناحــاً للجناح(1)

أ- القيسرني يمدح عماد الدين في فتح الرها: قال الشاعر:

هو الســيف لا يغنيك إلا جــلاده وهل طوق الأمــلاك إلا نجــاده

لقد كان لهذا الفتح رنة فرح في نفوس الناس وبفتح الرها تغيرت نظرة الفرنج إلى قوة المسلمين، وأعادها عماد الدين زنكي إلى ديار الإسلام بعد أن حكمها الفرنج نصف قرن ومما جاء في القصيدة:

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظُّبى سناها وإن فـات العـيـون اتقـاده
سـمت قبـة الإسلام فـخراً بطوله ولم يك يسـمـو الدين لولا عـماده
وذاد قسـيم الدَّولة ابنُ قسـيـمها عن الله مـــالا يُســـتطاعُ ذياده
ليَــهْنِ بي الإيمــان أمنٌ ترفَّـعَتْ رواسـيــه عـزا واطمــأنَّ مـهـاده
وفتحٌ حـديثٌ في السـمـاع حديثه ســهيٌّ إلى يوم المَعَــاد مُــعَـاده
أراح قلوباً طِرْن من وُكُناتـهـــا عليـهـا فـوافي كلَّ صــدر فـؤادُهُ
لقــد كــان في فــتح الرُّها دلالة على غيـر ما عند العلُوجِ اعتقاده
يرجُــون مـيـلاد ابن مـريم نعــرة ولم يُغْنِ عند القــوم عنهم ولاده
مـدينة إفك منذ خـمـسين حِجَّـة يفلُّ حـديد الهند عنهــا حـداده
تفوتُ مدى الأبصـار حتى لو أنها ترقت إليــه خـان طرْفـاً ســواده
وجـامـحـةٌ عـزُّ الملوكَ قيـادُها إلى أن ثناها من يعــزُّ قـيـــاده
فـأوســعـهـا حـرُّ القِـراع مُـؤيَدٌ بصـيــرٌ بتــمـرين الألد لدَاده
كـأنَّ سنا لَمْعِ الأسنَّة حــوله شـــوارٌ ولكـن فـي يديه زناده

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1 / 139).

فأضرمها نارين: حرباً وخدعة | فما راع إلا سورُها وانهدادُهُ
فصدت صُدُودَ البِكْر عند افتضاضها | وهيهات كان السيف حتماً سفاده[1]
فيما ظَفَراً عمّا البلادَ صلاحه | بمن كان قد عمّ البلادَ فساده
فلا مُطْلَقٌ إلا وشُدّ وثاقه | ولا مُوثَقٌ إلا وحُلَّ صفاده
ولا مِنبرٌ إلا ترنح عُوده | ولا مصحف إلا أنار مداده
فإن يشكل الإبرنز فيها حياته | وإلا فقل للنجم كيف سُهادُهُ
وباتت سرايا القمص نقمص دونها | كما يتترى عن حريق جراده
إلى أين يا أسرى الضّلالة بعدها | لقد ذَلَّ غاويكم وعَزَّ رشاده
رُوَيْدكُمُ لا مانع من مُظفَّر | يعاندُ أسباب القضاء عنادُهُ
مُصيبُ سهام الرأى لو أن عَزْمَهُ | رمى سَدَّ ذى القرنين أصمى سَدادُهُ
وقل لملوك الكُفر سُلم بعدها | ممالكها إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصُّبح أيتها الدُّجى | فيا طالماً غال الظلام امتدادُهُ
ومن كان أملاك السّموات جنده | فأية أرض لم ترضها جياده
ولله عزم ماءُ سيحان ورده | وروضة قسطنطينية مستراداه[2]

وله قصيدة هنأ بها القاضى كمال الدين بن الشهرُزُورى أوّلها : هى جنة المأوى فهل من خاطب . يقول فيها:

إن الصّفائح يوم صافحت الرُّها | عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتح الفتوح مبشّراً بتمامه | كالفجر فى صدر النّهار الأيب
لله أية وقفة بدرية | نُصرت صحابتها بأيمن صاحب

---

(1) فى رواية : نفاده.

(2) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (1 / 143) .

ظفـر كـمـال الدين كنت لقـاحـه | كم ناهض بالحـرب غيـر مـحـارب
وأمـدكم جـيشُ الملائك نصـرةً | بكتـائب مـحـفـوفـة بكتـائب
جنبـوا البـور وقـد تم ريح الصـبـا | جندُ النبـوة هل لهـا من غـالب
أترى الرُّها (الورهاء)[1] يوم تمنعت | ظنت وجوب السورِ سـورة لاعب
لا أين يا أسـرى المهـالك بعـدها | ضـاق الفـضـاء على نجـاة الهـارب
شـداً إلى أرض الفـرنجـة بعـدها | إن الدُّروبَ عـلى الطـريق اللاَّحب
أفـغـرَّكم والثَّـأرُ رهنُ دمـائكم | مـا كـان من إطراق لحظ الطَّالب
وإذا رأيت الليث يجـمع نفـسـه | دون الفـريسـة فهـو عـينُ الواثب[2]

ب- ابن منير يمدح عماد الدين فى فتح الرها:

صـفـاتُ مـجـدكَ لفظ جلَّ مـعناه | فـلا اسـتـردَّ الذى أعطاكـه الله
يا صـارمـاً بيـمـين قـائمـةُ | وفى أعـالى أعـادى اللَّه حَـداه
أصـبحـت دون ملوك الأرض منفـرداً | بلا شـبـيـه إذ الأمـلاكُ أشـبـاه
فـداك من حـاولت مـسـعـاك همتُـهُ | جهلاً وقصَّـرَ عن مسعـاك مسعـاه
قل للأعـادى ألا مـوتوا بـه عـمـداً | فـالله خـيـبكم والله أعطاه
مَلْكٌ تنام عن الفـحـشـاء همـتـهُ | تقى وتسـهـر للمـعـروف عـيناه
مـا زال يسْـمُكُ والأيام تخـدمـه | فـيـمـا ابتـلاه وتُدْنى مـا توخّـاه
حتى تعالت عن الشِّعْرى مشاعره | قـدراً وجـاوزت الجـوزاء نعـلاه
وقـد روى النـاس عن فـتـح أُتيـح له | مظـلٌّ أفف الدنيـا جناحـاه

(1) الورها: الخرقاء.

(2) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (1/ 144).

علـى المنـابـر مـن أنبــــائـه، أرج ... مــقطوبة بفــتــيق المسْك رَياه

فـتحٌ أعـاد على الإسـلام بَهجَتـهُ ... فـافـتَّـر مـبـسُـمـه واهتـزّ عطْفَاه

يُهْـدَى بمتـعـصم بالله فـتكتـه ... حَـديثـهـا نَسَخ الماضى وأنسـاه

إن الرُّها غـيـر عـمُّـورية وكـذا ... مَن رامـهـا لـيس مَغْـزاً، كـمـغـزاه

أخذت الكواكب عِزاً ما بغى أحد ... من الملوك لهـا وَقْـمـا[1] فـواتاه

حتى دلفت لهـا بالعـزم يشـحـذه ... رأىٌ يبـيـتُ فُـويْقَ النَّجْم مـسـراه

مـشـمَّـراً وبنو الإسـلام فى شُـغلٍ ... عن بَدْءِ غـرْس لهم أثمـار عـقـبـاه

يا مُـحـيى العَـدْلِ إذ قـامت نَوَادبُه ... وعـامـر الجُـود لما محٌ[2] مـعنـاه

يا نعمـة الله يـستـضفى المزيد بهـا ... للشـاكـرين ويسـتـقنى صـفـاياه

أبقـاك للدين والدُّنيـا تحـوطُهـمـا ... من لم يُتـوجْك هذا التَّـاج إلا هو

ولابن منير أيضاً من قصيدة أخرى يقول فيها:

أيا ملكاً ألقى على الشـرك كلكلاً ... أناخ على أمـاته[3] كَلْكَلُ الثكل

جـمـعـت إلى فـتح الرُّها سـدّ بـابه ... بجـمعك بين النَّهْب والأسْر والقتل

هو الفـتحُ أنس كلَّ فـتح حـديثـه ... وتـوَّجَ مـسـطورَ الرواية والنَّقْلِ

فـضـضت به نقش الخـواتم بعـده ... جُزيت جزاء الصدق عن خاتم الرسلِ

تجـردت للإسـلام دون ملوكـه ... تُبَـتـذكُ أسـبـاب المذلّة والخـذل

أخو الحرب غَـذَتْهُ القـراع مـقـطّمـاً ... يشـوب بإقدام الفتى حُنْكَةَ الكهل

وقال أيضاً:

---

(1) وقماً : أى ذلاً.

(2) محّ : خلق ودرس.

(3) أماته: مفردها أم والجمع أمات أو المهات.

بعماد الدين أضحت عروة الدين ... معصوبا بها الفتح المبين

واستزادت بقسيم الدَّولة ... القسم في إدحاض كيد المارقين

ملك أسهر عيناً لم يزل ... همها تشديد هَم الرَّاقدين

لا خَلَت من كَحلِ النَّصْر فقد ... فقأت غيظاً عيون الحاسدين

كلَّ يوم مرَّ من أيامه ... فهو عيد عائد للمسلمين

لو جرى الإنصاف في أوصافه ... كان أولاها أمير المؤمنين

ما روى الرَّاوون بل ما سطروا ... مثل ما خَطَّتْ له أيدى السنين

إذ أناخ الشرك في أكنافه ... بمئى ألفٍ تلاها بمئين

وقعة طاحت بكلب الروم من ... قطعه التين إلى قطع الوتَين(1)

إن حمت مصر فقد قام لها ... واضح البرهان أن الصين صينْ

والرُّها لو لم تكن إلا الرُّها ... لَكَفَتْ حسماً لشك الممترين

درج الدّهر عليها مُعصِراً ... لم تدنس بمرام اللاّمسين

هَمَّ قسطنطين أن يَفْرعَها ... ومضى لم يَحوِ منها قسْطَ طين

ولكم مِنْ مَلِكٍ حاولها ... فتحلَّى الحين وسما في الجبين

هي أخت النجم إلا أنها ... منه كالنجم لرأى المبصرين

مُنِيَتْ منه بليث قائد ... بعران(2) الذُّلَّ أساد العرين

زارها يزأرُ في أسد وغًى ... تبدل الأسد في الزأر الأنين

صولجوا البيض(3) بضرب نثر ... الهام في ساحاتها نثر الكُرين(4)

---

(1) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(2) العران: خشبة تجعل في وتر أنف البعير وهو ما بين المنخرين.

(3) أي جعلوا السيوف صوالجة، مفردها: صولجان.

(4) مفردها كرة: وهي التي يلعب بها بالصولجان.

يا لهــا هَمــةُ نَغْــر أضــحكت — من بني القُلْف[1] ثغور الشّامتين

بَــرْنَسَــتْ رأسَ بــرنــسٍ ذلــةً — بعدما جاست حوايا جوسلين

وســـروج مُــذْوعت أســـراجــه — فَرّقَتْ جُمَّاعهـا عنهـا عِضين

تلك أقــفـــال رمـــاها الله من — عـزمـه الماضى بخـيـر الفـاتحين

شــامَ منه الشّــامُ برقــاً ودقْــة[2] — مـؤمنُ الخـوف مـخـيفُ الآمنين

كم كنيس كُنست آرامــهـــا — منه بعـد الروح فى ظل السّفين

إلى أن قال:

همــة تمسي وتضــحى عــزمــةٌ — ليس حـصن إن نحـتـه بحـصـين

قل لقـــوم غـــرهم إمـــهـــاله — ســتذوقــون شــذاه بعــد حين

إنــه المــوت الــذى يــدرك مــن — فــر منه فــشــجــاً للغـافلين

وهو يُحــيي مُــمــسكي عُــروته — إنهـــا حـــبل لمن تاب مـتـين

من يطـع ينـج ومن يعـص يكن — من غـداةٌ عـبــرةُ للآخـــرين

أقـــسم الجـــد بأن تبــقى لكى — تملك الأرض يمـيناً لا يمـين[3]

وتفــيض العــدل فى أقطارها — منسيـاً مـؤلم عسف الجائرين

لا تزل دارُك كـيف انتقلت — كـعبة محـفـوفة بالطائفين

كل يوم يتــحلى جُـيـدهـا — من نظيم المدح بالدُّر الثمين

كلمــا أُخلص فـيـهـا دعـوةٌ — لك قــالت ألسنُ الخلْف أمين[4]

---

(1) القُلْف: أى الذين لم يختنوا ويعنى الصليبيين.

(2) ودقة: مطرة.

(3) لا يمين: لا يكذب.

(4) كتاب الروضتين (1/149).

9- الأحداث العسكرية بعد فتح الرها: كان فتح الرها بداية لها ما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الذين زنكى أن يستكمل مهمته بفتح باقى المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين فى المنطقة[1]، واتجه إلى سروج التى تخلت حاميتها عنها مولية الفرار واستولى عليها، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط فى يديه واحدة تلو الأخرى[2]، وجعل لا يمر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها، إلا سلم إليه فى الحال[3]، ثم يمم وجهه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات، وكانت من أهم الحصون التى تبقت لجوسلين الثانى، وأشدها مناعة ففرض الحصار عليها وقطع عنها ما كان يصل إليها من القوت والميرة والمعونة حتى أشرفت على الاستسلام، وحينذاك بلغ زنكى نبأ مقتل نائبه فى الموصل فاضطر إلى فك الحصار والإسراع بالتوجه إلى مقر إمارته لإقرار الأوضاع فيها، إلا أن صليبيى الحصن خافوا من مهاجمته إياهم ثانية، فأرسلوا إلى حسام الدين تمرتاش الأرتقى وأعلموه برغبتهم فى التنازل له عن موقعهم هذا، قبل أن يسقط بيد عدوهم اللدود. وهكذا فقد صليبيو الرها كافة حصونهم الواقعة شرقى الفرات[4]، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الأم بيد زنكى، ولم يتبق لجوسلين من إمارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربى الفرات كتل باشر ومرعش ودلوك وسميساط وعينتاب وعزاز[5] واستطاع نور الدين محمود - فيما بعد - اكتساحها جميعاً، ومحو أولى الإمارات الصليبية من الوجود[6].

10- من أساليب عماد الدين زنكى فى محاربة الصليبيين: لم يقتصر عماد الدين زنكى، فى قتاله للصليبيين على الحروب النظامية، فحسب، إذ كان ذلك

(1) تاريخ الزنكيين فى الموصل وبلاد الشام ص 156 .
(2) ذيل تاريخ دمشق ص 280 عماد الدين زنكى ص 156 .
(3) ذيل تاريخ دمشق ص 280 عماد الدين زنكى ص 157 .
(4) مفرج الكروب (1 / 96) عماد الدين زنكى ص 157 .
(5) عماد الدين زنكى ص 157 .
(6) عماد الدين زنكى ص 157

يقتضى منه البقاء باستمرار فى بلاد الشام، واستنفاد قواه فى قتال أعدائه هؤلاء، وعدم تمكنه – بالتالى – من التفرغ لتصفية مشاكله العديدة فى العراق، وأدرك أهمية الاستفادة من الغارات، أى الهجوم والانسحاب السريع، سيما فى فترات غيابه عن الشام، ذلك أن هذا النوع من القتال سيتيح له الحصول على نتائج هامة، أولها إقلاق الصليبيين وعدم إعطائهم المجال لإعادة تنظيم قواتهم، ورسم الخطط الهجومية على مواقع المسلمين فى المنطقة، ومن ثم تمكين هؤلاء من الدفاع عن مراكزهم والاحتفاظ بها، وثانيها إضعاف قوى العدو العسكرية والاقتصادية، بما تحدثه – هذه الحروب – من قتل وأسر ونهب وتخريب، وثالث تلك النتائج قطع الاتصال بين المراكز الصليبية شمالى الشام، وعدم إعطائهم الفرصة للتجمع وتوجيه ضربة موحدة ضد المسلمين[1]، وقد اعتمد زنكى فى هذا النوع من القتال على محاربى التركمان، ومهد لذلك بتوثيق علاقاته بقادتهم وإسناد كبرى المناصب الحربية إليهم. وقد عمل زنكى على توفير القيادة الحاذقة من التركمان كيتكين، ولجة التركى والياروق وغيرهم، والمحاربين الشجعان، للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حروب المقاومة والعصابات، وجعل من حلب مركزاً لهم نظراً لأهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والإسلامية على السواء، فهى تتوسط أنطاكية والرها الصليبيتين، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما، كما أنها تعد خير قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين، وقوافل إمدادهم وتموينهم. وقد قامت هذه الجماعات من التركمان بشن غارات عديدة ضد جيوش الأعداء ومعسكراتهم، وقوافلهم ومراكز تجمعهم، ولم تخل سنة من سنى الصراع وحروب العصابات كان يقوم بها هؤلاء التركمان، إلا ويلحقون – بفضلها – خسائر مختلفة فى صفوف أعدائهم، ففى رجب من عام 524هـ على سبيل المثال جهز زنكى قوة عسكرية أغارت على عزاز الصليبية وعاثت فى بلاد جوسلين أمير الرها[2] وفى العام التالى حدث اشتباك بين سوار وجوسلين، شمالى

(1) عماد الدين زنكى ص 158.

(2) مفرج الكروب (1/4) عماد الدين زنكى ص 159.

حلب، أسفر عن انتصار الصليبيين ومقتل عدد من المسلمين، مما دفع سوار إلى القيام بهجوم على ربض الأثارب، والاستيلاء على مقادير من أموالهم ومحاصيله، ثم ما لبث بعد عام واحد 526هـ أن أوقع بصليبيي تل باشر وقتل منهم خلقاً كثيراً[1] ولم يتوقف هو وجنده التركمان عن شن الغارات ضد الصليبيين كلما أتيحت الفرصة لذلك، وشهد صفر من عام 527هـ عدة اشتباكات بين الطرفين، وقع أحدها بالقرب من قنسرين، إثر قيام بلدوين بيت المقدس بمحاولة للهجوم على أطراف حلب، حيث تصدى له سوار، وجماعة من جنده، وأسفر القتال عن هزيمة المسلمين وانسحابهم إلى حلب، إلا أن قائدهم الشجاع ما لبث أن خرج بهم ثانية ووقع على طائفة منهم فأوقع بهم وأكثر القتل والأسر، وانهزم من سلم منهم إلى بلادهم وعاد إلى حلب حاملاً معه رؤوس القتلى والأسرى وكان يوماً مشهوداً[2]، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى قام صليبيو الرها بمحاولة جديدة للإغارة على أعمال حلب، فخرج إليهم سوار يصحبه الأمير حسان البعلبكي أمير منبج، وأوقع بهم على حين غرة، وتمكن من إبادة عدد كبير منهم، وأسر الباقين، ثم قفل عائداً إلى حلب دون أن يصاب أحد من جنده بأذى[3] وفي جمادى الآخرة من نفس العام قام سوار على رأس قوة من الفرسان بالإغارة على تل باشر، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع، إلا أنه تمكن من هزيمتهم، وحصد رؤوس ألف رجل، حملها معه إلى حلب[4]. وفي ربيع الأول من العام التالي سار صاحب موقع القدموس الصليبي إلى قنسرين، على رأس قوة من فرسان أنطاكية، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار وأسفر القتال عن انتصار الصليبيين واضطر قائد زنكي إلى مصالحتهم، إلا أنه ما لبث أن باغت إحدى سراياهم بهجوم سريع وتمكن من قتل معظم أفرادها، ثم قفل عائداً إلى حلب: فسر الناس بذلك بعد مساءتهم، ولم يمض سوى وقت قصير حتى أغار فرسان الرها على أطراف حلب الشمالية في طريقهم إلى إحدى

---

(1) عماد الدين زنكي ص 160.

(2) ذيل تاريخ دمشق ص 240 – 241، عماد الدين زنكي ص 160.

(3) عماد الدين زنكي ص 160.

(4) المصدر نفسه ص 161.

المعسكرات الصليبية فأوقع بهم سوار وحليفه أمير منبج، وأباد عدداً كبيراً منهم، بينما وقع معظم الباقين في الأسر[1]، ثم ما لبث سوار أن قام - في نفس العام - بغارة واسعة على المواقع الصليبية في منطقة الجزر[2]، وزردنا، وأوقع بأعدائه عند حارم ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم والأسلاب[3]، وأخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئاً فشيئاً، وشهد رجب من عام 530هـ محاولة واسعة قام بها سوار، إذ سار على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان وفاجأ بلاد اللاذقية وأعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون له أي حساب، وتمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتياح عشرات من القرى والمزارع الصليبية ملأ المسلمون أيديهم منها بالأسرى والغنائم، وقد استبشر مسلمو المنطقة أيما استبشار لهذا النصر الكبير الذي أحرزه سوار، والذي كان بالنسبة لصليبيي الشمال نكبة لم يمنوا بمثلها[4] والواقع أن ما شاهدته أنطاكية، خلال عامي 529هـ، 530هـ من فتن داخلية بسبب النزاع على الحكم، أسهم إلى حد كبير في عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين[5] الأمر الذي دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة وتحقيق نصر كبير ضد صليبيي الشمال. وفي أواخر العام التالي قام سوار بهجوم مباغت ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد، كانت تتقدم شرقاً، وتمكن من قتل وأسر عدد من أفرادها ثم قفل عائداً إلى مقره في حلب[6]، ولم تمض سوى أشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام الصليبيون والبيزنطيون بإرسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الأثارب القريبة من حلب، وبعد أن حققت هذه القوات هدفها، وأوكل إليها حراسة أسرى المسلمين الذين جمعوا في هذا الموقع. إلا أن سوار ما لبث أن خرج على رأس قواته

---

(1) زبدة حلب (2/252).

(2) الجزر: إحدى كور حلب معجم البلدان (2/71).

(3) زبدة حلب (2/254) عماد الدين زنكي ص 161.

(4) ذيل تاريخ دمشق ص (255 - 256) عماد الدين زنكي ص 161.

(5) الحروب الصليبية، العريني (1/510) عماد الدين زنكي ص 161.

(6) عماد الدين زنكي ص 162 زبدة حلب (2/263).

وهاجم الحامية الصليبية والبيزنطية، وتمكن من استخلاص معظم أسرى المسلمين من أيديهم، وعاد بهم إلى حلب التي عمها السرور وسادتها الأفراح لهذا النصر الذى حققه أميرها[1] وفى عام 533هـ هاجم سوار عدداً من المواقع الصليبية واستولى على بعض الغنائم، إلا أن فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به وإنزال هزيمة بقواته أسفرت عن أسر ما يزيد عن ألف فارس منهم، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده[2] واستمرت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية، وأصابها بعض الفتور خلال عامى 534هـ – 535هـ. إثر فشل زنكى فى الاستيلاء على دمشق، وتحالف الصليبيون والدمشقيون ضده إلا أن هذه المناوشات ما لبثت أن استعرت من جديد فى عام 536هـ والسنين التى تلته، ففى الأشهر الأولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الإسلامية غربى حلب، ولدى تفرقهم، أرسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه فى سبيل تحقيق برنامجه المزدوج أى تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين. وقد اتضح لنا من خلال استعراض علاقة عماد الدين زنكى بالقوى الإسلامية كإمارات المدن والإمارات المحلية فى الجزيرة والشام، والقبائل الكردية والتركمانية – مدى قدرته السياسية وبراعة خططه العسكرية خلال علاقاته السلمية والحربية مع هذه القوى المنبثة فى المنطقة، فهو من الناحية الرسمية كان قد تسلم من السلطان السلجوقى "محمود بن محمد بن ملكشاه" عام 522هـ منشوراً يقر سلطته الشرعية على الموصل والجزيرة والشام، وقد تأكد هذا المنشور خلال الأعوام التالية. إلا أنه لم يكن كافياً لتثبيت سلطته الفعلية فى هذه الفترة التى استطاع فيها عدد كبير من الأمراء أن يفرضوا سلطتهم على عدد لا يحصى من المدن والأقاليم، مستقلين إلى حد كبير عن السلطة السلجوقية ومستفيدين من مجموعة من العوامل الشخصية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والبشرية، فكان لابد لزنكى إذن، من إخضاع هذه العدد الكبير من السلطات المتمركزة فى المنطقة، ومن اختيار أسلوب الهجوم، منذ البداية

(1) الكامل فى التاريخ نقلاً عن عماد الدين زنكى ص 162.
(2) زبدة حلب (2/271) عماد الدين زنكى ص 162.

بالرغم مما يحيق بهذا الأسلوب من أخطار أولها احتمال تشكيل حلف دفاعى مضاد من الأمراء المحليين، وقد يتحول هذا الحلف فيما بعد إلى حلف هجومى، كما حدث بالنسبة للأراتقية، وثانى تلك الأخطار عدم وجود خط رجعة فى حالة انكساره أو انسحابه أمام الأمراء المحليين الذين كانوا يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. إلا أنه لم يأبه لهذه الأخطار، وراح يهاجم الأمراء المحليين منذ البداية، دفعه إلى ذلك طموحه وشجاعته الشخصية، واطمئنانه إلى قاعدة شعبية تحبه وتخلص له لمواقفه السابقة تجاه الصليبيين، قبل أن يتولى الحكم فى الموصل، كما ساعده على ذلك منشور السلطان، آنف الذكر بتسلم الموصل والجزيرة والشام، وما كان يتضمنه من اعتراف بحرية زنكى فى الاشتباك مع التشكيلات السياسية المحلية واكتساحها، والتوسل بأية وسيلة يراها مناسبة لتحقيق هذا الهدف[1]، ولكن الأهم من ذلك كله ما تمتع به زنكى من مقدرة سياسية وعسكرية وما تميز به من نظر بعيد. ذلك أنه عرف - منذ البدء - أنه إذا ما سلك سبيل المسالمة والتودد تجاه الأمراء المحليين فإن حصونهم ومدنهم وإماراتهم ستظل تشكل عوامل خطر ضد إمارته، لقربها منها، ولاستراتيجية مواقعها إذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة، وانحدارها باتجاه الموصل، وخطوطها الخلفية سلاسل جبلية وأنهار متشابكة وحصون منيعة. كما أن السياسة الانعزالية التى اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبى المتقدم نحو الشرق، وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبى الزاحف، هذا فى الوقت الذى كان على زنكى فيه أن يعمل على إزالة العقبات التى تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة، المبعثرة، فى جبهة إسلامية موحدة الدين، أغارت على المواقع الصليبية وتوغلت إلى أسوار أنطاكية، ثم عادت تحمل معها كثيراً من الغنائم والأسلاب[2] وبعد فترة قصيرة أغار لجة التركى على بعض المناطق الصليبية فى الشمال فساق وسبى وقتل، وذكر أن عدد

(1) عماد الدين زنكى ص 165.

(2) زبدة حلب (2/275) عماد الدين زنكى ص 162.

القتلى بلغ سبعمائة رجل[1]، وفي رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكراً صليبياً عند جسر الحديد، إلى الشمال الشرقي من أنطاكية، بعد أن اجتاز بقواته نهر العاصي صوب تجمعات العدو، وتمكن من قتل معظم أفراد المعسكر، وأسر الباقين[2]، وما لبث أمير أنطاكية أن خرج – في العام التالي – للإغارة على وادى بزاعة القريب من حلب، فتصدى له سوار وأجبره على الانسحاب. وتمكن جوسلين من الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من أسر تسعمائة رجل منهم، ثم ارتأى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لأمير أنطاكية نصيب فيها[3]، وهكذا ظل القتال مستمراً بين هذه الإمارة وقوات حلب وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار أنطاكية في جمادى الأولى من عام 538هـ – تحرسها قوة من الفرسان في طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة ومعها مال كثير وأموال ومتاع باغتها المسلمون، وأوقعوا بها، وتمكنوا من إبادة كافة أفراد القوة التي خرجت لحمايتها، وغنموا ما كانت تحمله من بضائع قيمة[4] وفي أواخر ذى القعدة من العام نفسه هاجمت مجموعة من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من باسوطا وأبادوهم، وأسروا صاحب باسوطا حيث اعتقله سوار في حلب[5].

11- حصيلة الدور السياسي العسكري الذى لعبه عماد الدين على مسرح التاريخ الإسلامي: يمكن القول بأن عماد الذين زنكي استطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكون لنفسه مكانه خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكرى متمكن ومسلم واع أدرك الخطر الذى أحاط بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين. فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام

---

(1) عماد الدين زنكي ص 163 زبدة حلب (2/275).

(2) زبدة (2/276) عماد الدين زنكي ص 163.

(3) عماد الدين زنكي.

(4) ذيل تاريخ دمشق ص 278 زبدة حلب (2/277 – 278).

(5) زبدة حلب (2/278) عماد الدين زنكي ص 163.

وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة فى نطاق دولة واحدة استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات تستطيع أن توقف الزحف الصليبى، ومن ثم تبدأ بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين. هذه العوامل التى دفعت زنكى إلى اتباع سياسة الهجوم، والتى تخللتها أحياناً علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذى كان يمر فيه، وفى نفس الوقت، عمل زنكى على تأمين حدود إمارته باتجاه الشرق والشمال الشرقى، حيث يشكل الأكراد والتركمان فى هذه المناطق عناصر خطر بالغة ضد إمارته، لاسيما عند تأزم علاقاته بالإمارات الغربية، أو عند توغله بعيداً عن مقره فى الموصل(1). ومن ثم تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذى لعبه زنكى فى التاريخ الإسلامى إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبى الذى لم توقفه المحاولات الجدية التى سبقت زنكى وبخاصة تلك التى تمت على يد كل من مودود بن التونتكين 502 – 507هـ وإيلغازى وبلك الأرتقيين 512 – 518هـ(2) ومن المرجح أنه لو تمكن زنكى من فتح دمشق وإنجاز محاولته لتوحيد الشام، ولو لم يقتل – وهو فى قمة انتصاراته ضد الصليبيين – لكان قد استطاع أن يستكمل الأجزاء المتبقية من برنامجه، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذى قام به فى التاريخ الإسلامى، وهو دور فاصل تتضح خطورته، إذا عرفنا أن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين لم تكن جهودهما سوى إتمام العمل الذى بدأه عماد الدين زنكى وفى نفس الطريق(3).

سادساً: الحملة الصليبية الثانية:

كان لسقوط الرها فى أيدى المسلمين ردة فعل عنيفة فى الغرب الأوروبى وباعثاً على السرعة فى إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب فى النفوس، ليس بسبب المكانة الدينية التى تتمتع بها هذه المدينة فى تاريخ

(1) المصدر نفسه ص 166.
(2) عماد الدين زنكى ص 166.
(3) المصدر نفسه ص 166.

النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً، أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها إيذانا بتزعزع البناء الكبير الذى شيده الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى في الشرق الأدنى، وأدرك الغرب الأوروبي أنه إذا لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار[1] وكانت نداءات الاستغاثة قد وصلت إلى البابا يوجنيوس الثالث من فرنج الشرق، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى إلى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها[2] وأرسل البابا رسلاً إلى إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا يحثهما على الإسراع لنجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي نفس الوقت كلف أحد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقام هذا القس بالدور الذى قام به البابا أوربان الثاني عام 490هـ/1095م أثناء الدعوة للحملة الفرنجية الأولى[3]، لبى الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا، دعوة البابا، وخرجا كل بجيشه عبر أوروبا باتجاه القسطنطينية ومن هناك عبرا مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى[4].

1- **السلاجقة يقضون على الجيش الألماني**: كان الجيش الألماني يتقدم الجيش الفرنسي عدة أيام وعندما بلغ منطقة دوريليوم شرق مدينة نيقية نفس الموقع الذى انتصر فيه فرنج الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلج أرسلان قبل خمسين عاماً، وقع الجيش الألماني في قبضة جيش السلطان مسعود أمير سلاجقة الروم في آسيا، فقد تراجع السلطان مسعود وفق خطة عسكرية ذكية حتى واصل الجيش الألماني تقدمه إلى قلب فريجيا، وكان السلطان مسعود قد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم ولما وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبد بهم التعب والظمأ فاختلت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 171.
(2) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 94.
(3) المصدر نفسه ص 94.
(4) المصدر نفسه ص 94.

السهام، وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف، عندئذ قرر كونراد الثالث الانسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه فهاجموا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبَّت الفوضى في صفوفه وتعرض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر. والواقع أن القتال لم يكن سوى مذبحة مروعة، قتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه[1]، حاول كونراد الثالث، عبثاً جمع شتات جيشه إلا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقًى من رجاله، وقليل ما هم، عائدين إلى نيقية، في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم[2]، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد وخيول وأسروا أعداداً كبيرة منهم، ظلت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدة شهور[3] وبهذه الهزيمة الساحقة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سيئ على الحملة الصليبية الثانية[4].

2- **سلاجقة الروم يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي**: خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً عن الجيش الألماني وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني لكنها كانت أكثر تنظيماً، واصطحب لويس السابع معه زوجته اليانور[5] وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقية، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الإمبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته[6] وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتخذها الملك الفرنسي فقد فاجأه السلطان السلجوقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية وراح يناوئ

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 146.

(2) المصدر نفسه ص 146.

(3) ذيل تاريخ دمشق ص 197.

(4) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ص 146.

(5) المصدر نفسه ص 147.

(6) المصدر نفسه ص 147.

الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر ونشبت فى هذا المكان رحى معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر عند ذلك تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكّن الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم، ولم يغامر مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة فى المناطق الحدودية، تصدت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم يُنج الجيش الصليبى من الفناء الشامل سوى هبوط الظلام حيث انسحب التركمان[1] ولم يصل الجيش الفرنسى إلى أنطاكية إلا بعد أن تكبد خسائر هائلة، وبعد أن شفى الإمبراطور الألمانى من مرضه أكمل رحلته إلى فلسطين بحراً على سفن الأسطول البيزنطى[2]، والتقى الإمبراطور الألمانى والملك الفرنسى فى القدس مع الملك بلدوين الثالث ملك القدس وأمه مليزاند وكبار القادة ورجال الدين فى مملكة القدس، وبحث الجميع موضوع الهدف الذى ستتوجه الحملة لاحتلاله وقرروا أن يكون هدفهم الأول دمشق[3].

3- **الهجوم الصليبى على دمشق:** توجهت الجيوش الفرنجية المتحالفة نحو دمشق التى كان يحكمها آنذاك معين الدين أنر أتابك الملك مجير الدين أبق بن محمد بن بورى، الذى كان أكثر الأمراء المسلمين قرباً من الفرنج وتعاوناً معهم[4]، ولذلك لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الفرنجية الضخمة، لكنه لما علم بنوايا الفرنجة ومسيرهم نحو دمشق اتخذ جميع الإجراءات اللازمة للدفاع عن المدينة وأرسل يسأل المساعدة من نور الدين محمود وسيف الدين غازى[5]، كان من عادة نور الدين محمود تحليل الأوضاع الدولية والإقليمية ومتابعة الأحداث الجارية، وتحليلها بعمق ثم يخرج بالدروس والعبر التى تفيده فى

(1) تاريخ سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ص 147.
(2) دور نور الدين فى نهضة الأمة ص 95.
(3) المصدر نفسه ص 95.
(4) المصدر نفسه ص 96.
(5) المصدر نفسه ص 96.

تقرير سياسته المستقبلية، وقد شكلت الحملة الصليبية الثانية الحدث الأكبر في المنطقة والعالم كله عام 543هـ/1148م وكانت بالنسبة لنور الدين محمود الحدث الأول من نوعه بعد توليه الحكم عام 541هـ/1146م والذى يمارس عليه سياسته المذكورة، فقد كان نور الدين يتوقع أن تكون إمارته (حلب) الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط مدينة الرها عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام 539هـ/1144م، على يد عماد الدين ولكن الذى حصل أن الحملة غيّرت هدفها المتوقع وتوجهت إلى دمشق وحاصرتها محاولة احتلالها، وكان هذا التغيير مفاجأة كبيرة لنور الدين، ومفاجاة أكبر لمجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكه معين الدين أنر المدبر الحقيقي لشؤون إمارة دمشق، كانت مفاجاة نور الدين معروفة الأسباب أما مفاجأة حكام إمارة دمشق فلأنهم كانوا أصدقاء الفرنجة الوحيدين من المسلمين فى المنطقة وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكى عندما كان يحاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الفرنجة مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب، ولكن نور الدين محمود استفاد من هذا التغيير المفاجئ فى هدف الحملة الذى لم يحصل ارتجالا ولم يكن حماقة كما يذكر بعض المؤرخين[1] بل جاء بعد دراسة وتحليل للأوضاع فى المنطقة قام بها قادة الحملة فى اجتماعات مكثفة اشترك فيها ملك بيت المقدس وقادته في مدينة عكا قبل الهجوم على دمشق[2]. لقد تأكد لنور الدين محمود المغزى الحقيقى لغزو الفرنجة السابق فى الحملة الأولى والحالى فى الحملة الثانية والذى لا يمت بصلة إلى استرجاع قبر المسيح عليه السلام من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى القدس على طول الساحل شمالاً إلى القسطنطينية، كما كان يزعم زعماء الدين المسيحى الذين خططوا لهذه الحروب، كما أن الهدف الحقيقى للحملة الفرنجية الثانية أبعد ما يكون عن الانتقام لسقوط الرها لأن الحملة توجهت إلى دمشق حليف الفرنجة فى المنطقة ولم تتوجه إلى

(1) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان ص 523.

(2) نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق ص 212 – 213.

حلب أو الرها حيث يوجد من يتوجب الانتقام منه، فقد أدرك نور الدين محمود أن هدف الفرنجة الحقيقى هو احتلال المشرق الإسلامى والسيطرة عليه كما كانت الإمبراطورية الرومانية تسيطر عليه قبل الإسلام وأنهم لا يميزون فى عملهم لتحقيق هذا الهدف بين إمارات ودول المسلمين. فالحليف المتعاون معهم سواء عندهم مع المقاوم لسيطرتهم وتوسعهم المجاهد لتحرير البلاد من احتلالهم، فهم يقصدون احتلال بلاد الجميع والسيطرة على الجميع، وعلى هذا الأساس فإنه من الأفضل لهم البدء بدمشق التى تعتبر قلب بلاد الشام وأكثر الإمارات الإسلامية فيها مساحة وموارد ولكونها الأضعف عسكريا، ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حلب والرها والموصل وغيرها، فالأمر إذن حرب شاملة لن يسلم منها المراقب عن بعد ظناً منه أن الخطر بعيد عنه، فدوره قادم ولو بعد حين، وإذا كان الأمر كذلك فإن نور الدين بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لابد أن يخوض هذه الحرب من بدايتها؛ فدمشق بالنسبة له كحلب تماماً، وهى فى الوضع الراهن تشكل الخط الأول للدفاع عن حلب والموصل وباقى بلاد المسلمين، ولذلك نراه يحشد جيشه إلى جانب جيش أخيه سيف الدين غازى أمير الموصل بالقرب من حمص وبعلبك لإجراء التنسيق اللازم مع حكام دمشق حول العمل المشترك لمواجهة الغزو الأجنبى، وكان لهذا الحشد الأثر الرئيسى فى فشل الهجوم الصليبى على دمشق، وقد خرج نور الدين محمود من هذا الحدث الكبير بدروس مهمة تؤكد قناعاته وتوجهاته السابقة. من هذه الدروس: الأهمية القصوى للوحدة بين الإمارات الإسلامية لمواجهة الخطر الفرنجى وتحرير البلاد من احتلالهم، ثم الأهمية الاستراتيجية لإمارة دمشق فى المواجهة مع الفرنجة، وضرورة الاستيلاء عليها بأى ثمن، ومنها وضع التدخل الأوروبى فى الصراع مع الإمارات الفرنجية فى الاعتبار[1].

4- موقف رجال الدين المسيحى من الحملة الصليبية الثانية:

أما عن موقف رجال الدين المسيحى من خروج الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق، فإنه لم يكد نبأ سقوط - الرها - فى يد عماد الدين زنكى سنة

(1) دور نور الدين فى نهضة الأمة ص 151.

539هـ/1144م يتردد في عواصم غرب أوروبا حتى أثار مخاوفاً وقلقاً شديدين، وأدرك الصليبيون أن ذلك يمثل بداية النهاية لبقية الإمارات الصليبية في الأراضي المقدسة، ومن ثم اتصلوا بالمسؤولين عن إمارة أنطاكية، واستقر الرأى على إرسال وفد إلى البابا يوجنيوس الثالث 540هـ - 548هـ/1145 -1153م) ليدعو إلى حملة صليبية جديدة فقامت بالفعل في أوروبا حركة كبيرة تدعو بكل حماس إلى سرعة القيام بهذه الحملة لإعادة إمارة الرها إلى المسيحيين وبادر البابا يوجينيوس الثالث بدعوة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ليتزعما تلك الحملة. وقد رحب لويس السابع بطلب البابا، ودعا أتباعه للاجتماع به للنظر فيما يتخذ من الترتيبات، ولما لم يبد هؤلاء أى حماس للاشتراك في هذه الحملة، قرر الملك لويس السابع تأجيل تنفيذ دعوة البابا لمدة ثلاثة شهور، ولجأ إلى أحد أعلام الدين المسيحي في مملكته، وهو القديس برنارد، رئيس دير كليرفو الذى كان يتمتع بشهرة كبيرة ويفوق الملك في السلطة على حد تعبير المؤرخ الإنجليزى رانسيمان، فقد كانت له قدرة عظيمة على الإقناع والتأثير في الناس، ولم يكد الملك لويس السابع والبابا يوجينيوس يطلبان منه القيام بالدعوة للحملة الصليبية حتى أسرع القديس برنارد لتلبية هذا الطلب والعمل بكل قواه من أجل إنجاح هذا المسعى[1]، وكما وقف البابا أوربان الثانى في كليرمونت يدعو للحملة الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة وقف القديس برنارد خارج كنيسة فيزيليه في شوال 540هـ/مارس 1146م يدعو للحملة الصليبية الثانية، ونفذ ببلاغته إلى قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل ناراً، فلما استمع الناس لسحر بيانه وبلاغته وفصاحته، أخذوا يصيحون طالبين الصلبان، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديته الخارجية فقطعت وحيكت صلباناً، وظل هذا القديس ومساعدوه يخيطون الصلبان لكل الذين تطوعوا للاشتراك في هذه الحملة[2] وبعد عدة أيام كتب القديس برنارد رسالة إلى البابا يتضح منها مدى تأثير رجال الدين المسيحي في

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان (2/407 - 409).

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى ص 254.

الناس ومدى طاعة الناس لهم فى ذلك الوقت فيقول فيها : لقد أمرتهم، فأطعت وما كان لمن أصدر الأمر من سلطة، جعلت طاعتى مثمرة، فلم أكد أفتح فمى وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون، فلا حصر لعددهم، فالقرى والمدن هجرها سكانها، فلا تكاد تجد رجلاً واحداً لكل سبع نساء ويصادفك فى كل مكان الأرامل اللائى لا زال أزواجهن أحياء[1]. وبعد ذلك أخذ الحماس يزداد عند القديس برنارد بعد النجاح الذى أحرزه فى فرنسا، فأخذ يطوف أقاليم ألمانيا مؤملاً أن يجتذب الألمان للاشتراك فى هذه الحملة، وقد نجح إلى حد كبير فى التأثير على كونراد الثالث ملك ألمانيا للانضمام إلى الحرب المقدسة، ويطلب منهم أن يقوموا بشرح الإعلان البابوى الذى بعث البابا إلى كافة مدن أوروبا من أجل أن يتحمل الجميع مسؤولية مساعدة الأرض المقدسة بفلسطين والعمل على تحريرها[2]، واستقر رأى المشاركين فى هذه الحملة على مهاجمة دمشق واحتلالها واشترك رجال الدين المسيحى جنباً إلى جنب مع الجند فى حصار دمشق فكان مع الملك الألمانى كونراد قسيس عجوز يدعى إلياس، طويل اللحية، يعتقدون به، فلما حاصروا دمشق، ركب هذا القسيس حماره وعلق على عنقه صليباً وحمل فى يده صليبا وجمع القساوسة بالصلبان وركب الملوك والفرسان بين يديه، ولم يتخلف من الصليبيين المشاركين فى الحصار أحد إلا من تركوه لحفظ الخيام. ووقف هذا القسيس أمام الجميع وهو يتقدمهم قائلاً : لقد وعدنى المسيح أنى أفتح اليوم دمشق ولا يردنى أحد. ولكن باءت نبوءته بالفشل إذ هاجمه أحد شباب المجاهدين فقتله وقتل حماره[3].

5- انتصار دمشق على الحملة الصليبية الثانية :

فى ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة نازلت الفرنج دمشق فى عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون فى دمشق للمصاف فكانوا مائة وثلاثين ألف رجل وعسكر البلد، فاستشهد نحو المائتين، ثم برزوا فى اليوم الثانى

(1) المصدر نفسه ص 255.

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى ص 255.

(3) المصدر نفسه ص 255.

فاستشهد جماعة، وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان فى اليوم الخامس وصل غازى بن أتابك، وأخوه نور الدين فى عشرين ألفا إلى حماه، وكان أهل دمشق فى الاستغاثة والتضرع إلى الله تعالى، وأخرجوا المصحف العثمانى إلى صحن الجامع، وضجَ الناس والنساء والأطفال – مكشوفى الرؤوس – وصدقوا الافتقار إلى الله، فأغاثهم[1] وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ... (٦٢)﴾ (النمل). وكان من أسباب الله التى جعل فيها النصر لأهل دمشق وصول جيوش الموصل وحلب فى الوقت المناسب، فقد اتصل كل من سيف الدين غازى وأخوه نور الدين بمعين الدين أنر لتنسيق التعاون بينهم ضد الفرنجة وكان معين الدين أنر حاكم دمشق لم يكن يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين دمشق وكان فى الوقت نفسه يهدد الفرنجة بتسليم دمشق لسيف الدين أو لنور الدين إذا حاولوا اقتحامها وراسل حكام القدس ووعدهم بتسليم حصن بنياس لهم إذا أقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بالانسحاب عن دمشق، وترافقت هذه الاتصالات مع حدوث خلاف بين الفرنجة أنفسهم حول من سيحكم دمشق بعد احتلالها[2]، قبل حكام القدس عرض معين الدين إنر؛ وأقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بضرورة الانسحاب خوفاً من تسليمها لسيف الدين غازى "ملك الشرق"[3]، الذى إن تسلمها طمع باحتلال القدس وباقى الإمارات الفرنجية فيما بعد فيزول الوجود المسيحى كله من الشرق، انسحبت جيوش الفرنجة إلى فلسطين ومنها غادر الإمبراطور كونراد عن طريق البحر إلى القسطنطينية فى طريق عودته لألمانيا، بينما تأخر الملك لويس عدة أشهر ثم غادر بطريق البحر إلى فرنسا[4]. وهكذا انتهت أكبر حملة فرنجية إلى الفشل الذريع بسبب تضامن الإمارات الإسلامية، كالموصل وحلب مع دمشق وسلاجقة الروم فى وجه العدوان، وبسبب توفر إرادة المقاومة والقتال فى نفوس القادة، بعكس الوضع الذى حصل خلال الحملة الفرنجية الأولى

(1) شذرات الذهب (6/219).

(2) تاريخ الحروب الصليبية (2/255).

(3) الباهر ص 89 دور نور الدين فى نهضة الأمة ص 96.

(4) نور الدين محمود، حسين مؤنس ص 96.

التي حققت أهدافها باحتلال معظم بلاد الشام بسبب اختلاف هذه الإمارات وعدم توفر إرادة القتال وضعف روح المقاومة في نفوس الحكام، كان نور الدين محمود المستفيد الرئيسي من فشل الحملة الفرنجية الثانية " بعد حاكم دمشق " فقد برزت أهمية الدور الذي قام به وأخوه سيف الدين غازي في إرغام الفرنجة على الانسحاب عن دمشق خائبين، وظهرت بالتالي أهمية التعاون والتضامن بين الإمارات الإسلامية في حمايتها من أطماع الفرنجة، وهذا ما كان نور الدين محمود يسعى لتحقيقه باعتباره الخطوة الأولى على طريق الوحدة التي كانت تمثل الهدف الاستراتيجي له في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال الفرنجي، أدرك نور الدين محمود بعد فشل الحملة الفرنجية الثانية الأهمية الكبيرة لدمشق في مواجهة الفرنجة سواء من حيث موقعها الجغرافي المواجه لأكبر وأقوى الإمارات الفرنجية (مملكة القدس) أم من حيث إمكانياتها وكثرة مواردها وقوتها البشرية، فترسخت فكرة الاستيلاء عليها في نفسه وأخذ يسعى لتحقيق ذلك معتمداً الوسائل السلمية ومستفيداً من تجربة والده في هذا المجال[1].

6- مشاركة فقهاء المغاربة للدفاع عن دمشق:

لم تقتصر المشاركة الفعلية للفقهاء في القتال على فقهاء مدن بلاد الشام وحدهم، إذ تشير بعض الروايات إلى مشاركة أولئك الفقهاء المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يقيمون ببلاد الشام في تلك المعارك، فعندما تعرضت مدينة دمشق عام 543هـ/ 1147م للغزو الصليبي شارك أولئك الفقهاء جيوش مدينة دمشق لمواجهة ذلك الغزو؛ وكان منهم الفقيه المغربي حجة الإسلام أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي، والشيخ عبدالرحمن الحلحوني[2] وكان الشيخ الفندلاوي كبيراً زاهداً عابداً – خرج راجلاً، فرآه معين الدين – حاكم دمشق – فقصده وسلَّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، فقال قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نستقيله يعني قول الله تعالى:

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 97.

(2) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي ص 125 .

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... ﴿١١١﴾﴾ (التوبة) وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل رحمه الله شهيداً[1]. واستشهد الشيخ الحلحونى بعد قتال واستبسال[2] ورؤى الشيخ الفندلاوى فى المنام بعد استشهاده فقيل له: أين أنت ؟ قال: في جنات عدن على سُرر متقابلين[3].

7– ما قيل من شعر:

قال أبو الندى حسان بن نمير الكلبى فى مدح مجير الدين صاحب دمشق:

عَــرِّجْ على نَجْــد لعلَّكَ مُنْجِـدى	بنسيـمها وبذكر سُعْدى مُسْعِدى
من قــاتل الإفــرنج ديناً غــيــره	والخيـلُ مـثل السـيل عند المشـهـد
ردَّ الأمــــــانَ بـكـل نَـدْب بـاسـل	ومن الجـيـــاد بُكل نهــد أجْــرَد
ومن السـيـوف بكل عَـضْب أبـيض	ومن العَــجَــاج بكل نقع أســود
حــتى لوى الإســلام تحت لوائه	وغـدا بحـمـد من شـريعة أحـمـد[4]

سابعاً: نتائج الحملة الصليبية الثانية:

هناك مجموعة من النتائج تمخضت عنها الحملة الصليبية الثانية منها:

* **أججت العداء الغرب أوروبى تجاه الامبراطورية البيزنطية**: إذ أن المعاناة التى لقيها الإمبراطور الألمانى كونراد الثالث وكذلك الملك الفرنسى لويس السابع من خلال الطريق البرى الذى مر بمناطق بيزنطة أكد العداء المتأصل بين الطرفين وهو عداء سيتراكم طول القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى حتى يصل إلى ذروته مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى.

---

(1) أخبار الروضتين (1/ 190).
(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين فى الشرق الأدنى ص 117.
(3) أخبار الروضتين (1/ 191).
(4) أخبار الروضتين (1/ 193).

* **أثرت تلك الحملة على طبيعة الوجود الصليبي في الشرق**: فالملاحظ أن الحركة الصليبية ارتبطت بحلف دفاعي استراتيجي مع الغرب الأوروبي، الذي وفر لها كل دعم مادي ومعنوي من أجل القيام والنمو والازدهار، بل وفر لها كل حماية ممكنة وسط المحيط الإسلامي المعادي، والآن بعد المصير الذي وصلت إليه الحملة الثانية بكل الآمال التي علقت على نجاحها، اتضح لنا بجلاء، أن اعتماد الصليبيين على الدعم الأوروبي الخارجي خلال تلك الحملة الفاشلة، لم يغنهم شيئاً، بل يضمن لهم الاستمرار بقوة من احتلال مناطق المسلمين طالما أن أطماعهم لا تحد، وجشعهم ليس له حدود.لقد ظل الوجود الصليبي في الشرق أشبه شيء برضيع لم يكتب له النمو الطبيعي من خلال ارتباطه المرضي بالوطن الأم في أوروبا، وظل الاعتماد على ذلك الوطن نقطة ضعف لذلك الوليد ليس لها حل حقيقي في آلية الصراع الصليبي الإسلامي[1] وهذا ما ينطبق على إسرائيل في هذا العصر.

* **عجز الكيان الصليبي بإمكاناته المحلية عن تغيير واقع عام 539هـ/ 1144م**: وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً. وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من الآن فصاعداً الإنجاز وراء الآخر حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة القدوم للمنطقة.

* **بروز نجم نور الدين محمود**: فالحملة المذكورة دعمت وجود نور الدين محمود في حلب إلى حد كبير، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية، إلا أنهم صاروا على علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث[2]، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام، بصورة أقوى، فقد اعترف الدماشقة ضمنياً بقوة نفوذه السياسي، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس، حليفة الأمس[3].

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 184

(2) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب ص 184.

(3) المصدر نفسه ص 185.

* **ضعف حكام دمشق**: والحملة المذكورة تلقى الضوء على مدى الضعف الذى وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبى عليها، ولذلك طلبت العون العسكرى الخارجي ولا ريب فى أن ذلك الوهن أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة على نحو جعله يخطط أكثر من ذى قبل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية وضم دمشق(1).

* **تدمير حصن العريمة**: استغل نور الدين محمود أول فرصة سنحت له للعمل المشترك مع معين الدين أنر فقد استعان رايموند أمير طرابلس بنور الدين ضد أحد أمراء الفرنجة الذين حضروا مع الحملة الفرنجية الثانية من ضمن الجيش الفرنسي هو برتراند كونت تولوز، لم يرجع هذا الأمير مع الجيش الفرنسي إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة. وإنما توجه إلى الشمال في البحر محاذيا للشاطئ حتى صار بمحاذاة إمارة طرابلس نزل إلى البر ومعه فرسانه، فاقتحم حصن العريمة التابع لإمارة طرابلس وتحصن فيه وأعلن عن نيته في الاستيلاء على طرابلس معتبراً نفسه أحق بها من أميرها رايموند، ولم يتمكن رايموند أمير طرابلس من التغلب عليه، فحاول الاستعانة بباقى الإمارات الفرنجية وعندما لم يجد منهم استجابة بعث يستنجد بنور الدين ومعين الدين اللذين بادرا بسرعة لحصار الحصن بقواتهما واستوليا عليه وأسرا كل من كان فيه ثم دمرا الحصن حتى استوى مع الأرض، وعاد كل منهم إلى مدينته(2)، وتدل هذه الحادثة على مدى الأثر السيئ الذى أحدثه فشل الحملة الفرنجية الثانية على وضع الإمارات الفرنجية فى المشرق الإسلامى(3).

* **كسر هيبة الصليبيين في نفوس المسلمين**: يعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول فى تاريخ الصراع الإسلامى – المسيحى، فبالإضافة إلى أنها أدت إلى انحطاط هيبة الصليبيين فى الشام مما شجع القوى

---

(1) المصدر نفسه ص 185.

(2) دور نور الدين محمود فى نهضة الأمة ص 97.

(3) المصدر نفسه ص 98.

الإسلامية على الإغارة بجرأة على الإمارات الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التى ظهر فيها نجم آخر من نجوم الجهاد الصليبى هو نور الدين محمود زنكى الذى أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين وهو المشروع الذى سيستكمله صلاح الدين فينجح فى التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية، ولقد نجح نور الدين فى استغلال الظروف التى أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية فى توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاده للصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة فى الرها وأنطاكية بل وتحالفوا أيضاً فى جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكى أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التى ستمتد من الفرات إلى النيل للتصدى بحق لهذا الخطر الصليبى[1] هذه هى أهم النتائج.

المبحث الرابع : فقه نور الدين فى التعامل مع الدولة الفاطمية

أولاً: جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين ممن نسبوا أنفسهم إلى جعفر الصادق: فرقة: ساقت الإمامية إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثنى عشرية. وفرقة: نفت عنه الإمامة وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية[2]. قال عبد القاهر البغدادى فى شأن الإسماعيلية: وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل[3]. وقال الشهرستانى : الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص

(1) السقوط ص 136.

(2) الدولة الفاطمية العبيدية للصلابى ص 35.

(3) الفرق بين الفرق ص 62.

عليه في بدء الأمر قالوا: ولم يتزوج الصادق رحمه الله على أمه – أم إسماعيل – بواحدة من النساء ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله في حق خديجة رضي الله عنها، وكسنة على رضي الله عنه في حق فاطمة رضي الله عنها[1]. فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب الإسماعيلية منها الباطنية، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويل، ومنهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان التعليمية الملحدة وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الإسم[2].

وقد قامت الدولة الفاطمية الرافضية عام 296هـ/909م في الشمال الأفريقي على يدى أبو عبدالله الشيعي بعد سقوط القيروان أمام قواته وهروب زيادة التغلبي إلى مصر في جمادى الآخرة عام 296هـ[3] وكانت بيعة عبدالله المهدى في القيروان عام 297هـ/910م وانتهت ولاية أبي عبدالله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين[4].

1– **عبيد الله المهدى الخليفة الشيعي الرافضي الأول**: هو عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء الخوارج العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة يستغوون الجبليَّة والجهلة[5]، وذكر ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعي بحيث إنَّ المعزَّ منهم لما سأله السيد ابن طباطبا عن نسبه، قال غداً أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرمة من الذهب، ثم جَذبَ نِصْف سيفه من غمده فقال: هذا نسبي،

---

(1) الملل والنحل (1/191).

(2) المصدر نفسه (1/192).

(3) موسوعة المغرب العربي (2/60).

(4) المرجع السابق (2/70).

(5) سير أعلام النبلاء (15/141).

وأمرهم بنهب الذهب، وقال : هذا حسبى[1] وأما مفتى الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوى فقد قال فى ترجمة عبيد الله المهدى: هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها وهو عراقى الأصل، ولد فى الكوفة سنة 260هـ واختبأ فى بلدة سلميَّة بؤرة الإسماعيلية الباطنية فى شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر فى سلميَّة كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن ميمون القداح، وفى منطقة سَلَمية مقر الإسماعيلية مات على بن حسن بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحى[2]، ثم قال: هذا أصل عبيد الله المهدى، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه[3] ويذكر أن عبيد الله الشيعى عندما دخل إفريقيا "يعنى تونس" : أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبى ﷺ وأزواجه حاشا على بن أبى طالب والمقداد وعمار بن ياسر وسلمان الفارسى وأبا ذر الغفارى، وزعم أن أصحاب النبى ﷺ ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين ذكروا[4]. وكان أهل السنة بالقيروان أيام بنى عبيد فى حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة[5] تجرى عليهم فى كثير من الأيام محن شديدة، ولما ظهر بنو عبيد أمرهم ونصبوا حسيناً الأعمى السباب - فى الأسواق للسب بأسجاع لُقنها يتوصل منها إلى سب الرسول ﷺ فى ألفاظ حفظها[6] مثل، العنوا الغار وما وعى والكساء وما حوى وغير ذلك والغار المقصود منه غار ثور الذى اختفى فيه الرسول ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه عن أعين المشركين التى كانت تطاردهم فى قصة الهجرة، وهذا اللفظ فيه سب للنبى ﷺ وأبى بكر على حد سواء وكذلك فيه سب لآل البيت الذين حواهم الكساء[7]. وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة

(1) المصدر نفسه (15/ 142)
(2) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص 253.
(3) الدولة الفاطمية العبيدية للصلاَّبى ص 47.
(4) جهود علماء المغرب فى الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 291.
(5) ترتيب المدارك (2/ 318).
(6) المصدر نفسه.
(7) جهود علماء المغرب فى الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 291.

مكتوب عليها أسماء الصحابة، واشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل ومُثل به[1].

2- من جرائم العبيديين في الشمال الإفريقي:

ارتكب الشيعة الرافضة الإسماعيلية جرائم نكرة منها:

أ- غلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدي: حتى إنه أنزله منزلة الإله وأنه يعلم الغيب، وأنه نبي مُرسل، يقول بدر الدين بن قاضي شهبة: وكان له (أي المهدي) دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه، وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم، فمنهم من يلقون إليه أن المهدي ابن رسول الله وحجة الله على خلقه، ومنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق[2] وأما زعمهم بأنه إله فيظهر من أفعال دعاته وأقوالهم وأشعارهم، فقد كان هناك رجل يدعى أحمد البلوي النحاس، يصلي إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها، وهي منه إلى المغرب، فلما انتقل إلى المهدية وهي منه إلى الشرق صلى إليها[3] باعتبار أنها مثل مكة المكرمة - شرفها الله - وهذا الاعتقاد كان سائداً عند كثير من الناس يومها، فهذا أحد شعراء بني عبيد يقول في المهدية بعد انتقال المهدي إليها:

ليهنك أيها الملك الهمام	**قدوم فيه للدهر ابتسام**
لقد عظمت بأرض الغرب دار	**بها الصلوات تقبل والصيام**
هي المهدية الحرم الموقى	**كما بتهامة البلد الحرام**
كأن مقام إبراهيم فيه	**ترى قدميك إن عدم المقام**
وإن لثم الحجيج الركن أضحى	**لنا بعراص قصركم التثام**
لك الدنيا ونسلك حيث كنتم	**فكلكم لها أبداً إمام[4]**

(1) المصدر نفسه ص 291.
(2) الكواكب الدرية في السيرة النورية ص 204 - 205.
(3) البيان المغرب (1/ 258 - 259).
(4) البيان المغرب (1/ 221).

ومن الشعر أيضاً فى تآليهه ما مدحه بن محمد البديل حيث يقول:

حل برقـادة المسـيح حل بهـا آدم ونـوح
حل بهـا أحـمـد المصطفى حل بهـا الكبش والذبيح
حل بهـا الله ذو المعـالى وكل شيء سـواه ريح

وأما زعمهم أنه كان يعلم الغيب، فيظهر من أيمان بعضهم حيث كان إذا أقسم يقول: وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذى برقادة[1] ومعرفة الغيب من خصوصيات الألوهية ولا يعمم الغيب إلا الله قال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)﴾ (النمل) وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩)﴾ (الأنعام) كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ﷺ: من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت. وجاءت الأحاديث فى النهى عن الحلف بالآباء[2].

ب- **التسلط والجور وإعدام كل من يخالف مذهبهم**، هذا بالإضافة إلى كل ما ذكرناه آنفاً على لسان القاضى عياض فى طعنهم فى الصحابة وتعليق رؤوس الأكباش - الدالة فى زعمهم - على أسماء الصحابة وغير ذلك من الأفعال القبيحة والشنيعة التى كانوا يقومون بها[3] وكان إجبار الناس على الدخول فى مذهبهم بوسيلة التخويف بالقتل، وقد نفذوا حكم الإعدام فى أربعة آلاف رجل مرة واحدة. قال القابسى: إن الذين ماتوا فى دار البحر - سجن العبيديين - بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل فى العذاب ما بين عالم وعابد ورجل صالح[4]. هذا عدا ما كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم فى شوارع

---

(1) المصدر نفسه (1/221).
(2) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص 90.
(3) جهود علماء المغرب ص 312.
(4) مدرسة الحديث بالقيروان (1/76).

القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهالي المغرب الإسلامي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بالكتاب والسنة.

جـ- **تحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك**: حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: هذا جزاء من يذهب مذهب مالك، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم، كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزئي: أبو عبدالله محمد بن العباس بن الوليد المتوفى في عام تسع وعشرين وثلاثمائة[1].

د- **إبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة**: والزيادة في بعضها كما فعلوا في زيادة: حي على خير العمل: في الأذان وإسقاط صلاة التراويح[2]، بعد أن تُرك الناس يصلونها عاما واحداً، ولهذا ترك أكثر الناس الصلاة في المساجد وياويح من يسقط عبارة: حي على خير العمل من الأذان، من ذلك ما روى أن عروس المؤذن ت 317هـ وكان مؤذناً في أحد المساجد، شهد عليه بعض الشيعة أنه لم يقل في أذانه: حي على خير العمل، فكان جزاؤه أن قطع لسانه ووضع بين عينيه وطيف به في القيروان ثم قتل[3]، إلا أن بعض العلماء فطن لكيد العبيديين وأغراضهم الخبيثة من وراء ذلك وهو إخلاء المساجد من المصلين، ودفعاً لهذه المفسدة أذنوا للمؤذنين أن يزيدوا، حي على خير العمل؛ لأن تركها يؤدي إلى مفاسد أعظم، ومن هؤلاء العلماء: أبو الحسن علي بن محمد بن مسرور العبدي الدباغ ت 359هـ[4]، الذي كان من أهل الورع والعبادة والخشوع فقد فطن لغرض العبيديين، فكان أن قال للمؤذنين: أذنوا على السنة في أنفسكم فإذا فرغتم فقولوا: حي على خير العمل، فإنما أراد بنو عبيد إخلاء المساجد. لَفعلكُم هذا – وأنتم معذورون – خير من إخلاء المساجد[5].

(1) رياض النفوس (2/ 56).
(2) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 309.
(3) البيان المغرب (1/ 182 – 183).
(4) ترتيب المدارك (2/ 525 – 528).
(5) ترتيب المدارك (2/526)

هـ- منع التجمعات: حرصت الدولة الفاطمية على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء[1]، وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها ﴿ ... مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (غافر).

و- إتلاف مصنفات أهل السنة: أتلفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد ابن أبي هاشم التجيبي ت 346هـ الذي توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها : ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه[2].

ز- **منع علماء أهل السنة من التدريس**: منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر بن اللباد شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بني عبيد[3]. وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليا، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

ح- **عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض** عمّن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فرواً مقلوباً دابّاً على يديه ورجليه فيقول لهم: (بَح) ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، ولا

---

(1) رياض النفوس (2/29).

(2) المصدر نفسه (2/423).

(3) مدرسة الحديث بالقيروان (1/76).

وضوء ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوبا فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم بَح، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر[1].

ط- **إجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال**: وكانوا كثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال[2]، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه ابن الحُبُلي قاضي مدينة برقة. قال الذهبي في ترجمته: الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحُبُلي أتاه أمير برقة، فقال: غداً العيد، قال: نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلّد إثمهم، فقال: لهذا جاء كتاب المنصور - وكان هذا من رأي العبيدية يفطرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية - فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تَنصَّلْ، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فعلق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقَ، ثم صلبوه على خشبة فلعنة الله على الظالمين[3].

ي- **إزالة آثار خلفاء السنة**: عمل حكّام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين فقد أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنو الحصون والمساجد وجعل اسمه بديلاً منهم واستول هذا الشيعي الرافضي الباطني على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العُبَّاد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح[4].

ك- **دخول خيولهم المساجد**: من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها

---

(1) رياض النفوس (2/504).

(2) مدرسة القيروان (1/73).

(3) سير أعلام النبلاء (15/374).

(4) رياض النفوس (2/29).

طاهرة؛ لأنها خيل المهدى، فأنكر عليهم قيِّم المسجد، فذهبوا به إلى المهدى فقتله، يقول ابن عذارى: وامتُحن عبيد الله فى آخر حياته بعلة قبيحة : دود فى آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك[1]. إن المسلمين المعاصرين يقرءون تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسى لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة، ولكن القليل من يذكر بطش هؤلاء الباطنية بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون المعز لدين الله الفاطمي وكأنه بطل من أبطال التاريخ، وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدى الإسلامي لتاريخنا، بل إن بعض المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق، أو بالفكر الشيعي الرافضي، وبذلت لهم الأموال لطمس الحقائق وتزوير التاريخ، ولا يزال الصراع الباطني والإسلامي ممتداً إلى يومنا هذا، فالأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح وأن أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة الصحيحة التي تلقتها الأمة من الحبيب المصطفى وأصحابه الغر الميامين وأهل بيته الطاهرين الطيبين رضى الله عنهم أجمعين.

3- **أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية العبيدية**: لقد سلك علماء السنة المغاربة في مقاومة التشيع أساليب عديدة، منها المقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية والمقاومة المسلحة، وكانت هناك أنواع أخرى من المقاومة، مثلاً عن طريق التأليف وعن طريق نظم الشعر .. إلخ.

أ- **المقاومة السلبية**: أولى الوسائل التي استعملها علماء المغرب السنة في مقاومة التيار الشيعي: الوسيلة السلبية، ونعنى بها: المقاطعة الجماعية التي قاطع بها علماء المغرب كل ما له صلة بالتشيع، أو بالحكم القائم وتمثلت تلك المقاطعة في مقاطعة قضاة الدولة وعمالها، ورفض من استطاع منهم دفع الضرائب لها[2]

(1) أبعيد التاريخ نفسه محمد العبده ص 39.

(2) مقدمة حسين مؤنس على رياض النفوس ص 17.

ومن مظاهر هذه المقاومة مقاطعة حضور صلاة الجمعة التي كانت مناسبة للعن أصحاب رسول الله على المنابر : فتعطلت بذلك الجمعة دهراً بالقيروان[1]، ومنهم من اكتفى بالدعاء عليهم كما فعل الواعظ عبد الصمد[2]، وكما كان يفعل أبو إسحاق السبائي الزاهد إذا رقى رقية يقول بعد قراءة الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين: وببغضي في عبيد الله وذريته، وحبي في نبيك وأصحابه وأهل بيته اشف كل من رقيته[3] . ومن مظاهر المقاومة السلبية أيضاً: مقاطعة كل من يسير في ركب السلطان واعتزاله وكل من كانت له صلة بهذا السلطان أو سعى إلى تبرير وجوده عملاً بقوله تعالى : ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... (٢٢) ﴾ (المجادلة) . فهذا خلف بن أبي القاسم البراذعي (ت نحو 400هـ)[4] قام عليه فقهاء القيروان بصلته بملوك بني عبيد وقبوله هداياهم وتأليفه كتاباً في تصحيح نسبهم، وزادت النقمة عليه عندما وجدوا بخطه الثناء على بني عبيد متمثلاً ببيت الحطيئة[5]:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

لذلك كله أفتى فقهاء القيروان بطرح كتبه وعدم قراءتها، وإزاء ذلك اضطر هو إلى الهجرة إلى الصقلية حيث حصلت له حظوة كبيرة عند أميرها[6] .

ب- **المقاومة الجدلية** : كانت المقاومة الجدلية هي أقوى وأوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة المغاربة ضد الشيعة الرافضة المنحرفين، وقد سطع في سماء هذه المساجلات العلمية والمناظرات العقدية عدد كبير من العلماء، وكانوا لسان أهل السنة الناطق والذاب عن بيضة هذا الدين، وممن لمع نجمه في ميدان

---

(1) البيان المغرب (1/ 277) .
(2) معالم الإيمان (3/ 237) .
(3) معالم الإيمان (3/ 71) .
(4) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 324 .
(5) المصدر نفسه ص 324 .
(6) المصدر نفسه ص 324 .

المناظرة الشيخ عبد الله بن التبان (ت371 هـ)[1] وقد اشتهر بسبب مناظرته لبني عبيد حتى ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار المختلفة لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة. وكان هذا الإمام - فضلاً عن براعته في الجدل والمناورة - شجاعاً مقداماً لا يهاب الموت، من ذلك ما ذكره المالكي والدباغ من أن عبد الله المعروف بالمحتال[2]، صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء، فاجتمعوا بدار ابن أبي زيد القيرواني فقال لهم ابن تبان: أنا أمضي إليه، أبيع روحي لله دونكم، لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم[3]. وفعلاً ذهب إليه وأقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه وبعد أن هزمهم في مجلس المناظرة لم يخجلوا أن يعرضوا عليه أن يدخل في نحلتهم ولكنه أبي وقال: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا ؟ لو نشرتموني في اثنتين ما فارقت مذهبي[4]، ولما خرج من عندهم بعد بأسهم منه تبعه أعوان الدولة الفاطمية العبيدية وسيوفهم مصلتة عليه ليخاف من يراه من الناس عن تلك الحال، فإذا به وهو تحت الضغط يهدى الناس ويقدم لهم النصيحة، ويقول لهم دون خوف ولا وجل: تشبثوا، ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام، فإن فارقتموه هلكتم[5]. وكان يخشى على العامّة من فتنة بني عبيد ويقول: والله ما أخشى عليهم الذنوب، لأن مولاهم كريم، وإنما أخشى عليهم أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار[6]. وممن اشتهروا بالذب عن الإسلام وأشهروا حجج الحق وبراهين العدل وإقامة الحجة على دعاة الدولة الفاطمية أبو عثمان سعيد بن الحداد (ت302هـ) لسان أهل السنة وابن حنبل المغرب، قال عنه السلمي: كان فقيها صالحاً فصيحاً متعبداً أوحد زمانه في المناظرة والرد على الفرقة[7]. وقال عنه

(1) ترتيب المدارك (2/517 - 524) شجرة النور الزكية (1/95 - 96).
(2) أحد عمال دولة بني عبيد.
(3) معالم الإيمان (3/113).
(4) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 327.
(5) المصدر نفسه ص 327.
(6) معالم الإيمان (3/91).
(7) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 328

الخشني: كان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة وله في ذلك مقامات مشهودة وآثار محمودة، ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب، حتى مثله أهل القيروان بأحمد بن حنبل[1]. وقال عنه المالكي: وكانت له مقامات في الدين مع الكفرة المارقين أبي عبيد الله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبيد الله أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم[2]، حاولت الدولة الفاطمية بالمغرب إجبار الناس على مذهبهم بطريقة المناظرة وإقامة الحجة مرة والتهديد بالقتل مرة أخرى، فارتاع الناس من ذلك ولجؤوا إلى أبي سعيد وسألوه التقية فأبى وقال : قد أربيت عن التسعين، وما لي في العيش حاجة، ولابد لي من المناظرة عن الدين أو أن أبلغ في ذلك عذراً ففعل وصدق، وكان هو المعتمد عليه بعد الله في مناظرة الشيعة[3]، ومن أشهر هذه المناظرات.

* **التفاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما :** وأول هذه المناظرات كما يذكر صاحب المعالم حول التفاضل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما، فبعد الاجتماع بين ابن الحداد وأبي عبيد الله الشيعي؛ سأل أبو عبدالله الشيعي ابن الحداد : أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب الكساء غيرهم ؟ يعني بأصحاب الكساء : محمداً ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، ويعني بغيرهم : أبا بكر رضي الله عنه - فقال أبو عثمان : أيما أفضل ؟ خمسة سادسهم جبريل عليه السلام؟ أو اثنان الله ثالثهما ؟[4] فبهت الشيعي.

* **موالاة علي رضي الله عنه :** في هذه المناظرة أراد عبيد الله الشيعي أن يثبت أن الموالاة في قوله ﷺ : من كنت مولاه فعلي مولاه[5]. بمعنى العبودية : قال له : فما بال الناس لا يكونون عبيداً لنا ؟ فقال ابن الحداد : لم يرد ولاية رق وإنما أراد ولاية الدين، ونزع بقوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**

---

(1) طبقات الخشني ص 199 معالم الإيمان (2/ 209).

(2) رياض النفوس (2/ 75).

(3) معالم الإيمان (2/ 298) جهود علماء المغرب ص 329.

(4) سنن الترمذي. وتحفة الأحوذي رقم 3797 حسن غريب.

(5) المصدر نفسه.

﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (آل عمران) فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلي رضي الله عنه لم يكن نبياً وإنما كان وزيراً للنبي ﷺ[1] هذه إشارات عابرة وهي جزء صغير من مجموع المناظرات التي دارت بين الفريقين.

ج- **المقاومة المسلحة**: لم يكتف علماء المغرب بالمقاومة السلبية والمقاومة الجدلية، بل منهم من حمل السلاح وخرج ليقاتلهم، فهذا جبلة بن حمود الصدفي ترك سكن الرباط ونزل القيروان، فلما كلم في ذلك قال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر، والآن حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك وقال: جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك[2]. واستدل بقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ... ﴿١٢٣﴾﴾ (التوبة) ومنهم الإمام أبو القاسم الحسن بن مفرج ت 309هـ الذي كان من أوائل من خرج على الشيعة ومات شهيداً، قتله عبيد الله المهدي وصلب هو ورجل يدعى أبا عبدالله السدري الذي كان من الصالحين وكان قد بايع على جهاد عبيد الله وجعل يحث الناس على جهاده فبلغ خبره عبيده الله، فأمر بقتله[3]، ثم إن العلماء خطوا خطوة أكبر بإصدار فتوى بوجوب قتال الدولة الفاطمية العبيدية وكان ذلك بعد اجتماع وتشاور بين علماء السنة وتحالفوا مع أهل القبلة ضد الفاطميين الذين حكموا عليهم بالكفر لمعتقداتهم الفاسدة. قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني: خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي رحمه الله مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عبيد مع أبي يزيد، فكان أبو إسحاق يقول ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد: هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة - يريد عسكر بني عبيد - فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من "هو" على غير القبلة فإن ظفرنا بهم لم ندخل

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 331.
(2) معالم الإيمان (2/185) جهود علماء المغرب ص 337
(3) رياض النفوس (2/169 - 172).

تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله عز وجل يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا. والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبدالملك مروان نصروان وأبو إسحاق السبائي وأبو الفضل وأبو سليمان ربيع بن القطان[1] وغيرهم كثير[2] وفي الموعد المحدد خرج العلماء ومن ورائهم وجوه القوم وعامتهم في أعداد غفيرة لا يحصيهم عدٌّ، ولم يتخلف من العلماء والصلحاء أحد إلا العجزة، ومن ليس عليهم حرج، وكان ربيع القطان من طليعة الصفوف راكباً فرسه، وعليه آلة الحرب متقلداً مصحفه وهو يقول: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك[3] وقد أبلى العلماء في تلك المواجهة بلاء حسناً، وقدموا صور حقيقية للجهاد في سبيل الله لأعداء الإسلام، واستشهد منهم ما لا يقل على الثمانين عالماً، منهم ربيع القطان والمميسي وغيرهما، وحققوا انتصاراً باهراً وكادوا يستولون على المهدية، لولا أن ساعة الغدر حلت ورجعت الكرة عليهم، حين خدعهم أبو يزيد وأسفر عن وجهه القبيح المناوئ لأهل السنة وأمر جنده أن ينكشفوا عنهم بقوله: إذا التقيتم مع القوم فانكشفوا عن أهل القيروان حتى يتمكن أعداؤكم من قتلهم لا نحن فنستريح منهم[4]. وكان غرضه من تلك الفعلة الشنيعة والخدعة المنكرة: الراحة منهم لأنه فيما ظن إذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء فيتبعونه[5] فهزم شر هزيمة حيث انضم عدد غير قليل من جنده إلى صفوف عدوه ولم يبق له من الجند إلا القليل، وقتل شر قتلة، وكانت نهايته يوم 30 محرم سنة 336هـ[6]، وقد أثرت هذه المواجهة بين السنة والشيعة على الساحة المغربية فيما بعد، حيث استمرت المقاومة فيمن جاء بعدهم

---

(1) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي ص 78.
(2) المصدر نفسه ص 78.
(3) معالم الإيمان (3/37 – 42).
(4) البيان المغرب (1/218).
(5) البيان المغرب (1/218).
(6) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 344.

حتى بعد خروج بنى عبيد من المغرب، فكانوا يبحثون عن مراكز وجود الشيعة، فإذا عثروا عليهم قتلوهم وسلبوا أموالهم، فقد ذكر ابن عذارى فى البيان المغرب أنه: كان بمدينة القيروان قوم يتسترون بمذهب الشيعة من شرار الأمة انصرفت العامة إليهم من فورهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً رجالاً ونساءً وانبسطت أيدى العامة على الشيعة وانتهبت دورهم وأموالهم[1]، ويصف القاضى عياض هذه الحادثة: وكان ابتداء ذلك اليوم الجمعة منتصف المحرم، قتلت العامة الرافضة أبرح قتل بالقيروان وحرقوهم وانتهبوا أموالهم، وهدموا دورهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وجروهم بالأرجل، وكانت صيحة من الله سلطها عليهم، وخرج الأمر من القيروان إلى المهدية وإلى سائر بلادهم فقتلوا وأحرقوا بالنار، فلم يترك أحد منهم فى إفريقية إلا من اختفى[2]. وهكذا كان هذا النوع من المقاومة هو أشد الأنواع وأنكاها، طهر الله به أرض المغرب من بدعة التشيع الباطنى الرافضى.

د- **المقاومة عبر التأليف**: وكانت المقاومة عبر التأليف من الوسائل المجدية والنافعة فى مقاومة الشيعة والتى كان لها أثر طيب فى إقلاقهم وقض مضاجعهم وإعلانهم الحرب على من يفعل ذلك، كما كان لها أثر فى تبصير العامة بالحق وإرساء دعائم السنة وكانت هذه المؤلفات تنقسم إلى نوعين:

* المؤلفات التى تتناول مسائل العقيدة جملة وفق منهج أهل السنة والجماعة، ومن بين المسائل التى تتناولها مسألة الإمامة عند أهل السنة وأفضلية أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهما، وشرعية خلافة الثلاثة خلافاً للشيعة الرافضة والترضى عن أصحاب رسول الله جميعاً من غير تفريق بينهم، واعتبارهم جميعاً عدولاً خلافاً للشيعة الذين يكفرونهم ويفسقونهم عدا نفر قليل منهم. فهذا النوع من التأليف كان له أثر عميق فى تبصير الناس بدينهم ونشر المذهب الحق فيهم، حتى أصبحوا يعتبرون كل من خالف هذه العقيدة مخالفاً

(1) البيان المغرب (1/ 268).
(2) ترتيب المدارك (2/ 625).

للإسلام وخارجاً عن جماعة المسلمين يجب فيه كل ما يجب في الكافر من المعاداة والقتال والمقاطعة وغير ذلك من المعاملة، لعله يرتدع ويرجع ويتوب[1].

* والنوع الثاني: المؤلفات التي ألفت للرد على الشيعة خاصة وعلى عقائدهم الباطلة: وهذا النوع من التأليف - كما سبق الحديث عنه - جاء نتيجة ظروف خاصة أوجبت على أهل السنة الرد عليهم، وتفنيد شبههم ودحض باطلهم. من هذا الصنف من المؤلفات نذكر كتابي "الإمامة" اللذين ألفهما الإمام محمد بن سحنون، وهما أعظم ما ألف في هذا الفن، يقول عيسى بن مسكين: وما ألف في هذا الفن مثلهما[2]، وكتاب الإمامة للإمام إبراهيم بن عبد الله الزبيري، وكتاب الرد على الرافضة له أيضاً، واللذان كانا السبب في محنته وسجنه وضربه من قبل الدولة الفاطمية العبيدية، فهذا النوع كان له أثره في المقاومة[3].

هـ- **مقاومة شعراء أهل السنة**: إلى جانب وسيلة التأليف كانت هناك وسيلة نظم الشعر لهجو بني عبيد وذمهم، وقد برز في هذا الميدان كثير من الشعراء منهم: أبو القاسم الفزاري، فقد وصفهم ووصف سلوكهم فقال:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم ... نالوا بهم سبب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم ... فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق في ... أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن الأسود نابحاً ... وأبا قدارة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا ... عمن أصارهم الإله نجوما
أمن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هم ... دهرية جعلوا الحديث قديما
أم هم من الصابئين أم من عصبة ... عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما

---

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة ص 349.
(2) المصدر نفسه ص 349
(3) المصدر نفسه ص 349

أم هم زنادقة معطلة رأوا ... أن لا عذاب غداً ولا تنعيما
أم عصبة ثنوية قد عظموا ... النورين عن ظلماتهم تعظيما
سبحان من أبلى العباد بكفرهم ... وبشركهم حقباً وكان رحيما
يارب فالعنهم ولقهم ... بأبي يزيد من العذاب أليما[1]

ومن أشهر ما قاله قصيدته الرائية التي انتشرت في الآفاق والبلدان والتي قال فيها:

عجبت لفتنة أعمت وعمت ... يقوم بها دعي أو كفور
تزلزلت المدائن والبوادي ... لها وتلونت منها الدهور
وضاقت كل أرض ذات عرض ... ولم تغن المعاقل والقصور
فنجى القيروان وساكنيها ... إله دافع عنها قدير
أحاط بأهلها علماً وخبراً ... وميز ما أكنته الصدور
وجللهم بعافية وأمن ... وأسبل فوقها ستر ستير
وأثبت جلة العلماء فيها ... بحار لا تعد ولا بحور
ومنها سادة العلماء قدما ... إذا عُدوا وليس لها نظير
وفيها القوم عباد خيارا ... فقد طاب الأوائل والأخير
هم افتكوا سبايا كل أرض ... وفادوا ما استبد به المغير
كفيناهم عظائمها جميعاً ... فزالت عنهم تلك الشرور
وسكنّا قلوباً خافقات ... أمات عروقها ضر ضرير
وأوينا وآسينا وكنا ... لهم أهلاً وأكثرهم شطير
فبات طعامنا لهم طعاماً ... هناك ودُورنا للقوم دور

(1) رياض النفوس (2 / 494 - 495).

وكـــان لـنـا ثواب الله ذُخـــراً — وقـــام بشكرنا منهم شكور
ولولا القـيـروان وسـاكنوها — لغاب طعامهم والمخ[1] ريرُ
وليس لنا كما لهم حصون — ولا جبل أعاليه وعور
ولا سور أحاط بنا ولكن — لنا من حفظ رب العرش سُورُ
ولا نأوي إلى بحر وإنا — إذا قضى القضا تُنحَى البحُورُ
ولكنا إلى القرآن نأوي — وفي إيماننا البيض الذكور
عقائق كالبوارق مرهفات — بها تحمي الحرائم والثغور
وسُمر في أعاليهن شهب — بها ظمأ مواردها النحور

إلى أن قال:

وإنا بعد من خوف وأمن — نحب إذا تشعبت الأمور
رسول الله والصديق حبا — به ترجي السعادة والحبور
وبعدهما نحب القوم طُرًا — وما اختلفوا فربهم غفور
ألا بأبي وخالصتي وأمي — محمد البشير لنا النذير
سأهدى ما حييت له ثناء — مع الركبان ينجد أو يغور[1]

4- **المعز لدين الله الفاطمي ودخوله مصر**: كان يتابع أحوال حكام وأمراء مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدى في سنة 355هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، وجمع الأموال الجزيلة واختار جوهر الصقلي قائداً لتلك الجيوش التي كانت تزيد عن مائة ألف، وأمر المعز كل

---

(1) رياض النفوس (2/ 493).
(2) رياض النفوس (2/ 494).

أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا فى ركاب جوهر الصقلى، وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطنى إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة فى خمس عقود متتالية فى الشمال الإفريقى، رافضين المذهب الباطنى معلنين عقائد أهل السنة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدى التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسمومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة طلباً من أعوانه وسعياً للقضاء على الدولة العباسية. وفى جماد الآخرة سنة 358هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة جوهر الصقلى الذى لم يجد أى عناء فى ضمها لأملاك العبيديين. وجوهر الصقلى هذا هو الذى بنى الأزهر الذى تم بناؤه سنة 361هـ ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الإسماعيلى الباطنى، وبعد أن مهدت مصر للمعز الفاطمى العبيدى جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر، ليتولى أمرها فأسند زعامة الشمال الإفريقى إلى الأمير الصنهاجى بلكين بن زيرى وضم العز إلى مصر كلاً من طرابلس وسرت وبرقة وكان معه شاعره الذى غالى فى مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسى الذى قال:

فكأنما أنت النبى محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار

ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

هذا الذى تجدى شفاعته غداً ... حقا وتُخمد أن تراه النار

ومن شعره فى المعز:

النور أنت وكل نور ظلمة ... والفوق أنت وكل فوق دون

فارزق عبادك فضل شفاعة ... وأقرب بهم زُلفى فأنت مكين

ومنه:

تدعوه منتقماً عزيزاً قادراً ... غفاراً موبقة الذنوب صفوحاً

أقسمت لولا أن دُعيت خليفة ... لدُعيت من بعد المسيح مسيحاً

شهدت بمفخرك السموات العلا | وتنزل القرآن فيك مديحاً

ومنه :

وعلمت من مكنون سر الله ما | لم يؤت في الملكوت ميكائيلا
لو كان آتي الخلق ما أوتيته | لم يخلق التشبيه والتأويلا

وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في 362هـ وقتل ابن هانئ في برقة في رجب سنة 362هـ وهو في الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة وتأسف المعز على قتله وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك[1]، واستمر المعز في سيره حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم 23 من شعبان سنة 362هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر وامتد ملك المعز من سبتة بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي. وبقي المعز في مصر سنتين ونصف وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة 365هـ ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة[2].

قال الذهبي : ظهر في هذا الوقت الرفض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجار والغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويْه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج، وخَرَسٌ فعزلوه، وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن[3].

5- زوال الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا : استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر وأثروا في بعض الوزراء والأمراء - الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة

---

(1) الفتح العربي في ليبيا ص 362.
(2) المصدر نفسه ص 362.
(3) سير أعلام النبلاء (15/113، 114).

على علماء أهل السنة – واستطاع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الصنهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز إفريقية في ذى الحجة سنة 406هـ وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الرافضة، وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة ومبغض للمذهب الشيعي الباطني واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذى تم على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي. وقد وصف الذهبي المعز بن باديس فقال: وكان ملكاً مهيباً، وسريا شجاعاً عالي الهمة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمادة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه[1]، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الفاطمي بمصر الذى هدده فيه وقال له: هلا اقتضيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائك وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم[2]، وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضة الباطنية ولحكام مصر وظهر ذلك في عام 435هـ عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسبب أصحاب رسول الله ﷺ، فأوعز للعامة وللجنوده بقتل من يظهر الشتم والسب لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفي الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذى أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز، فقد قال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

(1) المصدر نفسه (18/ 140).

(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزاوى ص 289.

وســـوف يقـــتلون بكل أرض — كـمـا قـتلوا بأرض القـيـروان

وقال آخر:

يا معـز الدين عـشى فى رفـعة — وسـرور واغـتـبـاط وجـذل

أنت أرضـيت النبى المصطفى — وعـتـيـقـاً فى الملاعـين السـفل

وجـعلت القـتل فـيـهـم سنة — بأقـاصى الأرض فى كل الدول(1)

واستمر المعز بن باديس فى التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير فى تخطيطه للانفصال الكلى عن العبيديين فى مصر، فجعل المذهب المالكى هو المذهب الرسمى لدولته وأعلن انضمامه للخلافة العباسية وغير الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وأحرق أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم وأمر بسبك الدراهم والدنانير التى كانت عليها أسماء العبيديين والتى استمر الناس يتعاملون بها 145سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها : لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ (آل عمران) وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة والإباضية، وفى سنة 443هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له، وكان أول من قاد حملة التطهير على الشيعة الإسماعيلية فى طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة على بن محمد المنتصر وكنيته أبو الحسن المتوفى عام 432هـ(2).

6- جهود السلاجقة فى حماية العراق من التشيع الرافضى الباطنى : كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم فى نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذى ساد بلاد العراق، فأرسل الخليفة الفاطمى الظاهر لإعزاز دين الله

(1) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، لطاهر الزاوى ص 289.

(2) تاريخ الفتح العربى ص 290، 291.

الفاطمي الدعاة إلى بغداد سنة 425هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس[1]، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر، ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وعرف أحياناً بالمؤيد فقط، وقد نجح هذا الداعية في التأثير على البساسيري أحد القادة العسكريين في الدولة العباسية، وقد استطاع البساسيري أن يستولي على بغداد ويزيح الخليفة القائم بأمر الله وإقامة الخطبة فيها للفاطميين، وانقطعت دولة بني العباس من بغداد وأخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخطب لبني عبيد - الفاطميين - في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر[2].

وحاول البساسيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش بن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش العقيلي - صاحب حديثة - بالتحفظ على الخليفة وتأمين حياته، وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخليفة القائم بأمرالله بالرحيل إلى حديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعترافه بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام[3]، ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وشباكه[4]، وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وكان البساسيري قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار الخلافة وجمع العيّارين وأطمعهم في نهب دار الخلافة ونهب أهل الكرخ - الشيعة - دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدّمغاني، وهلك أكثر السّجلات والكتب الحكيمة وبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بالخليفة وأعادت الروافض الأذان

(1) دولة السلاجقة للصّلاّبي ص 54.

(2) أخبار الدول المنقطعة (3/430).

(3) الخطط للمقريزي (1/439).

(4) الشباك: هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافته.

بحيَّ على خير العمل، وأُذن به في سائر جوامع بغداد في الجُمعات والجماعات، وخطب ببغداد للخليفة الفاطمي وضربت له السِّكة على الذهب والفضة وحُوصرت دار الخلافة واعتقل رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المسلمة ووبخه البساسيرى ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً واعتقله مهانا عنده ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يُحصي ما أخذوا منها من الجواهر والنَّفائس والديباج والأثاث والثياب وغير ذلك مما لا يُحَدُّ ولا يُوصف. وفي يوم عيد الأضحى في سنة 450هـ ألبس البساسيرى الخطباء والمؤذنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر صاحب مصر، والشيعة الرَّافضة في غاية السرور والأذان في سائر العراق بحيَّ على خير العمل، وانتقم البساسيرىُّ من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرَّق خلقاً ممَّن كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا. ولما كان يوم الاثنين ليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقبُ برئيس الوزراء وعليه جبَّة صوف وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملاً[1]، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلقَان المداسات وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأوقف بإزاء دار الخلافة وهو في ذلك يتلو ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ (آل عمران) فألبس جلد ثور بقرنيه وعُلق بكلّوب في شدقيه ورفع إلى الخشبة حيًا، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه: الحمد لله، الذى أحياني سعيداً وأماتني شهيداً[2].

من خصائص النفسية الشيعية الرافضية الباطنية الثابتة عبر التاريخ اتباع أسلوب التذلل والتمسكن والتودد عند الضعف ولكن متى استشعروا القوة، فإنها تمارس أشد أنواع الطغيان والنهب والبطش والانتقام، وكان طغرل بك السلطان

(1) البداية والنهاية (15 / 759).

(2) دولة السلاجقة للصلابي ص 82.

السلجوقي الذى أزاح البويهيين كان خارج العراق بجيوشه يحارب المنشقين عنه ويمكن لدولته، ولما قضى على الفتن كرّ بجيوشه على بغداد وأعاد الخليفة العباسي إلى الخلافة بعد فكاكه من أسره واستطاع ملاحقة البساسيرى وقتله وعادت العراق إلى الخلافة العباسية السنية من جديد . وقد فصلت هذه الأحداث التاريخية في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي . وقد أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية[1] ودعاتهم بالحزم والشدة فتعقبوا دعاة الفاطمية الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس، كما قاموا بإقصاء الموظفين المتشيعين للمذهب الإسماعيلي على دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم[2].

7- المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدى للفكر الشيعي الرافضي: بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام 455هـ فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح على المدى البعيد إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة، إمامية كانوا أو إسماعيلية، نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة، وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان[3] فقد كانت الدولة الفاطمية تقوم بإعداد الدعاة من خلال جامع الأزهر الذي جعلوا منه مؤسسة تعليمية تعنى

(1) المصدر نفسه ص 68.
(2) المصدر نفسه ص 68.
(3) المصدر نفسه ص 291.

بنشر مذهبهم فى عام 378هـ[1].

هذا بالإضافة إلى البرامج التعليمية التى كانت تعد بعناية خاصة فى عاصمة الدولة الفاطمية لإعداد الدعاة وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلى، وكان لذلك أثر فى رواج هذا المذهب فى بعض مناطق الشرق الإسلامى نتيجة لهذه الجهود المنظمة المستمرة فى نشر هذه الدعوة[2]، لذلك كله فكر نظام الملك فى أن يقاوم النفوذ الشيعى بنفس الأسلوب الذى ينتشر به، ومعنى ذلك أنه رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً[3]، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحى الإلهى، ومن هنا كان تفكيره فى إنشاء المدارس النظامية التى نسبت إليه، لأنه الذى جد فى إنشائها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة، فكان من الطبيعى أن تنسب إليه من دون السلاجقة[4]. وقد وفق الله نظام الملك توفيقاً قلّ نظيره فى التاريخ السياسى والعلمى والدينى فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التى طاولت الزمن زهاء أربعة قرون، إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس الفيروز آبادى المتوفى سنة 817هـ حيث زالت فى نهاية القرن التاسع الهجرى[5] وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السنى الشافعى وزودت الجهاز الحكومى بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء وهى من أهم وظائف الدولة فى ذلك العصر، وانتشر هؤلاء فى العالم الإسلامى حتى اخترقوا حدود الباطنية فى مصر وبلغوا الشمال الأفريقى ودعموا الوجود السنى بها. لقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التى رسمها نظام الملك فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا منها يرحلون إلى

(1) المصدر نفسه ص 291.
(2) التاريخ السياسى والفكرى ص 179.
(3) المصدر نفسه ص 179.
(4) المصدر نفسه ص 179
(5) نظام الملك ص 401.

أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعي والحديث الشريف، ونشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا، أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية الهامة في دواوين الدولة. وينقل السبكي عن أبي إسحاق الشيرازي – أول مدرس بنظامية بغداد – قوله: خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي[1]، وقد ساهمت هذه المدارس في إعادة دور منهج السنة في حياة الأمة بقوة، وكان من أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الرافضة[2]. وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين كي يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات وتتمثل في العمل على سيادة الإسلام الصحيح وخاصة في المناطق التي كانت موطناً لنفوذ الشيعة، في تلك المرحلة، كالشام ومصر وغيرها[3].

إن من الأخطار العظيمة التي تواجه الأمة اليوم المشروع الباطني الجديد النشط في أنحاء المعمورة، وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظمائها، فهل نستلهم الدروس ونستخرج العبر ونعمل بالسنن والقوانين الإلهية في الدعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به محمد ﷺ، فيكون من حكامنا، مثل ألب أرسلان في شجاعته، ومن وزرائنا كنظام الملك في همته وغيرته، ومن علمائنا كالجويني والغزالي والبغوي والجيلاني وعلماء المغاربة الأفذاذ في دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة، وقضايا الفكر الإسلامي الصحيح، ونوظف الوسائل الحديثة في بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب

(1) طبقات الشافعية (3/89).

(2) دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ص 203.

(3) المصدر نفسه ص 304.

والندوات والمؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله والدار الآخرة ومرافقة النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين.

8- **جهود الإمام الغزالي في دحر الشيعة الباطنية**: كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني، وهذا الأمر لم يكن بالأمر السهل، بل كان نتيجة لجهود مضنية وتضحيات رائعة وتكاتف للجهود. وقد كان من أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي - العالم السني - على قمة المفكرين الذين شنوا حربا شعواء على الشيعة الرافضة الباطنية، إذ يذكر هو: أنه ألف في ذلك كتباً عدة، أشهرها: فضائح الباطنية، الذي كلف بتأليفه في 487هـ من قبل الخليفة المستظهر[1]، على أن الشيء المثير للإعجاب هو شجاعة الغزالي في حملته على الإسماعيلية الباطنية جاءت في وقت انتشر فيه دعاتهم في فارس وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع، وهددوا أمن الناس وسلامتهم، وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع، فشملت كثيراً من الساسة والمفكرين وعلى رأسهم نظام الملك نفسه، والغزالي قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة، مع رغبة الغزالي العالم السني في القيام بواجبه في الدفاع عن الإسلام الحقيقي[2]، وهذا شيء جميل لما تلتقي جهود السلطة السياسية مع علمائها في تحقيق أهداف الإسلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمع والدولة، كالذي قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر والنفوذ الشيعي الباطني، فقد كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت بالفلسفة والعقيدة الباطنية وظهرت في مظهر ديني سياسي، فكانت كما يقول الأستاذ الندوي: أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور[3]، وأما الباطنية فكانت تتسرب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه، وكان لها الإغراءات المادية القوية، ولم

(1) دولة السلاجقة للصلابي ص 380

(2) رجال الفكر والدعوة (1 / 204) الغزالي للقرضاوي ص 57.

(3) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة ص 147.

يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها والكشف عن أسرارها ونقض ما تبنى عليه دعوتها من الغزالي وكان لكتابات الغزالي، أثر قوى في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوى وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوى في مقاومة الباطنية وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الباطني وقال فيهم كلمته التي طار بها الركبان وسارت مسير الأمثال : ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة في شيء وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام[1] ومما يذكر للغزالي : استمراره على نقد هذه الطائفة وكشف اللثام عن تناقض أفكارها وفضائح أعمالها وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد قد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير الوزير نظام الملك، وكان الشيعة الباطنية تهدد كل من يرونه خطراً عليهم من رجال الملك أو رجال العلم بالانتقام في صورة طعنة في خنجر، أو سم يدس في طعام أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها ونفذوها بكل دقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له[2]. وهذا درس وتذكير للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الباطنيين الجدد، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم، ويخافون من القتل والاغتيال أو تهمة الطائفية، وبعضهم وقع تحت تأثير إبر التخدير الباطنية ومجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة أو حسابات دنيوية زائلة، ولذلك تركوهم يعيثون بعقائد الأمة ومقدساتها، وساهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين مع علم هؤلاء العلماء بخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقها، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم.

---

(1) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص 60.

(2) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه ص 62.

ثانياً: الحملات النورية العسكرية على مصر:

قام الوزير الفاطمي ابن السلار السني المذهب بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال ويقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية، وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلار أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفي نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة غزة، وفي حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين أوضح له مدى انشغاله بأمر دمشق وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفواطم؛ إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد في قبضته[1]، ويلاحظ أن ابن السلار استمر في صراعه مع الصليبيين فجهز في عام 546هـ/ 1151م أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية وبلغ ذلك. وقد تحدث الذهبي عن ابن السلار فقال: وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً مهيباً شافعياً سنياً، ليس على دين العُبيدية، احتفل بالسِّلفي، وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف[2] وجبروت. وتجددت المحاولات السابقة في عهد وزارة طلائع ابن رزيك الذى اتصل بنور الدين محمود عن طريق أسامة بن منقذ، غير أن نور الدين لم يتعجل وكان يرأى أن الفرصة المناسبة لم تأت بعد، وكانت بين أسامة بن منقذ والملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رُزِّيك مسجلات شعرية منها ما قاله طلائع بن رُزيك:

فقولوا لنور الدين لا فُل حدُّه ... ولا حَكَمت فيه الليالي الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تَهِن ... وتُظهر فتوراً إن مضت منك حازم[3]

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص 83.
(2) اتعاظ الحنفا (3 / 202).
(3) سير أعلام النبلاء (20 / 282).

ومنها مما كتبه إلى أسامه بن منقذ :

يا سَيداً يسموا بهمتّه إلى الرُّتب العَليَّة
فينال منها حين يُحرم غيره أوفى مزيَّة
أنت الصديق وإن بعدت وصاحب الشيَم الرَّضية
نُنبيك أن جيوشنا فعلت فعال الجاهلية
سارت إلى الأعداء من أبطالها مئتا سَريَّة
فتُغيرُ هذى بُكرةً وتُعاوِدُ الأخرى عَشيَّة
فالويل منها للفرنج فقد لقوا جهد البَليَّة
جاءت رؤوسهُم تلوح على رؤوس السَّمهريَّة
وقلائع قد قُسمتْ بين الجنود على السَّويَّة
وخلائقٌ كثرت من الأسرى تقادُ إلى المنية
فانهض فقد أنبيت مجد الدين بالحال الجَليَّة
والمم بنور الدين وأعلمه بهاتيك القضيّة
فهو الذى ما زال يخلص منه أفعالاً ونيَّة
ويُبيد جمع الكفر بالبيض الرقَاق المشرفية
فعساه ينهض نهضة يفني بها تلك البقيَّة
إمَّا لنُصرة دينه أو ملكه أو للحميَّة[1]

وكتب إلى أسامة بن منقذ أيضاً فقال :

قل لابن منقذ الذى قد حاز فى الفضل الكمالا
فلذلك قد أصحى الأنام على مكارمه عيالا

(1) أخبار الدولتين (1/ 366) .

كم قـد بعـثنا نحـوك ... الأشـعـار مـسـرعـة عـجـالا
وصـددت عنهـا حـين رامت ... من مـحـاسنك الوصَـالا
هـلاَّ بَذَلْتَ لنـا مـقـالا ... حـين لم تبـذُل فـعـالا
مع أنَّنا نُوليك صـبـراً ... في المودة واحـتـمـالا
ونـبـثُّك الأخـبـار إن ... أضـحـت قـصـاراً أو طِوالا
سـارت سَـرايانا لقـصـد ... الشـام تعـتـسف الرمـالا
تُـزجـي إلـى الأعـداء ... جُـرد الخـيل أتبـاعـاً توالى[1]

إلى أن قال:

فـلـو أنَّ نـور الـديـن ... يجـعل فـعلنا فـيـهم مـثـالاً
ويُـسَـيِّـرُ الأجناد جـهـراً ... كـي يُـنـازِلَـهـم نـزالا
ووفـى لـنـا ولأهـل دولتـه ... بما قـد كـان قـالا
لـرأيت لـلإفـرنـج طُـرًّا ... في مـعـاقلهـا اعـتـقـالا
وتجـهَّـزوا للسَّـيـر نحـو ... الغـرب أو قـصـدوا الشَّـمـالا
وإذا أبـى إلاَّ اطَّـراحـاً ... للنصـيـحـة واعـتـزالا
عُـدنا بتـسـليم الأمـور ... لحكم خـالقنا تعـالى[2]

فأجابه بن منقذ بقصيدة منها:

يا أشـرف الوزراء أخـلاقـاً ... وأكـرمـهـم فـعـالا
نَبَّـهـتَ عـبـداً طالما ... نَبَّـهـتـه قـدراً وحـالا
وَعَـتَـبْـتَـه. فـأَنَلْتَـهُ ... فـخـراً ومـجـداً لن يُنالا

---

(1) كتاب الروضتين (1/368).
(2) المصدر نفسه (1/369).

لكن ذاك العَتْبَ يُشعِلُ   في جوانحه اشتعال

إلى أن قال:

واشدُدْ يديك بود   نور الدين والقَ به الرجالا

فهو المحامي عن بلاد   الشام جمعاً أن تُذالا

ومُبيدُ أملاكِ الفرنج   وجمعهم حالاً فحالا

مَلِكٌ يتيه الدهر   والدنيا بدولته اختيالا

جمع الخلال الصالحات   فلم يَدع منها جلالا

فإذا بدا للناظرين   رأت عيونهم الكمالا

فبقيتما للمسلمين   حِمىً وللدُّنيا جمالا[1]

ولم يدخل نور الدين في تحالف عسكري مع طلائع بن رُزيك إلا أنه اهتم بالاتصالات الدبلوماسية، وقد وصلت في 552هـ/1157م سفارة من جانب نور الدين وتكرر ذات الأمر في العام التالي أي 553هـ/1158م وردت الدولة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم إعادة السفير النوري إلى بلاده، ومعه هدايا وأسلحة تقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين[2] ونجد سفارة أخرى من نور الدين في عام 554هـ/1159م. ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفاطمية ودها له، فأرسل العاضد في عام 555هـ/1160م بالخلع إليه. والواقع أن التعليل المنطقي لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام 548هـ/1153م أدركوا أكثر من ذي قبل؛ خطورة الصليبيين عليهم وضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسي والعسكري[3].

(1) كتاب الروضتين (1/370).

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص 84.

(3) المصدر نفسه ص 84.

1- **دوافع فتح مصر عند نور الدين** : كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتآمرها معهم، وهي التي تبنت المذهب الباطني ونشرته في ديار المسلمين، وعندما سادت الفوضى إدارة الحكم فيها، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء طمع الصليبيون بغزو مصر فهاجموها المرة تلو المرة وعندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم، ولإعادة أرض الكنانة إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين[1] ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت إلى غزو مصر فيما يأتي:

الدافع الأول: حالة الفوضى التي سادت مصر آخر آيامها فقد أصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة، أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً، خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء، فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي اختيار من يشاءون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء : العادل بن رزيك، وشاور، وضرغام، فضعفت الدولة وسادت الفوضى في البلاد، ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر، بعد أن طرده "ضرغام" ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود، الذي وجد الفرصة مواتية لتوحيد الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

الدافع الثاني: أن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين على التفكير جدياً بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام 549هـ شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر[2].

---

(1) الجهاد والتجديد ص 195.
(2) المصدر نفسه ص 196.

الدافع الثالث: من أقوى الأسباب التى أدت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية، العامل العقدى، فقد كانت دولة باطنية المعتقد، إسماعيلية المذهب فرقت وحدة المسلمين وتآمرت مراراً مع أعدائهم(1). فكان لابد من إقامة وحدة قوية فى عقيدتها، شرعية فى توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة مع بلاد الشام(2).

وفى هذه الظروف التى كان نور الدين الشهيد يتطلع فيها إلى غزو مصر وصل إلى دمشق عام 559هـ الوزير الفاطمى شاور بن مجير السعدى، طالباً النجدة منه، ضد من سلب منه منصبه قهراً، كما وعد شاور مقابل مساعدة نور الدين له: بثلث دخل البلاد المصرية سنوياً، بعد دفع رواتب الجند، وأن يكون نائباً عن نور الدين بمصر، إذا ساعده فى التغلب على ضرغام عدوه، ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً بعسكره بمصر، ويتصرف مع شاور فى شؤون البلاد بأمر نور الدين(3). لكن نور الدين كان متردداً متريثاً، يقدم إلى هذا الغرض رجلاً، ويؤخر أخرى حتى استخار الله فى الأمر، على ما هنالك من أخطار جسيمه ممثلة فى الصليبيين بالساحل وبيت المقدس، إضافة إلى شكه فى إخلاص شاور السعدى(4)، ثم جهز نور الدين الحملات المتوالية، ووجهها نحو مصر منذ عام 559هـ حتى 564هـ بقيادة أسد الدين شيركوه(5).

2– **الحملة النورية الأولى : 559هـ:** قرّر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لتحقيق هدفين مبدئيين:

* الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمها، وبخاصة أن شاور وعده إن هو عاد إلى منصبه، سيتحمَّل نفقات الحملة ويؤمن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده فى مصر.

---

(1) المصدر نفسه ص 197.

(2) مصر والشام فى عهد الأيوبيين والمماليك ص 13.

(3) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 198.

(4) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الجهاد والتحديد ص 198.

(5) الجهاد والتجديد ص 198.

* إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع إلى منصبه.

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين وأجبر الخليفة الفاطمي العاضد على توقيع هذا الاتفاق[1]، وكان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن، فأعد على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر، وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في شهر جمادى الآخرة 559هـ/شهر نيسان 1164م يصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره وسار على الطريق المحدَّد للحملة، والذي يمر عبر أراضي يسيطر عليها الصليبيون[2] وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً على حياة أفرادها تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر[3].

وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك ثم أيلة، فالسويس ومنها إلى القاهرة وقد بلغ من السرعة في سيره أنه اجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل،

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 328.
(2) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 76.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 329.

فأرسل ضرغام قوة عسكرية بقيادة أخ له يدعى ناصر الدين، للتصدى لزحفه، أسفر لقاء الطرفين فى بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه وتراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة، فطارده أسد الدين شيركوه ووصل فى أواخر جمادى الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة لإدراكه بأن هذه المعركة هى معركته الأخيرة وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة: اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلّى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، وقتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة – المزعوم – فى شهر رجب 559هـ/شهر حزيران 1164م كما قتل أخوه ناصر الدين، ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[1].

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة عاد إلى طبيعته التى اتصف بها – من المكر والخداع – ليدخل فى صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس وتناسى وعوده لنور الدين محمود بل سرعان ما ظهرت عليه إمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، ولكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، وردّ على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية[2]، ولم يَسَعْ شاور إلا أن يستنجد بالملك عمورى الأول الذى كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يخوّفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن :

* يؤدى له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل، البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

* يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الأسبتارية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، فى محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.

---

(1) المصدر نفسه ص 329.

(2) الباهر ص 121 – 122 تاريخ الزنكيين فى الموصل ص 330.

* يتكفّل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر[1] وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار ومحاولاً بذلك إثارتهم لمصلحته الخاصة. ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحّب بها، وبذلك لم تضع الفرصة عليه لدخول مصر وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء فكل ما يعنيه هو دخول مصر[2].

3- **حملة عموري الثانية على مصر**: فشلت حملت عموري الأول على مصر واضطر إلى الإنسحاب والعودة إلى بيت المقدس، وكانت في عام 558هـ/1163م، وعندما أتيحت الفرصة مرة أخرى لدخول مصر بادر عموري الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وتقرّر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح للمجلس أنّ في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي وأمل في أن يتمكن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرّر بأن يتولى بوهميوند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[3]، وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر رمضان عام 559هـ/شهر آب عام 1164م واتصل، فور وصوله إلى فاقوس[4] بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه[5]، وفجأة قرر عموري الأول الدخول

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 330.
(2) المصدر نفسه ص 330.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 331.
(4) فاقوس: مدينة في جوف مصر الشرقي وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى، الحموي (4/232).
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 331.

في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، فما الذى حدث فى الأفق السياسى حتى أقدم على هذه الخطوة ؟ وهنا تبرز عبقرية نور الدين العسكرية وقيادته الفذة، فقد تلقّى عمورى الأول أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرُّض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضَّل العودة للدفاع عنها، وأدرك فى الوقت نفسه أن حملته مقضى عليها بالفشل فى ظل امتناع أسد الدين شيركوه فى بلبيس . وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت بالنفاد فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة فى العدد وأن الوضع العسكرى ليس فى صالحه؛ لذلك قَبِلَ الدخول فى مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[1]. وفعلاً تمّ الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر فى شهر ذى الحجة، شهر تشرين الأول وسار الجيشان الإسلامى والصليبى فى طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه[2] وكان شاور الفائز الحقيقى فى هذا الصراع الذى انتهى لمصلحته، فتخلَّص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء كما تخلَّص من ضرغام وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهى والمتحكم فى مقاليد البلاد[3]، ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر، تحت تصرف نور الدين محمود وأصبحت مصر محور تفكير أسد الدين شيركوه وحديثه فى مجالسه ومحور أفكاره ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزودونه بأخبارها وأرسله نور الدين محمود فى تلك الأثناء بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده فى عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجَّعه على العودة إليها[4].

(1) المصدر نفسه ص 331.
(2) المصدر نفسه ص 331.
(3) المصدر نفسه ص 332.
(4) تاريخ الزنكيين فى الموصل ص 332.

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن النتيجة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعَّمت في بلاد الشام وارتفع شأنه في العالم الإسلامي وأصبح من القوى الإقليمية الكبرى في المنطقة، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل واستبد اليأس بهم[1]، ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر. وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية وسوء أحوالها الاقتصادية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجِّح كفة من يضع يده عليها. وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم ويقتل، ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمي العاضد معه أمر ولا نهي، ولما ثقلت وطأته عليه كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلصه منه[2].

4- **الحملة النورية الثانية**: أعد نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر في شهر ربيع الأول عام 562هـ/ شهر كانون الثاني عام 1167م بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبه ابن أخيه صلاح الدين وسيَّر معه جماعة من الأمراء[3]، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس[4]، ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرُّض الصليبيين له[5]، وسار أفراد الحملة في طريق محفوفة بالأخطار، فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضُّون عليهم وينكلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيروا طريق سيرهم أحياناً للتخفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد. وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدداً بعموري الأول، إذ أيقن من استقراء الأحداث،

(1) المصدر نفسه ص 332.

(2) النجوم الزاهرة (5/ 348).

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 342.

(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 13).

(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 342.

أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك، فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر، الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر. رحَّب عموري الأول بدعوة شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكَّن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود[1] وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء[2] متأخراً. وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرَّض لعاصفة رملية عرقلت تقدمه، وكادت تقضي على أفراده، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس في شهر ربيع الآخر / أوائل شهر شباط، وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتّجاه مصر، عندئذ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكرة مع الصليبيين حتى بلغ نهر النيل عند إطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة[3] ثم عبر إلى الضفة الغربية والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً[4].

أ- حملة عموري الثالثة على مصر والمفاوضات الصليبية الفاطمية: خرج عموري الأول من بيت المقدس في شهر ربيع الأول عام 562هـ/ شهر كانون الثاني عام 1167م متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس وارتاع شاور من ظهوره المفاجئ وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول

---

(1) مفرج الكروب (1/ 149) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 343.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 343.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل ص 343.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين ص 344.

شيركوه إلى إطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبي والتقى به، وأنزله عمورى الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة[1]، وأجرى مع شاور مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجرى دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يُقسم عمورى الأول على ذلك[2]، ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائها صفة رسمية، أرسل عمورى الأول كلاً من هيو، سيد قيسارية، وجفرى، مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي وتم التصديق على المعاهدة[3]. وكان من الطبيعي أن يرحب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطمية، وتبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد[4].

ب- **معركة البابين**: كان أسد الدين والعسكر النُّورى قد ساروا إلى الصَّعيد فبلغوا مكاناً يُعرف بالبابَيْن، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جُمادى الأولى وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذى عطبهم فيه أقرب من السَّلامة، لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم فاستشارهم، فكلُّهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشَّرقي والعْود إلى الشَّام وقالوا له: إن نحن انهزمنا - وهو الذى لا شك فيه - فأين نلتَجئ

---

(1) وليم الصورى (2/896).
(2) المصدر نفسه (2/899) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 344.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 344.
(4) المصدر نفسه ص 344.

ونحن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا ؟ وحُقَّ لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارهم نأى ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات الألوف مع أن كل أهل البلاد عدو لهم. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بُزغُش – وكان من الشجاعة بالمكان المشهور – وقال : من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلبة وبلاء تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكُفَّار؟ قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل. ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، وهذا يبين هيبة نور الدين في قلب وقادة عسكره وجنوده، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وهنا برزت عقلية أسد الدين شيركوه وخبرته العسكرية، فقد جعل الأثقال في القلب يستكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيهم، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الفرنج الذين حملوا على القلب – المسلمين والفرنج – فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقعاً ليس بها

منهم ديَّار، فانهزموا أيضاً وكان هذا من أعجب ما يؤرِّخ : أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل(1).

ج- **حصار الإسكندرية**: ثم سار أسد الدين إلي ثغر الإسكندرية وجبي ما في طريقها من القرى والسَّواد من الأموال، ووصل إلي الإسكندرية فتسلَّمها من غير قتال؛ سلمها أهلها إليه، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلي الصَّعيد وتملَّكه وجبي أمواله وأقام به حتي صام رمضان، وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلي القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلي الإسكندرية - وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج - فاشتد الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهلها علي ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُّلح(2).

د- **المفاوضات النورية - الصليبية بشأن الجلاء عن مصر**: وبعد مفاوضات بين الطرفين تم عقد صلح علي الأسس التالية :

* رفع الحصار عن الإسكندرية.
* تبادل الأسرى.
* إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.
* يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.
* عدم التعرض لهم في الطريق من قبل القوات الصليبية.

بعد قراءة متأنية لسير الوقائع، كما جرت علي الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح وما حدث بعد إبرام الاتفاقية يمكن رصد الملاحظات التالية، فقد وافق الجانبان النوري والصليبي الفاطمي علي :

(1) الباهر ص 132 - 133، كتاب الروضتين (2/13).

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/14).

* خروج القوات النورية والصليبية من مصر.

* تبادل الأسرى.

* يتعهد شاور بألاّ يُعاقب رعاياه فى الإسكندرية وفى غيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه[1].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عمورى الأول مدينة الإسكندرية فى شهر شوال / شهر آب، فى حين غادرها صلاح الدين فى موكب عسكرى حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله، والتقى الرجلان وأعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت المقدس بإمداد صلاح لدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام[2]. على أن متاعب نسكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه فى أنه تعاون مع صلاح الدين، وقد احتج هذا الأخير لدى عمورى الأول الذى نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى[3]. وكانت هذه هى المرّة الثانية التى يغدر فيها شاور، وقد علّمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتصَّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام 564هـ / 1168م[4].

هـ- **الحماية الصليبية على مصر**: غادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين مصر فى شهر ذى القعدة / شهر أيلول، فى حين تأخر عمورى الأول لبضعة أسابيع، لأنه مر بالقاهرة ليثبت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

* دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.

* بقاء قوة من فرسانهم تحمى أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرر محاولة الهجوم.

---

(1) تاريخ الزنكيين فى الموصل ص 350.
(2) المصدر نفسه ص 351.
(3) تاريخ الفاطميين ص 494.
(4) المصدر نفسه ص 495.

* إقامة مندوب عن الملك الصليبى فى القاهرة يشارك فى شؤون الحكم[1].

والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت لا تزال ناشطة فى تفكير عمورى الأول السياسى، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو ينوى العودة بعد إقرار الأمور فى بلاد الشام، وذلك طمعاً فى ثروتها وحماية لكيانه فى بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين[2]. وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتَّب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعمورى[3].

5- الحملة النورية الثالثة على مصر : عام 564هـ: سبب هذه الحملة أن الفرنجة كانوا قد جعلوا لهم شحنة فى القاهرة، وتسلموا أبوابها، وحكموا المسلمين حكماً جائراً، فلما رأوا أنه ليس فى البلاد من يردهم، أرسلوا إلى ملكهم - عمورى - فى القدس، يستدعونه ليملك مصر، وهونوا عليه أمرها، فتردد خوفاً من سوء العاقبة، ثم سار مع فرسانهم على كره منه حتى وصلوا بلبيس مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا وأسروا من فيها، ثم ساروا إلى "الفسطاط" فأمر شاور بإحراقها وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، خوفاً من أن ينهب البلد وخوفاً من أن يملكها الإفرنج، فنهبت المدينة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيقوا على أهلها، وكان شاور هو المتولى للعساكر والقتال فضاق به الأمر وضعف عن ردهم، فأخلد إلى الحيلة وراسل ملكهم عمورى ووعده بمال عظيم ألف ألف دينار مصرية يعجل بعضها الآن، ودفع لهم منها "مائة ألف دينار" وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل يجمع لهم المال فلم يستطع أن يجمع إلا خمسة آلاف دينار حيث إن المصريين كانوا قد احترقت دورهم، ونهبت أموالهم[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 495.

(2) النجوم الزاهرة (5/349).

(3) تاريخ الفاطميين ص 495.

(4) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 202.

أ- **العاضد يستنجد بنور الدين محمود**: كان حاكم مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتُنقذهُنَّ من الفرنج[1] وعرض على نور الدين مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين:

* منحه ثلث بلاد مصر.
* منح قادته الإقطاعات.
* يسمح لشيركوه بأن يقيم في مصر[2].

ب- **أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة**: قانون الفرصة: شرع نور الدين في تجهيز الجيوش وإعدادها إعداداً قوياً وأعطى قائد الحملة (شيركوه) مائتى ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العسكر والخزائن يأخذ حاجته، فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف وسار نور الدين وشيركوه إلى باب دمشق، ورحلوا إلى رأس الماء[3]، وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين ديناراً، معونة غير محسوبة وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء، منهم صلاح الدين الأيوبي[4]، وسار أسد الدين مجداً فلما قارب مصر، رحل الفرنجة إلى بلادهم بخفي حنين، خائبين مما أملوا، وسمع نور الدين بعودتهم فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر في بلاد. ولما وصل أسد الدين القاهرة، دخلها واجتمع بالعاضد، الذى خلع عليه وفرح به أهل مصر، وأجريت على عساكره الجرايات الكثيرة[5].

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 202.
(2) تاريخ الفاطميين محمد سهيل طقوش ص 504.
(3) الجهاد والتجديد ص 202 رأس الماء في منطقة حوران.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 202.
(5) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/55).

ج- **مقتل شاور**: وأما شاور فلم يفصح عما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، وعزم على الغدر أيضاً، فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين وأمرائه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه[1]، وأخير اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخرة، عام 643هـ[2].

د- **تولي أسد الدين الوزارة للعاضد**: ودخل أسد الدين القاهرة، وقصد قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره، وقد مدح الشعراء أسد الدين شيركوه لما حقق من انتصارات فقال العماد :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر ... ونلت ما عجزت عن نيله القُدَر

أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً ... فقل لنا : أعلي أنت أم عمر

افخر فإن ملوك الأرض أذهلهم ... ما قد فعلت، فكل فيك مفتكرُ

سهرت إذ رقدوا بل هُجْتَ إذ سكنوا ... وصُلت إذ جبنوا، بل طُلت[3] إذ قصروا

س- **وفاة أسد الدين**: ولم تطل وزارة شيركوه، حيث توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة 564هـ فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام رحمه

(1) المصدر نفسه (2/56).
(2) الجهاد والتجديد ص 203.
(3) كتاب الروضتين ص 203، 204.

الله رحمة واسعة وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين[1] وكان أسد الدين من أكبر قادة نور الدين، وقد ادخره الملك العادل للخطوة الكبرى التي كان يمهد لها، وهي ضم مصر إلى بلاد الشام وكان رحمه الله كريماً على جنده، صارماً يعرف كيف يقر النظام في عسكره فهابه جنده وأحبوه، وركبوا معه المخاطر في حملات عظيمة[2]، نفع الله بها الإسلام والمسلمين وساهمت في تقوية المشروع المقاوم للغزو الصليبي الذي كان يقوده نور الدين ثم من بعده صلاح الدين. وكان شيركوه شجاعاً بارعاً قوياً جلداً في ذات الله، شديداً على الكفار، وطاعته عظيمة، في ذات الله صولته، عفيفاً ديناً، كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الإيثار، حدباً على أقاربه وأهله، وكان فيه إمساك، وخلف مالاً كثيراً وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً، وخلف خمسمائة مملوك، وهم الأسدية الذين ساهموا في بناء الدولة الأيوبية[3].

ثالثاً: وزارة صلاح الدين في مصر والمهام التي أنجزها:

كان صلاح الدين قد أظهر كفاءة خلال صحبته نعمه، أسد الدين شيركوه، أثناء حملاته على مصر، فتولى الوزارة بعد وفاة عمه، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، اختاره العاضد، لأنه كان أصغر الأمراء سناً ولعله يكون أكثر طواعية له، إلا أن الملك الناصر – كما لقبه العاضد – خيب ظن الفاطميين. فشرع يستميل قلوب الناس إليه كما بذل لهم من الأموال التي قد جمعها عمه، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة[4] تامة، وكانت المهام التي أنجزها صلاح الدين في عهد نور الدين عظيمة وضخمة واستطاع القضاء على مراكز نقوة .

1– مؤامرة مؤتمن الخلافة : جرى من الأحداث في مصر بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها، فالدولة

(1) الجهاد والتجديد ص 204.
(2) المصدر نفسه ص 204.
(3) الموسوعة الشاملة (ج 24/ 73) .
(4) المصدر نفسه ص 205.

الفاطمية، لا زالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يثبت أقدامه في الحكم ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية، ولم يلبث أن أظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة، فقد كان عازمًا على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتى التي تخص منصب الخلافة ونفّذ عدة تدابير كفلت له الهيمنة التامة منها:

* استمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال فأحبوه.

* أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجند بعد أن أحسن إليهم.

* قوّى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية، وقد وصل أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية[1]. وقد أدّت التدابير التي نفذها صلاح الدين إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وزادت من تراجع نفوذ العاضد وبالتالي مركز الإمامة وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤتمن الخلافة، وهو نوبي، وقائد الجند السودان، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم سوف يقضي في حال استمراره على الدولة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين وحاول الاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً في حالة الاستجابة أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على من يبقى من أصحابه في القاهرة ويثبت على منصب الوزارة ويتقاسم البلاد مع الصليبيين، غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد اتباعه في شكل الخفين اللذين اتخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتها، فاكتشف الرسالة بداخلها، فقبض على مؤتمن الخلافة

(1) تاريخ الفاطميين ص 509 البداية والنهاية (16/ 433).

وانتهز الفرصة للتخلص منه، غير أن أنباء اهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة مصر[1]. وقد قام صلاح الدين بإبعاد جميع الخدم من السودان عن قصر الخلافة واستعمل على الجميع في القصر، بهاء الدين قراقوش، فكان لا يجرى في القصر صغير ولا كبير إلا بحكمه وأمره[2].

2- **وقعة السُّودان** : وذلك أنه لما قتل الطَّواشي[3]، مؤتمن الخلافة الخادم الحبشيُّ، وعزل بقية الخُدَّام غضبوا لذلك واجتمعوا قريباً من خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش الملك صلاح الدين بين القَصْرَين فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر من القصر إلى المعركة، وقد قُذفَ الجيشُ الشاميُّ من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهامٌ، فقيل: كان ذلك بأمر العاضد وقيل : لم يكن بأمره، ثم إن أخا الناصر – صلاح الدين – شمس الدولة تورانشاه وكان حاضراً للحرب قد بعثه نور الدين إلى أخيه ليشُدَّ أزره – أمر بإحراق منظرة العاضد، ففتح الباب ونُودى : إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السُّودان من بين أظهركم، ومن بلادكم فقوى الشاميون وضعف جأش السودان جداً، وأرسل الملك الناصر إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة التى فيها دورُهم وأهلُوهم بباب زويلة فأحرقها فولوا عند ذلك مُدبرين، وركبهم السيف فقتل منهم خلقاً كثيراً، ثم طلبُوا الأمان من الملك صلاح الدين، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمسُ الدولة تورانشاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا** ... ﴿٥٢﴾ ﴾ (النمل)[4] ويبدو أن حاكم مصر الفاطمى العاضد كان في ذلك الوقت على علم بمؤامرة مؤتمن الخلافة، لأنه ليس من المتصور أن يجرى ذلك في قصره وبدون علمه، ويؤكد ذلك أن قوات صلاح الدين يوسف

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الفاطميين ص 510.
(2) البداية والنهاية (16/ 434).
(3) الطواشي : جمعه طواشية وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكة وفي الحريم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة.
(4) البداية والنهاية (16/ 435).

ابن أيوب تعرضت وهى تصفى أطراف المؤامرة، بهجمات بالحجارة والسهام صادرة من قصر الحاكم، بل إن العاضد كان يراقب المعركة من القصر[1].

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء وبالذات القاضى الفاضل الذى كان العقل المفكر للقضاء على النفوذ الفاطمى فى مصر وتثبيت المذهب السنى وسيأتى الحديث عنه مفصلاً بإذن الله فى حديثنا عن الدولة الأيوبية.

كان القاضى الفاضل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء والمسرحين منهم بصورة خاصة، وكانت العيون مبثوثة فى كل ناحية ومنطقة وزاوية، فى القصور وبين العساكر، وعلى الحدود، وعلى كل محطة من محطات البريد أو محطّات الاتصال بين مصر والفرنج وقد كانت هذه العيون على اتّصال مباشر بالقاضى الفاضل تزوده بتقريرها بواسطة الرسل وعلى أجنحة الحمام الزاجل[2].

3- **القضاء على الأرمن**: ولم يتوقف نصر صلاح الدين بالقضاء على شوكة السودان بل أتبعه بفلّ شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين فى أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشاب فلقوا جزاءهم، وأما من تبقّى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد[3]، أضعف صلاح الدين بقضائه على شوكة السودان والأرمن الدولة الفاطمية إلى حد بعيد، بحيث أصبح من الواضح أن القضاء على الدولة الفاطمية نفسها لم يعد بعيداً[4].

4- **اهتمام صلاح الدين بتقوية جيوشه**: أخذ صلاح الدين يعمل حال توليه الوزارة على إعداد جيش أيوبى ليكون نواة لجيش مصرى جديد يدافع به عن حكمهم، وعن مصر من الغزو الإفرنجى، ولم يْخفَ عليه تدهور وضع الجيش الفاطمى لأنه خبره فى أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين سنة 559هـ وسنة

(1) الطريق إلى القدس ص 91.

(2) القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى العسقلانى ص 130، 131.

(3) القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى العسقلانى ص 133.

(4) المصدر نفسه ص 133

564هـ/1163م – 1168م وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية ومن حيث تنظيمه وفرقه المبنية على أساس عرقى، مثل السودان والأرمن، والمصريين والديلم والأتراك والعربان. وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق[1]، وكان القاضى الفاضل قد عمل فى إدارة هذه القوات فى عهد رزيك بن الصالح وساهم معها فى بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر كما أشرنا سابقاً، وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون فى شأن السلطة، الأمر الذى أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها. وعرف القاضى الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها فى ديوان الجيش وفى ديوان الإنشاء الذى كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل، فألم بهذه القوات وعرف دخائلها واطّلع على كل فرقة منها وعلى نيات كل قائد من قوّادها، ولم يضنّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه فى تنظيم جيشه الأيوبى وإدارته، وظل طول عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية، ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج. وقد أنشأ صلاح الدين فى بداية عهده فى الوزارة جيشاً كبيراً ازداد عدداً وعدة بمرور الوقت واتساع عملياته الحربية ضد الفرنج وكان قوام هذا الجيش فى مصر الحرس الخاص، والجيش النظامى فى مصر، ثم الجيوش الشعبية التى تكونت من أمراء الإقطاع وجنودهم، ولاسيما فى الشام والجزيرة بعد سنة 570هـ/1174م؛ والبدو[2] ويأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى مفصلاً فى الحديث عن الدولة الأيوبية وصلاح الدين.

رابعاً: التصدى للحملة الصليبية البيزنطية المشتركة وحصار دمياط 565هـ:

أدرك الإفرنج خطورة موقفهم بعد فتح مصر، وتولى صلاح الدين وزارتها، فاتفق ملك القدس "عمورى" مع إمبراطور بيزنطة على غزو مصر بأساطيلهم

---

(1) المصدر نفسه ص 126.

(2) القاضى الفاضل ص 127.

وحاصروا دمياط تنفيذاً لذلك التحالف[1]، وأرسل صلاح الدين قواته بقيادة خاله شهاب الدين محمود وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخاوف ويقول: إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا من طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي، فلا يبقى لنا باقية[2]. وقد قام نور الدين بالدور المتوقع منه واتخذ القرار السليم فسير إلى صلاح الدين العساكر ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية وقام بشن الغارات على حصون الفرنجة وقلاعهم ووصلت سراياه إلى المدى الذي لم تصله من قبل في بلادهم ليخفف الضغط عن مصر وفي ذلك تعزيز ودعم لصلاح الدين حتى يتمكن من إحكام السيطرة على مصر، ليتفرغ بعد ذلك للمساعدة في تحقيق الهدف الاستراتيجي الكبير المتمثل في تحرير سواحل بلاد الشام من الاحتلال[3] الفرنجي. وقد قامت حامية دمياط بدور بطولي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول السفن اليونانية إليها وأنزل المسلمون المدافعون الخسائر بالأسطول البيزنطي اليوناني، وهطلت أمطار غزيرة حولت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيأوا للعودة وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبت عاصفة عنيفة، لم يستطع البحارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعاً من السيطرة على سفنهم فغرق معظمها، ونصر الله المسلمين، نصراً مؤزراً[4].

ا - **أسباب فشل الحملة على دمياط**: يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً.

---

(1) الجهاد والتجديد ص 207.

(2) المصدر نفسه ص 207.

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص 160.

(4) الجهاد والتجديد ص 208.

أ- فيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

* صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.

* سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.

* التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كل من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.

* القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق(1).

* موقف نور الدين محمود الداعم، فقد أرسل بعوثًا كثيرة يتبع بعضها بعضها، ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد إليهم في جيوش كثيرة فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقتل من رجالهم، وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيرا، وعندما بلغ الفرنج بدمياط ما فعله نور الدين اضطروا لترك دمياط(2).

* استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم جاء فعالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حراقة(3) و لأهم من هذا كله توفيق الله وحفظه ومعيته وأنزال نصره على عباده المجاهدين.

ب- فيما يتعلق بالجانب الصليبي:

* لقد أخَّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد(4).

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 379.

(2) البداية والنهاية (16/ 440).

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 380 معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية محمود سعيد عمران 330.

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ص 380.

* إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعرضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج[1].

ج- فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

* عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً وبدا كأنه قائد بري وليس قائداً بحرياً.

* اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.

* افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.

* تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أيام العمليات العسكرية.

* انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

د - هناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

* سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعرضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها وللعواصف التي كانت تبعد قطع الأسطول عن الشاطئ.

* سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي الميل الواحد فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة.

* أدّى سوء اختيار المكان أن أضحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

---

(1) المصدر نفسه ص 380

* عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسبب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة(1).

2- نتائج الحملة على دمياط:

* بعد فشل الحملة الصليبية - البيزنطية المشتركة على دمياط أصبحت هذه الحادثة نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأدنى، لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين، وإخراجهم من المنطقة.

* يُعد فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة - أيضاً - في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية المتداعية بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الكثير.

* بات المسلمون يهددون، بشكل مباشر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين(2).

* إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير

---

(1) المصدر نفسه ص 381.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 381.

الفاشل الذى آلت إليه، خيَّب أمله، وأتاح لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة فى مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعى الإسماعيلى، وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير فى التخلص من قبضته القوية وأضحى سيد مصر دون منازع[1].

3- **وصول نجم الدين أيوب مصر** : طلب صلاح الدين من نور الدين إرسال والده إليه فوافق نور الدين على ذلك وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر وحمله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل فى إلغاء الخلافة الفاطمية وإعلان الخطبة للخليفة العباسى[2]. وخرج مع القافلة التى سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح فى مصر، فخشى نور الدين على القافلة من الفرنجة وسار بجيشه إلى الكرك، وحاصرها حتى اطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق[3] ووصل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب إلى القاهرة فى الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة وخرج العاضد – صاحب القصر – لاستقباله وبالغ فى احترامه والإقبال عليه، واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف – عليهما السلام – حين قدم على ولده ووجده متملكاً للديار المصرية وقال: ﴿ ... **ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴿٩٩﴾ ﴾ (يوسف). وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه واجتمعا به قرأ بعض المقرئين: ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ** ... ﴿١٠٠﴾ ﴾ (يوسف). ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفوض إليه الأمر كله، فأبى ذلك عليه أبوه وقال: يا ولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغى أن تغير مواقع السعادة[4]، فحكَّمه فى الخزائن بأسرها، وأنزله

(1) المصدر نفسه ص 382.
(2) دور نور الدين محمود فى نهضة الأمة ص 115.
(3) دور نور الدين محمود فى نهضة الأمة ص 116.
(4) مفرج الكروب (1/186).

اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة[1] وفي ما حدث لصلاح الدين من اجتماع بوالده وأهله قال عمارة اليماني :

من شاكر والله أعظم شاكر … ما كان من نعمى بني أيوب

طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا … حسبي فأنتم غاية المطلوب

جلبوا إلى دمياط عند حصارها … عزّ القوى وذلة المغلوب

جلوا عن الإسلام فيها كربة … لو لم يجلّوها أتت بكروب

فالناس في أعمال مصر كلها … وعُتقاؤهم من نازح وغريب

إن لم تظن الناس قشراً فارغاً … وهم اللباب فأنت غير لبيب

صحت به مصر وكانت قبله … تشكو سقاماً لم يُعن بطبيب

عجباً لمعجزة أتت في عصره … والدهر ولاّد لكل عجيب

رد الإله به قضية يوسف … نسقاً على ضرب من التقريب

جاءته إخوته ووالده إلى … مصر على التدريج والترتيب[2]

وحُكي أنه لما اجتمع صلاح الدين بوالده في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، ذكر نجم الدين أن صلاح ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت قال : فتشاءمت له وتطيرت لما جرى علي وكان معي كاتب نصراني فقال : يا مولاي من يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار. قال فعطفني كلامه عليه. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق رحمة الله عليهم أجمعين[3] وقد توفي نجم الدين أيوب في 568هـ فقد ركب نجم الدين أيوب، فشبب به فرسه بالقاهرة عند باب النَّصر وسط المحجّة يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة

(1) المصدر نفسه (1 / 186).

(2) عيون الروضتين (1 / 301، 302).

(3) المصدر نفسه (1 / 304).

وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليما وبابه مزدحم بالوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود[1] وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة، وكان لا يمر أحدٌ من أهل العلم والدين إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه[2]، وكان صلاح الدين غائباً في بلاد الكَرَك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت الدّار السلطانية ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصَّلاة والسلام وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل[3] وقد رثاه عمارة اليماني فقال :

صفو الحياةِ وإن طال المدى كَدَرُ ... وحادث الموتِ لا يُبقي ولا يَذَرُ
وما يزال لسانُ الدهر يُنذرُنا ... لو أثّرت عندنا الآيات والنُّذُرُ
فلا تَقُل غرّت الدُّنيا مطامعنا ... فما مع الموت غش ولا كدر
كأس إذا ما الرّدى حيّا الحياة بها ... لم ينبح من سُكرها أنثى ولا ذَكَرُ
كم شامخِ العز لاقى الذُّل من يَدها ... ما أضعف القدْرَ إن القدْرَ إن ألْوى به القدَرُ
في كل جيل وعصر من وقائعها ... شعوا يقطر منها النَّاب والظُّفُرُ
أودى علي وعثمان بمخلبها ... ولم يَفُتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسي في مصيبته ... فللورى برسول الله معتبرُ[4]

وقد خلف نجم الدين من الأولاد: صلاح الدين يوسف الناصر، وسيف الدين أبا بكر العادل، وشمس الدولة توران شاه، وشاهنشاه، وسيف الإسلام طغتكين، وتاج الملوك بوري، ومن البنات ست الشام وربيعة خاتون[5].

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/248).
(2) المصدر نفسه (2/252).
(3) المصدر نفسه (2/249).
(4) عيون الروضتين (1/259).
(5) الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية (24/146).

خامساً: إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية:

وتعتبر هذه الخطوة من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين. فقد كان نور الدين حريصاً كل الحرص على إنهائها فكتب إلى نائبه صلاح الدين يأمره بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء، فاعتذر صلاح الدين، بالخوف من قيام أهل مصر ضده لميلهم إلى الفاطميين وبأنه لم يتهيأ لذلك بعد، إلا أن نور الدين أرسل إلى نائبه : يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه. وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الملك العادل نجم الدين أيوب، وحمّله رسالة فيها : وهذا أمر تجب المبادرة إليه، لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وإمام الوقت - المستنجد - متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته[1] وكان صلاح الدين متهيباً متردداً في إسقاط تلك الخلافة، حيث إن ميراث العبيديين في مصر، كان عمره أكثر من مائتي سنة وكان نور الدين يعتبر أن فتح مصر نعمة من نعم الله عليه وعلى المسلمين، من أجل توحيد البلاد على منهج أهل السنة وإزالة البدع والرفض[2]، وكان نور الدين متفهماً لظروف صلاح الدين وكان يخاطبه بالأمير (أسفهلار) ولو أراد لأرسل خطاباً بعزله عن مصر وتوليته قطراً آخر، وهذا ما صرح به نجم الدين لولده صلاح الدين في مصر: إن أراد عزلك .. يأمر بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد[3] . ومن دلائل احترام نور الدين لصلاح الدين ما جاء في خطابه لابن أبي عصرون يوليه قضاء مصر ويقول فيه : تصل أنت وولدك حتى أسيركم إلى مصر، وذلك بموافقة صاحبي، واتفاق منه، صلاح الدين، وفقه الله فأنا شاكر له كثيراً كثيراً، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم[4] . فحقيقة العلاقة بين القائدين احترام متبادل وتقدير

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 209.

(2) الجهاد والتجديد ص 215.

(3) كتاب الروضتين نقلا عن الجهاد والتجديد ص 215.

(4) المصدر نفسه ص 215.

عظيم وسيأتى الحديث عن العلاقة بينهما بإذن الله والرد على الكتّاب الذين تلقوا روايات ابن أبى طيئ الشيعى الذى حرص على تشويه وتلطيخ العلاقة بين الرجلين والطعن فى سيرتهما كلما أمكنه ذلك.

* **التدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي**: استفاد صلاح الدين من الرجل الفذ الكبير القاضى الفاضل، فقد ساعده على إحكام خطة مدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعى الرافضى الإسماعيلى وشرع صلاح الدين فى تنفيذها بدقة متناهية وبعد أن هيّأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلّم أظفار المؤسسة الفاطمية، فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعى، ففى سنة 565هـ/1169م أبطل الأذان بحى على خير العمل محمد وعلى خير البشر. ويعلق المقريزى بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة[1]. ثم أمر بعد ذلك، فى يوم الجمعة العاشر من ذى الحجة 565هـ/1169-1170م بأن يذكر فى خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم على وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد فى الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك[2]. وولى القضاء فى القاهرة للفقيه عيسى الهكارى السنى فاستناب القضاة الشافعيين فى جميع البلاد وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السُّنية وهو فى الوقت نفسه يضيق الخناق على العاضد، فيلغى مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق ويمنع رسوم الخلافة وهى حفلاتها الرسمية فى الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة فى قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا فى مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش فأخذ يحد من نفوذهم شيئاً فشيئاً ثم قبض عليهم فى ليلة واحدة وأنزل أصحابه فى دورهم وفرّق إقطاعاتهم عليهم[3]. وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة، وقد خابت الآمال التى

(1) المقريزي (اتعاظ) (3/317) القاضى الفاضل ص 137.
(2) القاضى الفاضل ص 137.
(3) الخطط للمقريزى نقلاً عن صلاح الدين الأيوبى لقلعجى ص 161.

عقدها على صلاح الدين وانزوى في مخدعه فريسة للهم والمرض[1]، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مؤاتيه للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُّنة ومتصوفوها وسألهم الرأى والنصيحة وقد اتفق رأى الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد[2]. وفي بداية سنة 567هـ/ 1171–1172م قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى من محرم 567هـ/ 1171–1172م حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله، وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة الفاطمية[3] والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو أسبوعين وذلك لأنها ظلت على المذهب السنى طوال العصر الفاطمي[4] وقد توفى العاضد في العاشر من محرم 567هـ/ 1171–1172م[5] ويقال إن صلاح الدين حين علم بوفاة العاضد الفاطمي بعد أيام ندم على أنه تعجل في قطع خطبته وقال: لو عرفنا أنه، أى الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فضحك القاضي الفاضل ورد عليه: قائلاً: يا مولاى لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت[6]، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية بين الوزير صلاح الدين وكاتبه ومستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية[7].

2– **وفاة العاضد عام 567هـ:** قال ابن كثير: والعاضد في اللغة القاطع: لا يعضد شجرها: فيه قطعت دولتهم واسمه عبدالله، ويكنى بأبي محمد بن يوسف

---

(1) صلاح الدين الأيوبي، قدرى قلعجى ص 162.
(2) المصدر نفسه ص 162.
(3) القاضي الفاضل ص 137.
(4) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 59.
(5) القاضي الفاضل ص 139.
(6) القاضي الفاضل ص 139.
(7) المصدر نفسه ص 139.

الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور ابن القائم بن المهدى أوَّل ملوكهم وكان مولد العاضد فى سنة ست وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كل من قدر عليه من أهل السنة[1].

3- **فرح المسلمون بزوال الدولة الفاطمية**: ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة العباسي يعلمه بذلك مع ابن أبى عصرون، فزينت بغداد، وغلقت الأبواب وعُملت القباب وفرح المسلمون فرحاً شديداً، وكانت الخطبة قد قُطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة فى خلافة المطيع العباسي حين تغلب الفاطميُّون عليها أيام المعز الفاطمي، بانى القاهرة إلى هذه الأوان، وذلك مائتا سنة وثماني سنين[2] وقد تفاعل الشعراء مع هذا الحدث المدوّى فى أرجاء الدنيا فقد قال العماد الأصفهانى:

توفى العاضد الدعى مما	يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا	يوسفها فى الأمور محتكما
قد طفئت جمرة الغواة وقد	داخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شملُ الصلاح ملتئماً	بها وعقد السداد منتظماً
لما غدا مشعروا شعار بنى	العباس حقا والباطل اكتتما
وبات داعى التوحيد منتظراً	ومن دعاة الإشراك منتقماً
وظل أهل الضَّلال فى ظلل	داحية من غيابة وعمى
وارتبك الجاهلون فى ظُلم	لما أضاءت منابر العُلَمَا
وعاد بالمستضيء ممتهداً	بناء حق قد كان مُنهَدمَا
واعتلَّت الدَّولة التى اضطهدت	وانتصر الدين بعدما اهتُضما

(1) البداية والنهاية (16/ 451).
(2) المصدر نفسه (16/ 450).

واهتــز عطف الإســلام من جَــذَلٍ وافــتــر ثغــر الإيمــان وابتــســمــا
واستبـشـرت أوجـه الهُـدى فـرحـاً فليــقــرعِ الكُفــر سِنَّهُ نَدمــا
عــاد حــريـمُ الأعــداء منتــهـك الحـمـى وفيءُ الطغـاة مـقـتـسـمـاً
قـصــور أهل القـصــور أخـربهـا عــامــر بيت من الكمــال سَـمَـا
أزعج بعــد السُّكون ســاكنهــا ومــات ذُلاً وأنفــه رَغــمَــا[1]

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً إستراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة فتم الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص وقائده الأمين صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة، وحق للأمة الإسلامية وزعمائها أن تفرح بهذه البشرى الكبيرة من إزالة دولة الباطنيين.

4- **اعتبار واتعاظ من زوال الفاطميين من مصر**: كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسراً، فصاروا، كأمس الذاهب وكأن لم يَغْنَوا فيها، وكان أوّل من ملك منهم المهديّ وكان من أهل سَلَمْية حدَّاداً اسمه سعيد، وكان يهودياً فدخل بلاد المغرب وتسمَّى بعبيد الله، وادّعى أنّه شريف عَلوي فاطمي، وقال: إنه المهديُّ وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكبراء كالقاضي أبي بكر الباقلاَّني والشيخ أبي حامد الإسفراييني وغير واحد من سادات الأئمة .... والمقصود أنَّ هذا الدّعيَّ المُدَّعيَ الكذَّاب راج له ما افتراه في تلك البلاد ووازرَه جماعة من جهلة العُبّاد، وصارت له دولة وصولة، فتمكن إلى بنى مدينة سماها المهدية نسبة إليه، وصار مَلكاً مطاعاً يظهر الرفض وينطوى على الكفر المحض، ثم كان من بعده ابنه القائم ثم المنصور، ثم المعز – وهو أوّل من دخل مصر منهم وبنيت له القاهرة – ثم العزيز ثم الحاكم، ثم الظاهر، ثم المستنصر ثم المستعلى، ثم

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (195/2).

الآمر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملكا، ومدتهم مائتان ونيِّف وتسعين سنة ... وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أعتى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد وقلَّ عندهم الصالحون من العلماء والعباد وكثر بأرض الشام النُّصيرية والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكامله، حتى أخذوا القدس الشريف ونابلس وعجلون والغَوْرَ وبلاد غَزَّةَ وعسقلان وكَرَكَ الشَّوبك وطبريه وبانياس وصور وعثليث وصيدا وبيروت وعكا وصَفَدَ وطرابلس وأنطاكية وجميع ما وَالَى ذلك إلى بلاد أياس[1] وسيس[2]، واستحوذوا على بلاد آمد والرُّها ورأس العين وبلاد شَتَّى، وقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله وسَبَوا من ذراري المسلمين من النساء والولدان ما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن صانها الله بعنايته وسلَّمها برعايته، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله هذه البلاد كُلَّها على أهلها من السادة المسلمين، ورد الله الكفرة خائبين، وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين[3].

سادساً: القضاء على محاولة انقلابية لإعادة الدولة الفاطمية:

كانت الدولة والمجتمع في مصر في ذلك الوقت في فترة التحول الكبرى في تاريخها من خلافة ونظم ومؤسسات ورجال حكموا البلاد قرنين من الزمان وأثَّروا في كل جوانب مجتمعها إلى حكم جديد ودولة جديدة لها نظمها ومؤسساتها ورجالها والتي بدأت بإجراء التغيير بالتدريج، وحاول صلاح الدين اكتساب عامة الناس إلى جانبه ونجح إلى درجة كبيرة، لكنّ بعض مفكري الدولة الفاطميّة، ورجالها وبعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها ظلت على ولائها لما كانت تمثله الدّولة السابقة من أفكار وامتيازات[4]، فعملت تلك القوى الموالية

---

(1) أياس: مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر.

(2) سيس: قاعدة بلاد الأرمن صبح الأعشى (4/ 134).

(3) البداية والنهاية (16/ 457).

(4) صلاح الدين القائد وعصره د. مصطفى الحياري ص 168.

للفاطميين من جنود وأمراء وكتاب وموظفي دواوين، ومن عائلات الوزراء السابقين مثل بني رزيك وبني شاور، راحوا يخططون للقضاء على حكم صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية(1). وقد وصفهم عماد الدين الأصفهاني بقوله: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصّبة المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خفية وخفية واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيّة، وعيّنوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأى والتدبير، وبيتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل(2) ويبدو أن مؤامرتهم كانت فى غاية التنظيم إذ عينوا خليفة ووزيراً ثم كاتبوا الفرنج أكثر من مرّة يدعونهم فى إحداها إلى الهجوم على مصر، فى وقت كان صلاح الدين غائباً فى الكرك، والتفّ هؤلاء حول عمارة اليمنى، الفقيه والأديب السنيّ المذهب الفاطمى الولاء الذى تولى مهمة المراسلة مع الفرنج، وظنّ المتآمرون أن سريتهم التامة ستقودهم إلى النجاح، ولكنهم لم يعلموا أن القاضى الفاضل عن طريق ديوان الإنشاء كان يراقبهم مراقبة تامة حتى تحين الفرصة المواتية لكشف سرهم، وتذكر المصادر فى كشف مؤامراتهم قصتين تختلفان بعض الاختلاف فى التفصيلات أولاهما أن أحد الكتاب فى الديوان وهو عبد الصمد الكاتب، كان يلقى القاضى الفاضل بخضوع زائد، يخدمه ويتقرب إليه ويبالغ فى التواضع إليه، فلقيه يوما، فلم يلتفت إليه فقال القاضى الفاضل: ما هذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال، وطلب منه كشف الأمر، فلم يجد من جانب صلاح الدين شيئاً، فقصد الجانب الآخر، فكشف الحال إليه، فأرسله القاضى الفاضل إلى صلاح الدين وقال له : تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع وذكر الحال، عندئذ استدعاهم صلاح الدين وقرّرهم فأقروا بمؤامرتهم، فاعتقلهم ثم أمر بصلبهم(3). وتشير الرواية الثانية إلى أن المتآمرين أدخلوا الواعظ زين الدين بن نجا

---

(1) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (2/ 282).

(2) المصدر نفسه.

(3) القاضى الفاضل ص 146.

بينهم، فتظاهر بمساندته لهم في البداية ثم أعلم صلاح الدين بأمرهم، وطلب منه أن يعطيه ما لابن كامل من أملاك، فوافق وأمر بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بما يجدّ من أمرهم، ثم وصل رسول من الفرنج إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ظاهرية وبرسالة باطنية للمتآمرين، فوصل خبره إلى صلاح الدين[1]. وقد أشار القاضي الفاضل بنفسه إلى تفصيلات هذه المؤامرة في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق، وتنم عن اطّلاعه الدقيق على المؤامرة، بل واشتراكه في إحباطها، فلعلّه هو الذى دسّ من أعلمه بتفصيلات المؤامرة، كما يشير في رسالته إلى عيون لديوان الإنشاء المصرى من الفرنج، وآخرين بينهم على اتصال بالديوان[2] وجاء في الكتاب الذى كتب بقلم القاضي الفاضل من صلاح الدين إلى نور الدين بعدما تمّت التحقيقات التي أجراها صلاح الدين، ويخص الكاتب بتركيز وشمول : بدايات المؤامرة وتطوراتها، وكيفيّة كشفها، وصلب رؤوس المتآمرين أمام بيوتهم[3].

1- أن صلاح الدين كان لا يزال، بعد قضائه على الخلافة الفاطمية يعتبر "جند مصر . . وأهل القصر" الفاطمي أعداء لدولته وضد وجوده ويتوقع منهم القيام بعمل ضدّه ولذلك فقد كان متحرزاً منهم، ووضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار ومع ذلك فقد استمر عملهم سرياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة لهم.

2- وأنهم كانوا، من إعلان الخطبة العبّاسية وحتى القبض عليهم، لا يمر عليهم شهر ولا سنة إلا وهم يُدَبرون المكائد ويعقدون الاجتماعات ويبعثون الرُسل إلى الصليبيين لموافقتهم على ما يريدون "وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه، المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج يوسعون لهم فيها سُبُل المطامع . . ويزينون لهم الإقدام والقدوم"[4]. لكن الفرنج لم

(1) المصدر نفسه ص 146 مفرج الكروب (1 ، 244 ، 245).

(2) القاضي الفاضل ص 146 .

(3) صلاح الدين القائد وعصره ص 169 .

(4) كتاب الروضتين (2/278).

يستجيبوا بداية لخوفهم من صلاح الدين، وفي ذات الوقت يؤملونهم بالمساعدة في الوقت المناسب.

3- ووصل الأمر إلى أنهم كاتبوا ملك الصليبيين عندما قام صلاح الدين بحملته الثانية على بلاد الكرك والشوبك في قسم كبير من قواته يطلبون منه القيام بالدور المتفق عليه وقالوا في كتبهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا تقدم عموري بقواته إلى صَوْر أو أيلة، فإنه سيقطع الطريق على صلاح الدين ويمنعه من العودة وعند ذلك تثور في القاهرة "حاشية القصر، وكافة الجند الفاطمي السابق في مصر" وطائفة السودان، وجموع الأرمن، وعامّة الإسماعيلية، وتفتك بأهل صلاح الدين ومعاونيه ورجال دولته العاصمة[1]. لكن يقظة صلاح الدين والتكتيكات والمناورات التي قام بها أربكت عموري الذي كان يحاول جاهداً معرفة حركات صلاح الدين في النقب جنوبي الأردن، وجمدته عند مياه الكرمل في جبال الخليل لخوفه من أن يستغل صلاح الدين فرصة حركة الملك الخاطئة، فيتوجه إلى المناطق غربي نهر الأردن والبحر الميت.

4- ولم ييأس المتآمرون: فعندما وصل المدعو جرْج (جورج أو جورجيوس)، كاتب الملك عموري، إلى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين (ويبدو أن الرسائل كانت متصلة في أوقات السلم)، اتصلوا به، وأرسلوا معه كتاباً إلى الملك عموري: أنّ العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاّتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور، أنهض فلانا من عنده، وبقي صلاح الدين في البلد وحده ففعلنا ما تقدم ذكره في الثورة[2]. وهذا دليل آخر على محاولة استغلالهم لكل الظروف المناسبة، ذلك أن وقت جمع الغلات من الحقول هو الوقت الذي يذهب فيه الأمراء المقطعين وأجنادهم إلى إقطاعاتهم لأخذ حصتهم من الناتج وتوزيعه، وهذه كانت حالة عادية معروفة في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى[3].

(1) كتاب الروضتين (2/287).
(2) المصدر نفسه (2/288).
(3) صلاح الدين القائد وعصره ص 170.

5- أن الملك عموري كان كلما أراد التعرف على الأوضاع في مصر والاتصال بالمتآمرين والتفاوض معهم، كان يبعث بـ "جرج" رسولاً إلى صلاح الدين: ظاهراً إلينا، وباطنا إليهم، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه علمنا، ولأهل القصر والمصريين "الجند" في أثناء هذه المدَد رسُل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد[1].

6- كانت سياسة صلاح الدين أثناء هذه الفترة إذا شك أعوانه بأحد من الجماعات المذكورة وقام باعتقاله ولم يتمكنوا من إثبات التهمة ضده، أطلق سراحهم، وخلى سبيلهم فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة[2].

7- واتصل المتآمرون في ذات الوقت "بشيخ الجبل" سنان[3]، زعيم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، طالبين مساعدته، محتجين بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنّ ما بين أهلها وخلاف إلا فيما يفترق به كلمه ولا يجب به قعود عن نُصرة[4]. وطلبوا منه بصورة خاصة اغتيال "الملوك" كما كانت عادتهم أو نصب المكائد لهم وكان الرسول إليهم خال ابن قرجلة[5]، أحد رجال الدولة الفاطمية السابقين، ويبدو أن الاثنين كانوا عند صاحب الجبل عند اكتشاف المؤامرة فالتجأوا إلى الصليبيين[6].

8- ولا نعرف إذا كان المتآمرون اتصلوا بملك صقليّة لإرسال الأسطول مباشرة أم عن طريق ملك الصليبيين، لكنّ الأسطول قدم بعد فشل المؤامرة، إلى الإسكندرية، وكان مكوناً من 200 سفينة ويحمل أعداداً كبيرة من الخيالة والرجالة، فمنى بخسائر كبيرة خاصة وأن الملك عموري لم يتقدم في البرّ كما كان الاتفاق بسبب القضاء على المتآمرين بحزم[7].

---

(1) كتاب الروضتين (2/287).

(2) المصدر نفسه (2/287).

(3) المصدر نفسه (2/287).

(4) المصدر نفسه (2/289).

(5) المصدر نفسه (2/289).

(6) المصدر نفسه (2/289).

(7) صلاح الدين القائد وعصره ص 172.

9- وفي المرّة الأخيرة التي قدم فيها "جرْج" برسالة إلى ديوان صلاح الدين وصل كتاب إلى الديوان "ممن لا نرتاب به من قومه "الصليبيون" يذكرون أنه رسول مخاتلة "خداع" لا رسول مجاملة" فاتخذ رجال صلاح الدين الاحتياطات المناسبة لمراقبته دون أن يشعر، ولم يظهروا له أي شك فيه وقام "جرج" بالاتصال بجماعة القصر الفاطمي، ومديري المؤامرة، وأمراء الجند الفاطمي السابقين، وجماعة من النصارى واليهود عند ذلك توصل رجال دولة صلاح الدين إلى إدخال أحد العيون إليهم من جماعتهم " قَدَسْنا إليهم من طائفتهم من داخلهم "[1]، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم[2].

10- وبدأت تنتشر الإشاعات والأقاويل بين الناس حول المؤامرة، وخاف رجال دولة صلاح الدين من انكشاف الأمر وهرب رؤساء الفتنة، فقرروا اعتقالهم، ثم أحضروا واحداً واحداً أمام صلاح الدين: وقَرَّرَهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قُطعت أرزاقهم وأخذت أموالهم[3].

11- تبين من التحقيقات والإقرارات أنهم عَينوا خليفة ووزيراً، وأنه وقع خلاف بينهم حول الخليفة وحول الوزير (آل رُزّيك أو آل شاور).

12- استفتى صلاح الدين العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم، وعندما تردد صلاح الدين في التنفيذ، طالب، أهل الفتوى وأهل المشورة بالإسراع في التنفيذ، فصَدَر الأمر بقتلهم وصلبهم، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم[4]. وكان المشهورون الذين شنقوا: الشاعر عمارة بن علي اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة ابن عبد القوي. وقد حاول القاضي الفاضل صادقاً الشفاعة لدى صلاح الدين في عمارة، على الرغم من العداوة القديمة بينهما، إلا أن عمارة اعتقد أنها خدعة فرفض قبولها، فتم صلبه مثل غيره[5].

(1) صلاح الدين القائد وعصره نقلاً عن كتاب الروضتين ص 172.
(2) المصدر نفسه ص 172.
(3) المصدر نفسه ص 172.
(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/289).
(5) صلاح الدين القائد وعصره ص 173.

13- وأما أهل القصر فقد اعتقلوا بداية، ثُم نُقلوا إلى أماكن مختلفة وأعطى القصر إلى أخيه العادل، ذلك أن صلاح الدين رأى أنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها، فإنه "القصر" حبالة للضلال منصوب، وبيعة "مقامٌ" للبدع محجوبة[1].

14- وشُردت طائفة الإسماعيلية من بلاد مصر ونُفُوا أما البقية فقد أعلن في القاهرة : بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصعيد[2].

15- وكشفت التحريات والبحث في هذه القضيّة عن وجود داعية يُسَمّى "قُديد القفاص" في الإسكندرية، التي كان غالبية أهلها من أهل السنة، وأن دعوته انتشرت في بلاد الشام ومصر، وأن أرباب المعايش "الحرف والصناعات" في ثغر الإسكندرية يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن[3]. كما وُجد لديه كتب ورقاع تدل على الكفر الصريح[4]. وهكذا فقد تمكن صلاح الدين بفضل الله ثم بصبره وقيادته الحازمة من القضاء على هذه المؤامرة والفتنة التي دفعته أخيراً إلى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لكل بقايا الدولة الفاطمية من بيت الخلافة، وكبار رجالها، والحاشية، والجند والسودان[5].

- عمارة بن علي اليمني الشاعر :

قال عنه الذهبي : أبو محمد، عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المذحجي اليمني الشافعي الفرضي، الشاعر، صاحب الديوان المشهور، ولد سنة خمس عشرة وخمس مئة وتفقَّه بزبيد مدةً، وحج سنة تسع وأربعين ونفّذه أمير مكة قاسم بن

(1) كتاب الروضتين (2/290).
(2) صلاح الدين القائد وعصره ص 173.
(3) كتاب الروضتين (2/290).
(4) المصدر نفسه (2/290).
(5) صلاح الدين القائد وعصره ص 173.

فليته رسولاً إلى الفائز بمصر فامتدحه بالشعر. وكان واضح الاعتقاد فى أبى بكر وعمر، فقد حكى عمارة أن الصالح بن رُزِّيك فاوضه وقال ما تعتقد فى أبى بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبقَ الإسلام علينا ولا عليكم، وأنّ محبتهما واجبة. فضحك، وكان مرُتاضاً حصيفاً، قد سمع كلام فقهاء السنة قال الذهبى: هذا حلم من الصالح على رفضه(1).

وقال ابن واصل فى سبب موالاة عمارة اليمنى للفاطميين : وكان عمارة بن على اليمنى شديد التعصب لهم، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخولّوه، فرعى ذلك ووفى لهم، والإنسان - كما قيل - صنيعة الإحسان، ولم يكن على مذهبهم وإنما كان شافعياً وسنياً، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر وذبَّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد؛ ثم لما تحرك جماعة فى عَوْد الأمر إليهم، كان من جملة المساعدين على ذلك، شكراً لهم على إحسانهم إليه، فأدى به ذلك إلى أن شُنق(2)، كما مرّ ذكره - وقد ذكر عماره مبيانته لمذهب القوم فى قصيدة يقول فيها:

أفاعيلهم فى الجـــود أفعال سُنَّةٍ ... وإن خالفونى فى اعتقاد التشيع(3)

وقد علق الذهبى على هذا البيت فقال: يا ليته تشيع فقط، بل يا ليته ترفض، وإنما يقال: هو انحلال وزندقة(4) وقد قال عمارة فى رثاء الفاطميين والعاضد :

أسفى على زمن الإمام العاضد ... أسَفُ العقيمِ على فِراقِ الواحد

جالست من وزرائه وصحبت من ... أمـرائه أهل الثناء الخالد

لهفى على حُجُرات قصرِك إذ خلَت ... يا ابن النبى من ازدحام الوافد

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/594، 595).

(2) مفرج الكروب (1/212).

(3) سير أعلام النبلاء (20/596).

(4) المصدر نفسه (20/596).

وعلى انفرادك من عساكرك الذى كانوا كأمواج الخضم الرّاكد
قلّدْتَ مؤتَمنَ الخلافة أمرهم فكبا وقصَّر عن صلاح الفاسد
فعسى اللّيالى أن تَرُدَّ إليكم ما عوّدتكم من جميل عَوائِدِ(1)

وله من جملة قصيدة:

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصّرت فى عذلى
بالله زُرْ ساحة القصرين وابك معى عليهما لا علَى صفين والجمل
وقل لأهلهما والله ما التحمت فيكم قُروحى ولا جُرْحى بُمندمل
ماذا ترى كانتِ الإفرنج فاعلة فى نسل آل أمير المؤمنين على(2)

وأنا أستغرب من عمارة اليمنى فى نعيه لأيام الفاطميين وحنينه إلى بدعهم وأعيادهم وقصورهم وتحديه للدولة السنية الجديدة فى مصر ودفاعه عن الفاطميين وأكاذيبهم فى زعمهم بأنهم من النسل النبوى الكريم، فهل متاع الدنيا الزائل يفعل بالعقائد الصحيحة ما فعله بعمارة اليمانى، وهل العطايا والجاه والمناصب تجعل الإنسان يترك عقيدته الصحيحة ويبكى على إطلال الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية ؟ وينخرط فى عمل تآمرى ضد المشروع الإسلامى المقاوم للصليبيين فى بلاد الإسلام ؟ إن هذا لشيء عجاب.

- **أمجاد أهل الإسكندرية:** إن أهل الإسكندرية ساهموا فى نجاح المشروع السنى بمصر، ودافعوا عن صلاح الدين عندما حوصر بها وهم يدافعون عن المدينة بشجاعة فائقة ورجولة منقطعة النظير، ومسلمو مصر عموماً وأهل الإسكندرية منهم خصوصاً دائماً وأبداً فى الخندق المدافع عن قضايا الأمة قديما وحديثاً، ولهم من الطاقات الفكرية والإمكانات المادية، والأقلام السيالة وصفاء الفطرة ما يجعلهم فى مصاف من يتصدى للمشروع الشيعى الرافضى الباطنى والمشروع الأمريكى

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 293).
(2) كتاب الروضتين (2/ 295).

الغربى، وقد قاوم المصريون قديماً النفوذ الشيعى الباطنى والحملات الصليبية وتعاونوا مع إخوانهم من أهل السنة، فكرياً وعقائدياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإعلامياً حتى تم القضاء على المشروع الشيعى الباطنى، ولذلك نجد كتّاب الشيعة الرافضة يحقدون على مصر ويقولون عن أهلها: أبناء مصر لعنوا على لسان داود عليه السلام فجعل الله منهم القردة أبناء مصر؛ والختازير[1]، وما غضب الله على بنى إسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضى عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها[2]، وقالوا بئس البلاد مصر، أما إنها سجن من سخط الله عليه من بنى إسرائيل[3]، وقالوا : انتحوا مصر ولا تطلبوا المكث فيها لأنه يورث الدياثة[4]، وجاءت عندهم عدة روايات فى ذم مصر، وهجاء أهلها، والتحذير من سكناها، ونسبوا هذه الروايات إلى رسول الله ﷺ، وإلى محمد الباقر، وإلى على الباقر، وهذا رأى الشيعة الروافض فى مصر فى تلك العصور الإسلامية الزاهرة، وقد عقب المجلس الشيعى الرافضى على هذه النصوص بقوله: بأن مصر صارت من شر البلاد فى تلك الأزمنة، لأن أهلها صاروا من أشقى الناس وأكفرهم[5] ويبدو أن هذه النصوص هى تعبير عن حقد الرافضة وغيظهم على مصر وأهلها بسبب سقوط إخوانهم الإسماعيليين العبيديين على يد صلاح الدين، الذى طهر أرض الكنانة من دنسهم ورجسهم، وأين هذه الكلمات المظلمة فى مصر وأهلها الأحبة من وصية حبيبنا محمد ﷺ بأهل مصر[6].

وإليك أيها القارئ الكريم ما قام به أهالى الإسكندرية للدفاع عن الإسلام وعن دولته السنية الجديدة فى مصر، فقد تعرضت الإسكندرية لإنزال صقلى فى الأيام الأخيرة من عام 569هـ/نهاية تموز 1174م وكان الأسطول النورماندى يتكون

---

(1) بحار الأنوار (60/ 208) تفسير القمى ص 596.
(2) تفسير العياشى (1/ 304) البرهان (1/ 456).
(3) تفسير العياشى (1/ 305) البرهان (1/ 457).
(4) بحار الأنوار (60/ 211) أصول الشيعة (2/ 900).
(5) بحار الأنوار (5/ 208).
(6) مسلم (2/ 2970).

من مئتى[1] سفينة وقيل من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثين ألف مقاتل تنفيذا للمخطط واسع النطاق الذى اتفقت عليه العناصر الموالية للفاطميين مع ملكى بيت المقدس وصقلية بهدف إحياء الخلافة الفاطمية[2] فى مصر ورد الدعوة الشيعية الرافضية إلى ما كانت عليه - وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الإسكندرية فى 16 ذى الحجة بعدما انكشفت المؤامرة وقضى على المتآمرين فى الداخل من جهة وبعد وفاة عمورى الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية. وشرع النورمان فى مهاجمة الإسكندرية ونجحوا فى إغراق بعض المراكب المصرية التى كانت راسية على الساحل [3] وقد أبدى الجيش الأيوبى وأهالى الإسكندرية شجاعة فائقة، فأحرقوا دبابات العدو التى نصبت قرب السور "وأحسنوا القتال والصبر". وكان صلاح الدين غائباً عن الإسكندرية، وحين وصلها: زال ما بالمحاربين من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله[4]. فما كان على الصليبيين سوى التسليم وصاروا بين قتيل وأسير[5]. وهكذا وجه جيش صلاح الدين وأهالى الإسكندرية ضربة ماحقة بأصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون فى إعادة التجربة مرّة ثانية فى عهد صلاح الدين، على الرغم من أنهم لم يتخلوا عن الفكرة كلياً، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن[6].

- **مؤامرة كنز الدولة**: ومن المؤامرات التى واجهها صلاح الدين فى مصر مؤامرة قامت فى أسوان وقوص وكان ذلك سنة 570هـ فقد جمع كنز الدولة والى أسوان العرب والسودان، وقصد القاهرة، يريد إعادة الدولة الفاطمية، وأنفق فى جموعه أموالاً جزيلة، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم، فقتل عشرة من أمراء

(1) الجيش الايوبى فى عهد صلاح الدين ص 382.
(2) تاريخ القبائل العربية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ص 80.
(3) تاريخ القبائل العربية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ص 81.
(4) الكامل فى التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبى ص 383.
(5) المصدر نفسه ص 383.
(6) المصدر نفسه ص 383.

صلاح الدين وخرج في قرية (طود) رجل يعرف بقياس بن شادى وأخذ بلاد (قوص)، وانتهب أموالها، فجهز صلاح الدين أخاه الملك العادل في جيش كثيف .. فسار وأوقع بشادى وبدد جمعه وقتله ثم سار فلقى (كنز الدولة) ناحية (طود)، وكانت بينهما حروب فر منها كنز الدولة، بعدما قتل أكثر عسكره، ثم قتل (كنز الدولة)، وقدم الملك العادل إلى القاهرة في الثامن عشر من صفر[1].

وهكذا استطاع صلاح الدين أن يقطع دابر الفتن، وأن يقضى على شراذم البغى والعدوان، ومدبرى المكائد والمؤامرات، وينطبق عليه بحق قول الشاعر المتنبى :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم[2]

سابعاً: الوسائل التى اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمى:

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب، بمجرد تغيير النظام السياسى فى بلد ما من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة، وتدابير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب[3]، ولذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة فى سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفورى المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القوى العسكرية، فى حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينينة الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها[4] وإليك بعض هذه الوسائل :

---

(1) سيرة صلاح الدين لابن شداد ص 47 – 48 الكامل فى التاريخ، صلاح الدين، علون ص 38.

(2) صلاح الدين عبدالله علون ص 38.

(3) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب ص 56.

(4) المصدر نفسه ص 56.

1- **إذلال الخليفة الفاطمي العاضد**: بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمي العاضد، للقضاء على فكرة "الولاية" التي تبنى عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ويستمد منها الحكام الفاطميون قداستهم، فأرغم الخليفة العاضد على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب، عند وصوله إلى مصر، رغم ما جرى عليه العرف، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية، من استعلاء الخليفة الفاطمي واحتجابه عن الناس لعدم ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم، بل يذكر أبو شامة، أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس[1]، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد ورسوم الدولة، فمنح صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف، إذ خلع عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا[2]، ثم ما فتئ صلاح الدين يعمل على الاستهانة بالخليفة وابتذال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته، فأخذ يستولي على موجوداته وممتلكاته الشخصية وخيوله، بحجة شدة الحاجة إليها في أمور الجهاد، حتى إن الخليفة في آخر الأمر، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذي لا يملك غيره، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة[3]، ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة على الاعتزال، وتجنب الظهور في المناسبات العامة، حتى ينساه المصريون[4].

2- **وضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي**: عمل صلاح الدين على وضع مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد، وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية، إذ ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها "بالدولة القصرية"[5] نسبة لسكن خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 56.

(2) المصدر نفسه ص 57.

(3) المصدر نفسه ص 57.

(4) المصدر نفسه ص 57.

(5) المصدر نفسه ص 57.

القاهرة، ففي سنة 566هـ/1170م قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلمها لمملوكه قراقوش الخادم، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج، وقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطان بمصر عن أخيه صلاح الدين(1).

3- قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به: ما لبث صلاح الدين في سنة 567هـ/1171م أن وجه الدعوة الفاطمية بمصر، طعنة قاتلة، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر الذى اتخذه الفاطميون جامعة لنشر علوم للدعوة الشيعية الإسماعيلية(2) وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد، كما هو مذهب الإمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من ذلك التاريخ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس(3)، وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة، بإزالة الشعائر الشيعية، التى أدخلها الفاطميون إلى مصر، واستمرت بها طول عصر دولتهم، من الأذان، وإبان إقامة الصلاوات، فأبطل من الأذان قول "حى على خير العمل" واستمر الأذان في مصر على المذهب السنى(4) ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي، من السلام على الخليفة الفاطمي في الأذان(5)، وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذاً سنياً يجمع فيه الدعاء للصحابة رضى الله عنهم، وللتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ، ولعميه حمزة والعباس رضى الله عنهما، ويأتى للخطبة لابساً السواد على رسم

(1) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب ص 60، 61.
(2) المصدر نفسه ص 93.
(3) الخطط للمقريزى (4/53).
(4) الخطط للمقريزى (4/46) تاريخ مصر الإسلامية ص 93.
(5) تاريخ مصر الإسلامية ص 93.

العباسية[1]. ومما لا شك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر، الذى ظل طوال العصر الفاطمى أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر فى العالم[2]، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم - مع هجرة علماء أهل السنة للتدريس فيه - قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر وفى أغلب أرجاء العالم الإسلامى[3].

4- إتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية : عمد صلاح الدين إلى الآلات الملوكية الفاطمية، وكنوز القصر الفاطمى، فعمل على إفسادها وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكى، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسى، ثم طرح باقيها للبيع، بحيث دام البيع فيها مدة عشر سنين[4] وتنقلت إلى البلاد بأيدى المسافرين الواردين والصادرين[5]، واستولى على كتب الدعوة الإسماعيلية، التى احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمى، فأحرقها وألقاها على جبل المقطم، ثم فرق الكتب غير المذهبية التى صودرت من مكتبة القصر، على كبار علماء وأنصار دولته، مثل العماد الأصفهانى والقاضى الفاضل، وأبى شامة الأصفهانى، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب الدعوة الشيعية الرافضية فقط[6] وفى الحقيقة كانت كتب الدعوة الشيعية الإسماعيلية من أهم وسائل التأثير التى يتخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم، وقامت السلطات الأيوبية بإحراق كتب الإسماعيلية، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإسماعيلية إلا الكتب التى احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند بعد سقوط دولتهم بمصر[7].

---

(1) المصدر نفسه ص 94.

(2) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب ص 97.

(3) المصدر نفسه ص 97.

(4) كتاب الروضتين (2/210) تاريخ مصر الإسلامية ص 61.

(5) تاريخ مصر الإسلامية ص 61.

(6) المصدر نفسه ص 62.

(7) المصدر نفسه ص 62.

5- **ألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين :** لم يغب عن فكر صلاح الدين، خطورة أثر الأعياد والمآتم والحسينيات المذهبية للشيعة في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم في نفوس المصريين، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين مما أدى إلى انقراضها من مصر منذ ذلك الوقت، وبدهاء سياسي ومنطلق عقائدي مبني على محاربة البدع الشيعية الرافضية تمّ القضاء على الأعياد المذهبية المخالفة للكتاب والسنة، واستكمالاً لهذه الخطوة، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر، بصبغة سنية، بقيت إلى اليوم(1).

6- **محو رسوم الفاطمية وعملاتهم:** واقترن بمحو الرسوم الفاطمية بمصر، إبطال التعامل بالعملات الفاطمية، خاصة وأنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم في الخلافة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله علي ولي الله" كما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وصيغ عقائدية فاطمية، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق في المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين، استمالة لهم لعقيدة الدولة(2).

7- **الحفاظ على أفراد البيت الفاطمي:** احتاط السلطان صلاح الدين على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقرّر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرق بين الرجال والنساء ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم(3)، فكان من دواعي السياسة وطبائع الملك أن يحتفظ الأيوبيون على جميع أفراد البيت الفاطمي، خشية أن يظهر من دعاتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين في إعادة دولتهم(4).

8- **إضعاف العاصمة الفاطمية:** بعد أن نقل الأيوبيون مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل، التي كانت عملاً عسكرياً بعيد المدى يهدف إلى تحصين مصر ضد

---

(1) تاريخ الشعوب الإسلامية ص 63، 64، 65.

(2) المصدر نفسه ص 66.

(3) كتاب الروضتين (2/210).

(4) تاريخ الشعوب الإسلامية ص 66.

هجمات الفرنج، انتهزوا هذه الفرصة لابتذال مدينة القاهرة، عاصمة الفواطم، التى ظلت طوال مدة دولتهم، مدينة ملكية، خاصة بسكن الخلفاء، وطوائف العسكر ورجال البلاد، وأرباب الدواوين، كما كانت فى نفس الوقت حصناً عسكرياً بحيث كان أغلب أهل مصر، يسكنون مدينة الفسطاط[1]، وقد علق المقريزى على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله: فصارت القاهرة مدينة سكنى، بعدما كانت حصناً يعتقل به، ودار خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز، وابتذلت بعد الاحترام، وهذا شأن الملوك، ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم[2] ولكن ما فعله صلاح الدين فى سبيل الله ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم.

9- إحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوى: ارتبط بإبادة الأيوبيين لجميع التراث الفاطمى، إحياءهم لقضية انتحال النسب الفاطمى إلى البيت النبوى وبيان أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودى أو مجوسى، والاستمرار فى هدم السند الشرعى المزيف للخلافة الفاطمية. ولقد قام العلماء المعتمدون بجهود مشكورة فى فضحهم، مثل ابن خلكان، وابن أبى شامة وابن واصل وغيرهم وأطلقوا على الفاطميين اسم " بنى عبيد " إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القدَّاح المجوسى، بل نجد أبا شامة، يخبرنا بأنه ألف كتاباً منفرداً يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين[3]، ولقد خصص أبو شامة فى كتابه الروضتين، صفحات طوال فى بيان ادّعائهم للنسب النبوى الشريف[4].

10- الاستمرار فى ملاحقة بقايا التشيع فى الشام واليمن: هكذا قضى أهل السنة بزعامة نور الدين محمود على الدولة الفاطمية، وأبادوا تراثها، وتتبعوا أتباعها فى مصر وانكمش التشيع ودخل فى طور التخفى والتَستر وبدأ زوال المذهب الشيعى الإسماعيلى فى مصر مع استقرار عساكر نور الدين فى مصر عام

---

(1) العمارة العربية فى مصر الإسلامية ص 324 - 326.

(2) تاريخ مصر الإسلامية ص 68.

(3) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 70.

(4) كتاب الروضتين (2/214 - 223).

564هـ/ 1168م واستمر الأيوبيون بقيادة صلاح الدين بمواصلة القضاء على الدعوة الإسماعيلية في مصر واليمن والشام واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام وظل التشيع يضعف في مصر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تدين بمذهب أهل السنة والجماعة[1].

والحقيقة أن التدابير التي اتخذها زعماء أهل السنة، كنور الدين وصلاح الدين في محاربة المد الشيعي الرافضي أتت أكلها فانقرض من مصر المذهب الشيعي الرافضي بشكل كامل وهو فقه عميق والأمة في أشد الحاجة إليه. والدرس الكبير أن اجتثاث البدع من المجتمعات الإسلامية تحتاج لرؤية شاملة ومشروع متكامل بين الإحياء الإسلامي الصحيح والتصدي للفكر الباطني، وتربية الأمة على انتزاع حقوقها، ومقاومة الغزاة الصليبيين وفيما مضى تحدثنا عن بعض وسائل صلاح الدين في القضاء على المذهب والتراث الفاطمي العبيدي.

وقد استفاد صلاح الدين والأيوبيون من تجارب نور الدين في الإحياء السني والتصدي للتشيع الرافضي، وإعداد الأمة للمقاومة وانتزاع حقوقها من أعدائها، ولذلك لم يبدأ صلاح الدين من الفراغ وإنما استفاد من الوسائل النورية والتي من أهمها استحداث المدارس السنية، ودور الحديث، وجعل القضاء على المذهب السني وبسط إشرافه على المدارس، واستخدام الحسبة لإعادة مذهب أهل السنة، وتشجيع التصوف السني ورصد الأوقاف لمؤسسات المجتمع المدني، ونشر عقائد أهل السنة، فأصبح المشرق الإسلامي كله دولة واحدة تأتمر بأمر زعيم واحد ينظر بشوق ولهفة إلى الهدف الاستراتيجي الذي سعى لتحقيقه، منذ بداية حكمه، وهو تحرير بلاد الشام من الفرنجة المحتلين[2]، وقد أصبح هذا الهدف يلوح في الأفق

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية ص 76.

(2) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.

فأمر بصنع منبر فخم للمسجد الأقصى لكي يأخذه معه عندما يتوجه لفتح القدس[1]، وكتب إلى صلاح الدين يأمره بالمسير على رأس جيش مصر ليلقاه على قلعة الكرك الفرنجية[2]، سار صلاح الدين كما أمره نور الدين وحاصر قلعة الشوبك "جنوب الكرك" فلما علم نور الدين بذلك خرج من دمشق نحو الجنوب ليلقى صلاح الدين ولكنه تلقى رسالة منه قبل وصوله إليه يبلغه فيها أن الأمور اضطربت بمصر وأنه يخشى استيلاء المعارضين على الأمور فيها، ولابد له من العودة إليها لضبط الأمور وأنه سيعود في العام القادم للجهاد مع نور الدين[3]، كان نور الدين مهتماً اهتماماً كبيراً بقلع الكفار من بلاد الشام وعندما وصله شيء من ذخائر قصور الفاطميين، وغرائب المصنوعات من الذهب واللؤلؤ : قال : والله ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ولا نسد به خلة الإقلال فهو - صلاح الدين - يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في مصر وبنا إلى الذهب فقر .. لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى الإمداد بالمال والرجال والمعونة .. لقلع الكفار من بلاد الشام[4]. أي أنه لا يريد من المال والرجال إلا قلع الكفار من سواحل البلاد[5] وأما صلاح الدين فقد كان يتفق مع نور الدين في الأهداف الاستراتيجية إلا أنه خاف من اضطراب مصر، فكان يهمه ترتيب شؤون مصر أولاً وصرف همه لهذا، ولذلك اضطر للرجوع. ويبدو أن نور الدين فكر بدخول مصر بجيوشه والالتفاف على الصليبيين منها بقيادته وأحس صلاح الدين بنية نور الدين فجمع أهله في مصر وكان من بينهم أبوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي[6]، وبعض قادة الجيش وشاورهم فيما سمعه عن نية نور الدين التوجه لمصر وعزله عنها، فأشار عليه أحد أبناء إخوته

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.

(2) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.

(3) الباهر ص 158 دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.

(4) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد ص 213.

(5) الجهاد والتجديد ص 213.

(6) دور نور الدين في نهضة الأمة ص 118.

ويدعى عمر بأن يتم الاستعداد لمقاتلة نور الدين إذا حضر لمصر، ووافقه بعض الحاضرين على رأيه، فبادر نجم الدين والد صلاح إلى زجرهم واستنكار قولهم وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا إلا أن نقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه: " بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأى حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجابا يصنع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما ها هنا من يمتنع عليك "[1] وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر[2]، ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تَر معك من هذا المعسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول : أى حاجة إلى قصدى ؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يصنعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده[3] وكان نجم الدين أيوب شديد الحب والولاء والطاعة لنور الدين زنكي ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين – رحمه الله تعالى – الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين[4]. وفي بداية عام 568هـ/ 1173م وبعد

(1) كتاب الروضتين (2/ 228).
(2) المصدر نفسه (2/ 228).
(3) المصدر نفسه (2/ 229).
(4) كتاب الروضتين (2/ 228).

عودة نور الدين من أذربيجان وأرمينية، تسلم منشوراً من الخليفة بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر، وفي شهر شوال من نفس العام خرج صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها وأعلم نور الدين بخروجه تنفيذاً لما تمّ الاتفاق عليه في العام السابق، فخرج نور الدين في دمشق بدوره ليلقاه فلما وصل إلى الرقيم (في وسط الأردن) تلقى رسالة من صلاح الدين يبلغه فيها أن والده بمصر مريض، ويخشى عليه الموت فيستغل المصريون الفرصة ويستولوا على البلاد ويمتنعوا فيها وأنه مضطر للرحيل إلى مصر[1]. وعندما علم نور الدين بذلك قال: إن حفظ مصر أهم عندنا من غيره[2] ثم لم تلبث أن جاءت الحوادث مصدقة لمخاوف صلاح الدين فقامت عنيه ثورة كبيرة بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر، كما قامت بعدها مؤامرة ضخمة شارك فيها عمارة اليمن وبقية أنصار المذهب الشيعي الرافضي وقد بينت ذلك فيما مضى. وفي عام 568هـ شن نور الدين الغارات على الصليبيين وكان العماد الأصفهاني راكباً مع الملك العادل وهو يقول له كيف تصف ما جرى ؟ فمدحه بقصيدة : وكان ذلك في دفاع نور الدين عن حوران فقال :

عُقدت بنصرك راية الإيمان ... وبدت بعصرك آية الإحسان
يا غالب الغُلْب الملوك وصائد ... الصيد اللُّيوث وفارس الفُرسان
يا سالبَ التِّيجان من أربابها ... حُزت الفخار على ذوي التِّيجان
محمود المحمود ما بين الورى ... في كل إقليم بكل لسان
يا واحداً في الفضل غير مُشارَكٍ ... أقسمت مالك في البسيطة ثان
أحلى أمانيك الجهاد وإنّه ... لك مؤذنٌ أبداً بكل أمان
كم بكر فتح ولَّدته ظُباك من ... حَربٍ لقمع المشركين عَوان

(1) المصدر نفسه (2/228).
(2) المصدر نفسه (2/228).

كم وقعةٍ لك بالفرنج حديثها ... قد سار فى الآفاق والبلدان
قَمَّصت قومَهُم رداء من ردًى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رِقَّ ملوكهم وتركتهم ... بالذُّل فى الأقياد والأسجان
وجعلت فى أعناقهم أغلالهم ... وسحبتهم هوناً على الأذقان
إذ فى السوابغ تحطمُ السُّمرُ القنا ... والبيض تخضبُ بالنَّجيع القانى
وعلى غِناءِ المشرفية فى الطُّلى ... والهام رَقصُ عوالى المُرَّان
وكأن بين النَّقع لَمْعَ حديدها ... نارٌ تألَّقُ من خلال دُخان
فى مأزق وردُ الوريد مُكفَّلُ ... فيه برِىَّ الصَّارم الظمآن
غطّى العجاج به نجوم سمائه ... لتنوب عنها أنجُمُ الخُرصان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا ... طُرُق الضَّلال ومركب الطُّغيان

ومنها :

وجلوت نور الدين ظُلمةَ كفرهم ... لَمَّا أتيت بواضح البُرهان
وهزمتهم بالرَّأى قبل لقائهم ... والرأى قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للإسلام ركناً ثابتاً ... والكُفر منك مضعضع الأركان
قوَّضت أساس الضَّلال بعزمك ... الماضى وشدت مبانى الإيمان
قل أين مثلُك فى الملوك مجاهدٌ ... لله فى سر وفى إعلان
لم تَلْقَهم ثقة بقوة شوكة ... لكن وثقت بنصرة الرّحمان
ما زال عَزمُك مستقلاً بالذى ... لا يَستَقِلُّ بثقله الثَّقلان
وبلغت بالتَّأييد أقصى مَبْلَغ ... ما كان فى وسع ولا إمكان
دانت لك الدُّنيا فقاصيها إذا ... حقَّقته لنفاذ أمرك دانى

فـمن العـراق إلى الشّـام إلى ذُرا مـصـر إلى قُـوص إلى أسـوان

لم تَلْهُ عن باقي البـلاد وإنما ألهـاك فـرض الغـزو عن هَمَـذان

للرُّوم والإفـرنج منك مـصـائب بالتـرك والأكـراد والعـربان

أذعنت لله المهـيـمن إذ عنت لك أوجـه الأمـلاك بالإذعـان

أنت الذى دون الملوك وجـدته مَـلآن من عُـرْف ومن عـرفـان

في بأس عـمرو في بسـالة حيـدر في نطق قُـسى في تُقَى سلمـان

سـرٌ لو أنَّ الوحي يَنْزل أنزلت في شـأنهـا سُـوَرٌ من القـرآن

فـأسلم طويلَ العُـمْر ممتـدَّ المدى صـافي الحيـاة مُخَلَّدَ السُّلطان(1)

1– **ضم المغرب الأدنى** : عمل صلاح الدين على تحصين إنجازاته التى حققها في مصر وذلك بتأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غرة وأسفرت جهوده عن ضم المغرب الأدنى. فقد كانت شمال إفريقة مرتبطة عضويا بمصر منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، فكان من الطبيعى أن تتجه أنظار صلاح الدين إلى ضم بلدانها للاستفادة من ثرواتها من جهة، وبفضل موقعها الجيد في حماية حدود مصر الغربية من جهة أخرى. ففي عام 568هـ/1173م أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش، غلام المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس، باستثناء المهدية وسفاقس، وقفصة، وتونس(2).

2– **ضم اليمن** : يدخل ضم اليمن المخطط النورى الهادف إلى توحيد جبهة إسلامية واحدة لمقاومة الغزو الصليبى(3) وقد حققت سياسة صلاح الدين في ضم اليمن إلى :

---

(1) كتاب الروضتين (2/243، 244).

(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 46.

(3) تاريخ اليمن الإسلامى د.محمد عبده السرورى ص 211.

أ- التضييق على أنصار الفاطميين وبخاصة أن والى اليمن عبد النبى بن مهدى كان شيعياً رافضياً ينتمى إلى خليفة مصر الفاطمى.

ب- استطاع صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبية، لأن ضم اليمن، الذى يُعدُّ مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب، يؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية ويبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبيين الذين يتطلعون للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التى تدين بالديانة النصرانية، حتى لا يقع بين فكى الكماشة الصليبية على سواحل البحر المتوسط فى الشمال، والأحباش على سواحل البحر الأحمر فى الجنوب.

ج- كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار تتنازعها الأهواء السياسية والدينية والمذهبية وبخاصة بين زبيد وصنعاء، كما ظهر دعى زعم أنه المهدى المنتظر هو عبدالنبى بن مهدى وتغلب على اليمن، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين، وتسمى بالإمام، وبنى على قبر أبيه قبَّة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ومنعهم من الحج إلى مكة.

د- أراد صلاح الدين وضع حد لهذه التجاوزات والمساوئ التى تهدد وحدة المسلمين وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم(1).

ومهما يكن من أمر، فقد : وجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه الذى ورد مكة فاعتمر بها وسار منها إلى زبيد، فامتلكها كما سار إلى عدن وامتلكها ومنع الجيش من نهبها وقال : ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكها، ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها، واستوثق له ملك اليمن بحذافيره وخطب للخليفة العباسى(2). وقتل الدعى المسمى بعبد النبى، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها(3)، وكتب شمس الدولة إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين

(1) تاريخ الأيوبيين فى مصر وبلاد الشام ص 48.
(2) الطريق إلى بيت المقدس ص 96.
(3) المصدر نفسه ص 96.

يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة بها له[1].

3- **فتح بلاد النوبة**: وكانت النوبة وقتها مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة تقع فى أعالى النيل، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام منذ الفتح الإسلامى. ولما قامت الدولة الأيوبية فى مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدى عليها من ناحية الجنوب وأرسل أخاه تورانشاه فى شهر جمادى الأخرة عام 568هـ/ شهر كانون الثانى عام 1173م إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى أماكن لم تطرقها سنابك خيل المسلمين من قبل وعين إبراهيم الكردى والياً عليها[2]، وكان هذا الفتح سبباً فى إزالة الحواجز التى كانت تؤول دون انتشار الإسلام[3] فيها.

ثامناً: حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين:

تحدث المؤرخون عن علاقة نور الدين بصلاح الدين، فقد روى ابن الأثير وذكر أبو شامة نقلاً عن ابن أبى طى أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين التى ابتدأت سنة سبع وستين وخمسمائة وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقى بنور الدين[4]، وأخذ عن ابن الأثير وابن أبى طى عدد من المؤرخين[5]، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تمحيص وغالوا فى تعليلاتهم وتفسيراتهم لأسباب الوحشة ونتائجها، فوصفوا العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية، ومن ذلك أن كل واحد منهما يخاف صاحبه وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين ويحبذ

---

(1) المصدر نفسه ص 96.

(2) تاريخ الأيوبيين فى مصر وبلاد الشام ص 49

(3) جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول د. فرستا ص 52.

(4) الباهر ص (158، 159) كتاب الروضتين (2/227).

(5) نور الدين زنكى فى الأدب العربى ص 116.

أن تظل منطقة الكرك فاصلاً بينه وبين نور الدين، ونور الدين فكر في أنه أخطأ في إنفاذ أسد الدين وصلاح إلى مصر ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين، وما إلى ذلك[1] وهذا التصورات الباطلة لا أصل لها إلا عند ابن أبي طي وابن الأثير :

فأما ابن أبي طي : فقد حاول بما أتقنه من الدس والكذب أن يطعن في العلاقة بين الرجلين وهو متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين كان قد أذلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوّى أهل السنة، وكان والد أبي طيّ من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب ولذلك نجد أن ابن أبي طيّ كثير التحامل على نور الدين ويحاول أن يلطخ العلاقة بين الرجلين العظيمين بأكاذيبه النتنه[2].

فأما ابن الأثير : فهو متهم فيما يكتبه عن صلاح الدين، فهو يلتمس المناسبات أحياناً لنقد صلاح الدين وتجريحه وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين[3] فمؤرخ البيت الزنكي في كتابيه الكامل في التاريخ والباهر في تاريخ الدولة الأتابكية قد ذكر الآراء في كتابيه والتي نقلها عنه عدد من المؤرخين، وفحواها أن صلاح الدين لم يكن وفياً لأستاذه نور الدين، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه في مصر إلى الاستقلال عنه، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام، فكل هذه الآراء[4]، كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين، والحقيقة أن اضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشم، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر كان من أجل إعادة الجبهة الإسلامية الموحدة، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد أجهد نفسيهما طويلاً في تكوينها، وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفصم، وترجع الأوضاع

(1) نور الدين محمود في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية ص 117.
(2) كتاب الروضتين (2/117، 118).
(3) دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك ص 62.
(4) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 22.

إلى ما كانت عليه سابقاً من سوء وتشرذم وضعف، بعد انقسام البيت الزنكي، حزب في دمشق وحزب في حلب، ولم يستطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعادة توحيد مملكة والده[1]، ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وإلى ابن نور الدين يخبره أن خروجه للشام، هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج[2]، وأغلب الظن أن هذه الأقوال التي رددها ابن الأثير، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكي، والروايات التي قيلت حول هذا الموضوع، قد صاغها المؤرخون وعلى رأسهم ابن الأثير لتعليل مسلك صلاح الدين بعد وفاة نور الدين وكان وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين، الذي قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى، خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في تاريخه الكامل والباهر، وتلمس له مواضع الزلل، وأسباب الخطأ[3]. وفي الحقيقة أن صلاح الدين كان نعم الجندي في السمع والطاعة لقائده نور الدين زنكي وإليك الأدلة على ذلك.

1. قال العماد الأصفهاني: أن صلاح الدين كان لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين[4].

2. وأما أبو شامة: فقد عمد إلى تفنيد اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين، وفي رأي أبي شامة. أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إسرافه في تفريق الأموال وصرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته[5] ويؤكد أبو شامة رأيه، بوثيقة وقف عليها بنفسه، بخط نور الدين، يقرر فيها للقاضي شرف الدين بن أبي عصرون، الذي تولى القضاء له بالشام

---

(1) المصدر نفسه ص 22.

(2) مرآة الزمان (8 / 327، 328) تاريخ مصر الإسلامية ص 22.

(3) التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص 38 – 49.

(4) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 23.

(5) المصدر نفسه.

ثم لصلاح الدين بمصر، وإعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصرة المذهب السني بمصر، والقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي، ويطلب من أبي عصرون مساندة صلاح الدين في هذا الأمر الجلل[1].

3. والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة: التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الدولة الفاطمية بمصر والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها، جاءت بأمر مباشر من نور الدين، ولم تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر، ليشرف بنفسه ويساعد ابنه للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية[2].

4. وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين وكونه نائباً عنه في حكم مصر من كونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية، إبان وزارته للخليفة الفاطمي العاضد[3] وإثر نقل الخطبة للعباسيين، كان الخطيب بمصر وأعمالها، يدعو لنور الدين بعد الخليفة، وقُررت السكة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين فنُقش اسم كل منهما في وجه[4].

5. وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر سنة 568هـ – 569هـ لكشف البلاد وارتفاعها ومراجعة حساباتها لتقرير القطيعة أو الوظيفة السنوية التي يدفعها صلاح الدين لنور الدين، أمراً طبيعياً يؤكد تبعية مصر لنور الدين[5].

6. لقد أدركت الخلافة العباسية، هذه الحقيقة الجوهرية، فميزت بوضوح بين الخِلَع الخليفية لنور الدين وبين الخِلَع الخليفية لصلاح الدين وجَعلت خِلع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين في حين قلّدت نور الدين بالسيفين، إشارة إلى

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 23.

(2) تاريخ مصر الإسلامية ص 24.

(3) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 24.

(4) السلوك للمقريزي (1/45) تاريخ مصر الإسلامية ص 24.

(5) تاريخ مصر الإسلامية ص 24.

تقليده لقطرى الشام ومصر، وفى نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خِلَعًا سيّرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر[1]، تأكيداً لتبعيتهم المباشرة له.

7. كان صلاح الدين يراعى التأدّب فى رسوم الملك، فلا يساوى نفسه بسيده نور الدين، فقد أرسل الرُسل من القاهرة إلى نور الدين لتخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح الدين على مداومة إرسال ما قُرر عليه من مال إلى نور الدين فى كل سنة[2].

8. وإذا كانت جميع الإجراءات التى اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية والخطبة لبنى العباس والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر قد تَمَّت بتوجيه مباشر من نور الدين وبعد إرساله لنجم الدين والد صلاح الدين فإن ضم صلاح الدين لليمن تم بإذن نور الدين للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية هناك، وضم اليمن لجبهة المقاومة بحيث أرسل نور الدين هذه البشارة بنفسه للخليفة العباسى وكذلك فى ضم المغرب الأدنى وغزو مملكة النوبة وبشر الخليفة العباسى بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس[3]. فقد كتب نور الدين إلى الخليفة العباسى : وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمَد الفتوح فى مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدنى قطاف الفاتحين لأهل الإسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضى الإمام ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة، ما تيسر فى هذه النَوبَة من افتتاح بعض بلاد النُوبَة، والوصول إلى مواضع منها، لم تَطرُقها سنابك الخيل الإسلامية فى العصور الخالية، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها.. حتى بلغوا إلى حدود المغرب[4].

9. ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر، حتى وفاة نور الدين داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمى إلى سيده نور الدين رمزاً للولاء والتبعية، وداوم

(1) مفرج الكروب (1/ 219) تاريخ مصر الإسلامية ص 25.
(2) السلوك للمقريزى (1/ 47) تاريخ مصر الإسلامية ص 26.
(3) مفرج الكروب (1/ 235) تاريخ مصر الإسلامية ص 27.
(4) مفرج الكروب (1/ 235) تاريخ مصر الإسلامية ص 27.

صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر، فنجده مثلاً يرسل إليه كتاباً يتضمن ذكر ثورة بقايا الفاطميين والتى كان من ضمنها عمارة اليمنى [1]، وليس أدلّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين من تفاهمهما الاستراتيجى فى قتال الفرنج، فيذكر أبو شامة أنه فى سنة 568هـ/1172م : تولى السلطانان نور الدين فى الشام وصلاح الدين من مصر فى هذه السنة جهاد الصليبيين، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ "جهاد السُّلطانين للفرنج"[2]، وهذا ما أكَّده صلاح الدين فى كتاب له للخليفة العباسى بقوله إنه: كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله، فى أن يتجاذبا طرفىً الغزاة من مصر والشام، والمملوك (أى صلاح الدين) بعسكره وبرّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره[3].

10. ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة 569هـ/1173م، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل، وضرب السكة باسمه[4]، ووافى إرسال الرسائل فى العزاء بنور الدين[5]، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إنَّه حتى وفاة نور الدين، كانت مصر والشام قد توحدتا تحت زعامة نور الدين[6] وما كان صلاح الدين إلا عاملاً له على مصر، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهانى حين امتدح نور لدين فقال :

بملك مصر أهنئ مالك الأمم ... فثق وأبشر بنصر الله عن أمم

فملك مصر وملك الشام قد نُظِمَا ... فى عقد عز من الإسلام منتظم[7]

---

(1) مفرج الكروب (1/235) تاريخ مصر الإسلامية ص 27.
(2) مفرج الكروب (1/228) المصدر نفسه ص 27.
(3) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ الشعوب الإسلامية ص 27.
(4) السلوك (1/55) تاريخ مصر الإسلامية ص 28.
(5) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 28.
(6) تاريخ مصر الإسلامية .
(7) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 28.

وفي كل الأحوال لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء ولا مسوغ لاعتبار الاختلاف في الرأى وحشة ونفرة كما يقرر ذلك عدد من المؤرخين والكتاب، وكل ما هنالك أنّ نور الدين كان يتطلع إلى مصر على أنها مصدر للواردات ويسد بها نفقات الجهاد ضد الصليبيين في الشام، وأنها مصدر للطاقة البشرية المجاهدة وكان صلاح الدين أكثر معرفة من نور الدين لما يجرى في مصر من أخطار ناجمة عن استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج فوجه اهتمامه إلى بناء جيش قوى، بحيث يستطيع السيطرة على مصر، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام[1]، وهذا يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذى بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك، حيث قال: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها[2].

إن صلاح الدين سار على نهج نور الدين في التمكين للمشروع السنى والقيادة في الإسلام ليست حكراً على الأسرة الزنكية ولا الأيوبية أو عائلة معينة مهما على شأنها ولكن من تقدمه أعماله – بعد توفيق الله له – ويلقى من المسلمين المحبة والتقدير والدعم والتأييد فهو المقدم، فأبو بكر رضى الله عنه قدمته الأمة بعد نبيها وبايعته وكذلك عمر فأكمل المسيرة وسار عثمان من بعده وعلى رضى الله عنهم. فخدمة الدين والمسلمين مقدمة على كل شيء في ثقافة صلاح الدين.

تاسعا: وفاة نور الدين محمود: قال العماد الأصفهاني:

وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلقت محالُّ دمشق أياما. قال: ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها:

عيدان: فطرٌ وطُهرُ ... فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه ... حقاً هناء وأجر

(1) نور الدين زنكى في الأدب العربي في الحروب الصليبية ص 119.
(2) زبدة حلب (2/339) نور الدين زنكى في الأدب العربي في الحروب الصليبية ص 119.

وفـيـهـمـا بالتّـهـاني رسمٌ لنا مستمر
طـهـارة طاب منهـا أصل وفـرع وذكـر[1]

قال : وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له : هذا آخر الأعياد ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمى القبق وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفراشي قاضي العسكر، بعد أن صلى به وذكّر، وعاد القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص[2]، .. وفي يوم الاثنين والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته والي حلب وقد جرّب الدهر بحنكته .. فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه : هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين : قل هل نكون بعد شهر، فإنّ السنة بعيدة، فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُش وقال له : باش[3]، فأحدث الغيظ والاستيحاش واغتاظ على خلاف مذهبه وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله والنّاس من الختان لاهون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلاّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح[4]. قال : واتصل مرض نور الدين

(1) كتاب الروضتين (2/ 308).
(2) المصدر نفسه (2/ 308).
(3) كتاب الروضتين (2/ 308).
(4) المصدر نفسه (2/ 309).

وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادى عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين[1]، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها[2] " وقد توفي يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسة مئة" ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التى بناها لأصحاب أبى حنيفة رحمه الله جوار الخواصين فى الشارع الغربى رحمه الله تعالى[3]. وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول : طالما تعرضت للشهادة فلم أُدْرِكْها وقال الذهبى : قد أدركها على فراشه وعلى ألسنة الناس: نور الدين الشهيد[4]، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهانى :

الدِّين فى ظُلم لغيبة نوره ... والدهر فى غُمم لفقد أميره
فليندُب الإسلامُ حاميَ أهله ... والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار فى أخطاره ... إذ كان هذا الخطب فى مقدوره
ما أكثر المتأسفين لفقد من ... قرن نواظرهم بفقد نظيره
ما أغوصَ الإنسانَ فى نسيانه ... أو ما كفاه الموت فى تذكيره
من للمساجد والمدارس بانيا ... لله طوعاً عن خُلُوص ضميره
من ينصر الإسلام فى غزواته ... فلقد أصيب بركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ... من للهُدى يبغى فكاك أسيره
من للخطوب مذللاً لجماحها ... من للزمان مُسهلاً لوعُوره

---

(1) المصدر نفسه (2/310) .
(2) المصدر نفسه (2/313) .
(3) المصدر نفسه (2/313) .
(4) سير أعلام النبلاء (20/537) .

من كـاشفٌ للمـعـاضـلات بـرأيه ... من مُـشـرقٌ فـي الدَّاجـيـات بـنوره
من للكريـم ومن لنعش عِـشـاره ... من لليـتـيَـم ومن لجـبـر كـسـيـره
من للبـلاد ومن لنصـر جـيـوشـهـا ... من للجـهـاد ومن لحـفـظ أُمـوره
من للفـتـوح مـحـاولاً أبكارها ... بـرواحـه غـزوه وبـكـوره
من للعُـلا وعُـهـودها من للنَّدَى ... ووفـوده من للحـجـا ووفـوره
ما كنت أحسب نور دينِ محمدٍ ... يخـبـو وليلُ الشـرك في دَيْجـوره
أعـزز عليَّ بليث غـاب للهُـدى ... يـخلو الشَّـرى من زوره وزئيـره
أَعْـزِز عليَّ بأن أراه مُـغـيَّـبـا ... عن مـحـفل مـتـشـرقٍ بحـضـوره
لهـفي على تلك الأنامل إنَّهـا ... مُـذ غُـيـبـت غـاض النَّدَى ببحـوره
ولقـد أتى من كنت تُجرى رسـمـه ... فـضع العـلامـة منك في منشـوره
ولقـد أتى من كنت تكشف كُـربَه ... فـارفع ظلامـتـه بنصـر عشـيـره(1)
ولقـد أتى من كنت تؤمن سـربَهُ ... وقِّع له بالأمن من مـحـذُوره
ولقـد أتى من كنت تؤثر قُـربَه ... فـأدِم له التَّـقْـرِيبَ في تقـريره
والجـيش قـد ركب الغـداة لعَرْضِه ... فـاركب لتـبـصـرهُ أوان عـبـوره
أنت الذى أحـيـيت شرع مـحـمـد ... وقـضـيت بعـد وفـاته بنشـوره
كم قـد أقمت من الشَّـريعة مَعْلمـاً ... هو مُنْذ غـيـبتَ مُـعـرضٌ لدثوره
كم قـد أمـرت بحفـر خندق مَعْقل ... حـتى سكَنت اللَّحْدَ في مـحـفوره
كم قـيـصـرٍ للروم رُمْتَ بقـسـره ... إرواء بـيض الهـنـد من تامـوره(2)
أُوتيت فـتـح حـصـونه وملكت ... عَـقـر بلاده وسبـيتَ أهل قـصـوره

(1) كتاب الروضتين (2/369).

(2) التامور: النفس ومهجتها.

أَزَهِدْتَ فـي دار الفـنـاء وأهـلـهـــــا ... ورَغـبـت فـى الخُلْدِ المقـيـم وحُـوره
أوَمَـا وعـدت القُـدْسَ أنك مُنجـزٌ ... مـيـعـاده فى فـتـحـه وظهـوره
فـمتى تجـيـر القُدْسى من دَنسِ العدَى ... وتـقـدَّس الرحـمن فى تطهـيـره
يا حـاملين سـريره مـهـلاً فـمن ... عَجَبٍ نهوضكم بحمل ثبيـره[1]
يا عـابرين بنعـشـه أنشـقـتُمُ ... من صـالح الأعـمـال نشـر عبـيره
نـزلت مـلائكة السـمـاء لدفنه ... مستجمعين على شفير حضيره
ومنَ الجـفـاء له مـقـامي بعـده ... هلاً وفـيتُ وسـرتُ عند مـسيـره
حَيَّاك مُعْتلُ الصبا بنسيمه ... وسقاك مُنْهَلُ الحيا بدروره
ولبِسْتَ رضوان المهيمن ساحباً ... أذيال سُندس خـزِّه وحريره
وسكنت عليين في فِرْدَوْسِهِ ... حِلفَ المسَرَّة ظافـراً بأجـوره[2]

وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاده تلميذه الذكى وجنديه المخلص صلاح الدين الأيوبى الذى بنى جهاده على ما أسَّسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها.

(1) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة.
(2) المصدر نفسه.

أهم المراجع والمصادر

1- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تقى الدين أحمد بن على المقريزى دار الفكر العربى، 1367هـ - 1948م.

2- أثر الشرق الإسلامى فى الفكر الأوروبى خلال الحروب الصليبية، د.عبدالله بن عبدالرحمن الربيعى، الرياض، 1415هـ.

3- أسامة بن منقذ، والجديد من آثاره وأشعاره، محمد عدنان قيطاز، وزارة الثقافة فى الجمهورية السورية 1998م.

4- أسباب الضعف فى الأمة الإسلامية د.محمد السيد الوكيل، دار المجتمع السعودية، الطبعة الأولى،.

5- أصول الشيعة الإمامية، ناصر عبدالله بن على القفارى، دار الرضا للنشر والتوزيع الجيزة بمصر الطبعة الثالثة، 1418هـ - 1998م.

6- أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى د. جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية الطبعة الأولى، 1977م.

7- أعمال الفرنجة، ترجمة حسن حبشى.

8- الأدب العربى من الانحدار إلى الازدهار، جودت الركابى، دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر دمشق الطبعة الثانية 2001م.

9- الاستخبارات العسكرية فى الإسلام، عبدالله على السلامة مناصرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1412هـ - 1991م.

10- الإسلام وحركة التاريخ، أنور الجندى.

11- الاعتبار لابن منقذ، حرّره فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

12- الإعداد المعنوى والمادى للمعركة فى ضوء القرآن والسنة، د. فيصل بن جعفر ابن عبدالله بالى مكتبة التوبة السعودية، الطبعة الأولى،، 1419هـ - 1999م.

13- الإمارات الأرتقية فى الشام والجزيرة، عماد الدين خليل.

14- الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، د. يوسف القرضاوى، الطبعة الثالثة، 1413هـ - 1992م.

15- البداية والنهاية للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، دار هجر الطبعة الأولى ، 1419هـ - 1998م.

16- البطولة والفداء عند الصوفية دراسة تاريخية أسعد الخطيب، مطبعة الشام، الطبعة الثانية.

17- البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، تأليف ابن عذارى المراكشي، تحقيق ليفي بروفنسال.

18- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي.

19- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طليمات، القاهرة 1963م للمؤرخ ابن الأثير.

20- التاريخ الحربي المصرى في عهد صلاح الدين، نظير حسان سعداوى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1957م.

21- التاريخ السياسي والفكرى للمذهب السنى في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجرى حتى سقوط بغداد، د.عبدالمجيد أبو الفتوح بدوى، الطبعة الثانية، 1408هـ - 1988م.

22- التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان عباس العزاوى، طبع ببغداد، 1376هـ/1957م.

23- الثبات على دين الله وأثره في حياة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، د. الأمين الصادق الأمين دار ابن الجوزى، الطبعة الأولى، 2004م.

24- الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي د. فايد حامد محمد عاشور دار الاعتصام الطبعة الأولى،.

25- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، مسفر بن سالم بن عريج الغامدى، دار المطبوعات الحديثة الطبعة الأولى،، 1406هـ - 1986م.

26- الجهاد والتجديد، محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى ، 1419هـ/ 1998م.
27- الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، د.محسن محمد حسين مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ، 1406هـ - 1986م.
28- الحافظ أبو طاهر السلفي، د.حسن عبدالحميد صالح، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1977م.
29- الحرب الصليبية حسن حبشي، الطبعة القاهرة 1958م.
30- الحركة الصليبية، سعيد عاشور، الطبعة الرابعة 1986، مكتبة الأنجلو المصرية.
31- الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب محمد مؤنس، الطبعة الأولى، 1999 / 2000م عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر.
32- الحروب الصليبية المقدمات السياسية د. علية الجنزوري الهيئة العامة المصرية للكتاب.
33- الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري د. ممدوح حسين، دار عمار طبعة 1989م.
34- الحروب الصليبية مواقف وتحديات، سهيلة الحسيني، دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة، الطبعة الأولى ، 1243هـ - 2003م.
35- الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحمد أبو زيد.
36- الحروب الصليبية، أرنست باركر، نقله إلى العربية د.السيد الباز العريني دار النهضة العربية بيروت.
37- الحروب المقدسة الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، كارين أرمسترونغ.
38- الخطط للمقريزي.
39- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية د. قاسم عبدالله الطبعة القاهرة 1987م.

40- الدبلوماسية الإسلامية، عبدالرحمن محمد عبدالرحمن دار اليقين، مصر المنصورة، رسالة دكتوراه جامعة الأزهر الشريف.
41- الدولة الأيوبية، سمير فراج بن الشاطئ، مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة، طبعة أولى 2005م.
42- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، د.علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
43- الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي، مؤسسة اقرأ.
44- الشرق الأدنى، في العصور الوسطى الأيوبيون د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية.
45- الشرق الأوسط والحروب الصليبية، السيد الباز العريني، طبعة القاهرة 1317هـ.
46- الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، هادية دجاني مؤسسة الدّراسات الفلسطينية الطبعة الأولى، 1994م.
47- الطائفة المنصورة في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، الطبعة الأولى، 1425هـ - 2004م.
48- الطريق إلى بيت المقدس د.جمال عبدالهادي د.وفاء محمد رفعت، دار التوزيع والنشر الإسلامية طبعة ثانية، 1422هـ - 2001م.
49- العدوان الصليبي على العالم الإسلامي صلاح الدين نوار.
50- العرب والروم اللاتين في الحروب الصليبية الأولى دكتور جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية بيروت، طبعة ثالثة 1981م.
51- العمارة العربية في مصر الإسلامية.
52- الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، د.علي عبدالحليم دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ، 1414هـ - 1993م.
53- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود الدار القومية للطباعة والنشر 1965م.

54- الفتوح الإسلامية عبر التاريخ د.عبدالعزيز بن إبراهيم العمرى دار إشبيليا، الطبعة الأولى ، 1418هـ - 1997م.
55- الفرق بين الفرق، تأليف عبدالقاهر بن طاهر البغدادى، تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد طبعة دار المعرفة بيروت.
56- الفنون الإسلامية فى العصر الأيوبى د. عبدالعزيز صلاح الدين سالم، مركز الكتاب للنشر، 1420هـ - 2000م.
57- القاضى الفاضل عبدالرحيم البيسانى العسقلانى هادية دجانى شكيل، مؤسسة الدراسات الفلسطينية الطبعة الثانية، بيروت 1999م.
58- القدس تحت الحكم الصليبى ودور صلاح الدين فى تحريرها د. شفيق جاسر أحمد محمود، مكتبة الدار بالمدينة، الطبعة الأولى ، 1409هـ - 1989م.
59- القدس تناديكم أحمد عبدربه بصبوص، دار البشير عمان الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.
60- القدس فى العهدين الفاطمى والأيوبى د. وائل عبدالرحيم عبيد، الطبعة الأولى ، 1426هـ - 2005م.
61- القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط، أرشيالد لويس.
62- الكامل فى التاريخ لابن الأثير، دار المعرفة بيروت لبنان.
63- الكواكب الدرية فى السيرة النورية، تقى الدين أحمد بن قاضى شهبة، تحقيق: محمود زايد طبعة بيروت 1971م.
64- المدارس العصرونية فى بلاد الشام د. صادق أحمد داوود جودة، مؤسسة الرسالة، دار عمار، الطبعة الأولى ، 1406هـ - 1986م.
65- المستدرك على الصحيحين فى الحديث للحاكم أبى عبدالله النيسابورى.
66- المستشفيات الإسلامية من العصر النبوى إلى العصر العُثمانى، عبدالله عبدالرزاق مسعود السعيد دار الفياء عمان الأردن، الطبعة الأولى ، 1408هـ - 1987م.

67– المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى، عماد الدين خليل، دار ابن كثير، الطبعة الأولى ، 1426هـ – 2005م.
68– الملل والنحل، تأليف محمد عبدالكريم الشهرستانى، تحقيق محمد سيد كيلانى، جمع مصطفى البابى الحلبى بمصر، 1387هـ/1967م.
69– الموسوعة الشاملة فى تاريخ الحروب الصليبية د.سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، سوريا الطبعة الأولى،.
70– النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ابن تغرى بردى جمال الدين أبو المحاسن يوسف.
71– النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية بهاء الدين بن شداد، تحقيق أحمد ايبيش، دار الأوائل سوريا، الطبعة الأولى، 2003م.
72– الوافى بالوفيات، تأليف صلاح الدين بن أيبك الصفدى – تحقيق : هملوت ريتر – طبع: دار النشر فرانز ستانير (ألمانيا)، 1381هـ/1962م.
73– الوجير فى الشام أرض الأنبياء ومهد الأصفياء منير عدور، دار الفارابى للمعارف، دمشق الطبعة الأولى ، 1420هـ – 2000م.
74– الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة طبعة 1425هـ – 2004م مطبعة الزهراء الحديثة.
75– الوحدة الإسلامية بين الأمس واليوم، إبراهيم النعمة طبعة 1425هـ –2004م مطبعة الزهراء الحديثة.
76– الوسيط فى تاريخ فلسطين فى العصر الإسلامى فاروق عمر فوزى د.محسن محمد حسين، دار الشروق.
77– إمارة الرها، علية الجنزورى.
78– أوروبا فى العصور الوسطى، سعيد عبدالفتاح عاشور.
79– أيعيد التاريخ نفسه، محمد العبدة، الطبعة الثالثة، 1419هـ – 1999م.
80– بحوث فى تاريخ الحضارة الإسلامية، مجموعة البحوث التى ألقيت فى ندوة الحضارة الإسلامية فى ذكرى الأستاذ الدكتور أحمد فكرى عام 1976م، الناشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية.

81- بغية الطلب فى تاريخ حلب.
82- بيت المقدس أمام أحداث التاريخ وديع تسلحوق.
83- بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية د. عبدالجليل حسين عبدالمهدى، دار البشير، الطبعة الثانية، 1415هـ - 1995م.
84- بيت المقدس فى أدب الحروب الصليبية.
85- بيت المقدس والمسجد الأقصى دراسة تاريخية مؤثقة محمد محمد حسن شُرَّاب، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى ، 1415هـ - 1994م.
86- تاريخ ابن خلدون.
87- تاريخ ابن خلدون.
88- تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة عشر، 1411هـ - 1991م.
89- تاريخ الأيوبيين فى مصر وبلاد الشام والجزيرة، محمد سهيل طقوس، دار النفائس الطبعة الأولى، لبنان، 1400هـ - 1999م.
90- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د.السيد الباز العرينى، الطبعة الثالثة، 1413هـ - 1993م.
91- تاريخ الحروب الصليبية، سعيد عبدالله البيشاوى محمد مؤنس عوض، منشورات بيت المقدس، طبعة عام 2004م.
92- تاريخ الزنكيين فى الموصل وبلاد الشام، محمد سهيل د.محمد سهيل طقّوس، دار النفائس بيروت لبنان الطبعة الأولى ، 1419هـ - 1999م.
93- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان دار العلم للملايين بيروت لبنان طبعة 14عام 2000م.
94- تاريخ الفاطميين، سهيل طقوس دار النفائس بيروت، لبنان.
95- تاريخ الفاطميين، محمد سهيل طقوس، دار النفائس الطبعة الأولى،.
96- تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، الطاهر أحمد الزاوى دار التراث العربى، الطبعة الثالثة.

97- تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، للطاهر الزاوى دار التراث العربى، ليبيا، الطبعة الثالثة.
98- تاريخ القبائل العربية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، د.محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة طبعة 1998م.
99- تاريخ الوطن العربى والغزو الصليبى، خاشع المعاضيدى سوادى عبد محمد، دريد عبدالقادر نورى، الطبعة الثانية 1986م.
100- تاريخ اليمن الإسلامى د.محمد عبده السرورى مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء الطبعة الثانية 2003م.
101- تاريخ دولتى المرابطين والموحدين، د.على الصَّلاَّبى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
102- تاريخ سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى ، 1423هـ- 2002م.
103- تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب د.أحمد فؤاد سيد، مكتبة مدبولى طبعة 2002م.
104- تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، على محمد الصَلاَّبى، دار الصحابة الشارقة، طبعة أولى.
105- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضى عياض، تحقيق د.أحمد بكير محمود، طبع مكتبة الحياة - بيروت.
106- تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبدالعزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.
107- تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تحقيق عبدالعزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم مطبعة الشعب، القاهرة، مصر.
108- تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطى والمحلاوى.
109- تنظيم صفة الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية، د.جميل عبدالمجيد عطية، مكتبة العبيكان الطبعة الأولى، 2002م.

110– جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول د.فرست مرعي صنعاء 2003م الطبعة الثانية المنتدى الجامعي.
111– جهاد المسلمين في الحروب الصليبية د.فايد عاشور: مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة، 1405هـ.
112– جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة د.إبراهيم التهامي، مؤسسة الرسالة ناشرون الطبعة الأولى ، 1426هـ – 2005م. لبنان سوريا.
113– حاضرة العرب، ترجمة عادل زعيتر.
114– حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، اللواء الركن د. ياسين سويد، دار الملتقى للطباعة والنشر، طبعة عام 1997م بيروت، لبنان.
115– حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها د.محمود إبراهيم دار البشير عمان، الطبعة الأولى،، 1407هـ – 1987م.
116– حطين وقائع وعبر، عبدالفتاح عاشور.
117– حُكم قراقوش، الأمير المفترى عليه بهاء الدين قراقوش، دار البيارق عمان سمير عزام الطبعة الأولى ، 1420هـ – 1999م.
118– حياة صلاح الدين، محمود شلبي، دار الجيل بيروت، الطبعة الثالثة، 1409هـ – 1989م.
119– خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، د.عاصم محمد رزق، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الأولى ، 1417هـ – 1997م.
120– دراسات تاريخية د.عماد الدين خليل.
121– دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، د. نعمان محمود جبران د. محمد حسن العمادي، الطبعة الأولى،، 2000م.
122– دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دكتور السيد عبدالعزيز سالم، د. سحر عبدالعزيز سالم مؤسسة شباب الجامعة 1992م، الإسكندرية.
123– دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب محمد مؤنس عوض.

124- دراسات فى تاريخ المغرب الإسلامى، عز الدين عمر أحمد موسى، دار الشروق، الطبعة الأولى ، 1403هـ - 1983م.

125- دراسة وثيقة للتاريخ الإسلامى ومصادره من عهد بنى أمية حتى الفتح العثمانى لسورية ومصر، محمد ماهر حماده، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1408هـ.

126- دروس وتأملات فى الحروب الصليبية لأبى فارس دار الفرقان، عمان، الأردن.

127- دور الفقهاء والعلماء فى الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية د. آسيا سليمان نقلى، مكتبة العبيكان 2002م.

128- دور المرأة فى الاستخبارات الإسلامية د. سلامة محمد الهرفى البلوى، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1994م.

129- دور نور الدين فى نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، عبدالقادر أحمد بو صينى رسالة دكتوراه، معهد التاريخ العربى والتراث العلمى للدراسات العليا.

130- دول الإسلام للذهبى، شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى دار صادر بيروت الطبعة الأولى، 1999م.

131- دولة السلاجقة للصَّلاَّبى، دار المعرفة الطبعة الأولى، 1427هـ - 2006م.

132- ديوان ابن الخياط.

133- ذيل دمشق، أبو يعلى حمزة ابن القلانسى، تحقيق أميدروز، طبعة بيروت 1908م.

134- رجال الفكر والدعوة، أبو الحسن الندوى، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.

135- رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية تأليف أبى بكر عبدالله بن محمد المالكى تحقيق بشير البكوش - طبع: دار الغرب الإسلامى، 1403هـ - 1983م.

136- زبدة حلب من تاريخ حلب، كمال الدين أبو القاسم ابن العديم، تحقيق سامى الدهان طبعة دمشق 1954م.

137– سقوط دولة الموحدين، د. مراجع عقيلة الغناى، 1409هـ – 1988م منشورات جامعة قاريوس.
138– سلاجقة إيران والعراق عبدالمنعم حسين.
139– سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق : عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر: محمد السيد.
140– سنن الترمذى الجامع تأليف : محمد عيسى بن سورة الترمذى، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر – مطبعة مصطفى البابى الحلبى – الطبعة الأولى، 1356هـ.
141– سنن سعيد بن منصور.
142– سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد أحمد الذهبى مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة 1990م.
143– شجرة النور الزنكية فى طبقات المالكية : تأليف محمد بن محمد مخلوف، طبع دار الكتاب العربى بيروت.
144– شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلى، دار الآفاق الجديدة.
145– شرف الدين مودود، عبدالغنى رمضان.
146– شعر الجهاد الشامى فى مواجهة الصليبيين د.فؤاد حسن حسين أبو الهيجاء، دار المناهج للنشر والتوزيع عماد الأردن، الطبعة الأولى، 1424هـ –2004م.
147– شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام د.محمد على الهرفى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، 1400هـ – 1980م.
148– شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب لأحمد بن إبراهيم الحنبلى، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، طبعة عام 1996م – 1415هـ.
149– صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت طبعة 1989م.

150- صحيح البخارى لأبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى، دار الفكر الطبعة الأولى، 1411هـ - 1991م.
151- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيرى، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، طبع دار إحياء الكتب العربية القاهرة، الطبعة الأولى، (1374هـ - 1955م).
152- صفة الغرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزى الطبعة الثانية، 1412هـ - 1991م المملكة العربية السعودية.
153- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامى، د.على محمد الصَّلاَّبى، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، 1428هـ - 2007م.
154- صلاح الدين الأيوبى أبو الحسن على الحسنى الندوى، دار القلم دمشق - بيروت، الطبعة الثالثة، 1400هـ - 1980م.
155- صلاح الدين الأيوبى الأتقى فى الإسلام البيرشاندور ترجمه عن الفرنسية سعيد أبو الحسن الطبعة الثانية، 1993م.
156- صلاح الدين الأيوبى بطل الإسلام الصالح مجموعة من الأخصائيين التربويين، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1988م.
157- صلاح الدين الأيوبى بين العباسيين والفاطميين والصليبيين دار الجديد، طبعة ثانية جديدة طبعة 2000م.
158- صلاح الدين الأيوبى قاهر العدوان الصليبى، محمد بيومى دار القلم، دمشق.
159- صلاح الدين الأيوبى ورقة عمل لقادة الدعوة الإسلامية، دار الإيمان، د. بسام الزرقا.
160- صلاح الدين الأيوبى وسقوط القدس وتحريرها.
161- صلاح الدين الأيوبى، أحمد عبدالجواد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت الطبعة الأولى، 1424هـ - 2004م.
162- صلاح الدين الأيوبى، السير هاملتون. آ. ر. جب مكتبة بيسان.
163- صلاح الدين الأيوبى، قدرى قلعجى الطبعة الثالثة 1997م المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت، لبنان.

164- صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد المفترى عليه، شاكر مصطفى، دار القلم دمشق.
165- صلاح الدين القائد وعصره د. مصطفى الحيارى، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الأولى، 1415هـ.
166- صلاح الدين سقوط القدس وتحريرها، قراءة معاصرة وليد نويهض، دار ابن حزم لبنان، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1997م.
167- صلاح الدين والصليبيون استرداد بيت المقدس، عبدالله سعيد محمد الغامدى، دار الفضيلة بيروت، لبنان، 1405هـ - 1985م.
168- صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، د. أحمد الشامى، الطبعة الأولى، 1991م مكتبة النهضة المعربية، القاهرة.
169- صلاح الدين وتحرير القدس، علية المهتدى الزبدة الطبعة الأولى، 1414هـ - 1994م وزارة الثقافة الأردنية.
170- صلاح الدين، عبدالله علوان، دار السلام مصر.
171- طبيعة العامة فى مصر فى العصر الأيوبى شلبى إبراهيم الجعيدى، الهيئة المصرية للكتاب 2003م.
172- عصر الدولة الزنكية، د. على محمد الصَّلاَّبى مؤسسة إقرأ، القاهرة مصر.
173- عماد الدين زنكى، عماد الدين خليل، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.
174- عمران القاهرة وخططها فى عهد صلاح الدين الأيوبى د. عدنان محمد فايز الحارثى، مكتبة زهراء الشرق القاهرة.
175- عيون الروضتين فى أخبار الدولتين، شهاب الدين أبو شامة، حققه أحمد البيسومى وزارة إحياء التراث العربى، دمشق 1991م.
176- فن الصراع الإسلامى الصليبى - السياسة الخارجية للدولة النورية، د. محمد مؤنس أحمد عوض، عين للدراسات والبحوث الطبعة الأولى، 1998م.
177- فى التاريخ الأيوبى والمملوكى د. أحمد مختار العبادى مؤسسة شباب الجامعة.

178- قصة الحضارة : ول ديورانت - ترجمة محمد بدران طبع لجنة التاليف والترجمة والنشر 1957م.
179- كتاب التوحيد لمحمد عبدالوهاب.
180- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.
181- لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد الأقصى وإحباط المؤامرة العالمية على الأمَّة الإسلاميَّة د. مجاهد مجد الدين بن صلاح الدين، الطبعة الأولى، 1414هـ - 1994م.
182- ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر د. صالح مصطفى مفتاح المزيني، منشورات جامعة قريونس بنغازى، الطبعة الثالثة 1994م.
183- ماهية الحروب الصليبية، الإيديولوجية، الدوافع، النتائج، قاسم عبده قاسم، ذات السلاسل الكويت الطبعة الثانية، 1993م.
184- مجاهد الدين قايماز نائب إربد الموصل، د. صادق أحمد جودة، مؤسسة الرسالة ودار عمار، الطبعة الأولى، 1406هـ - 1985م.
185- محاضرات فى الفكر والدعوة للندوى، أبى الحسن الندوى، دار ابن كثير، دمشق الطبعة الأولى، 2001م.
186- مختصر صحيح مسلم للمنذرى.
187- مختصر كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، اختصار وتعليق د. محمد بن حسن بن عقيل موسى دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1997م.
188- مدرسة الحديث بالقيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامى، الطبعة الأولى، 1411هـ.
189- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، سبط بن الجوزى حيدر آباد الدكن 1951م.
190- مصر فى العصور الوسطى من العصر المسيحى حتى الفتح العثمانى، محمود محمد الحويرى الطبعة 2002م المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات.

191- مصر والشام فى عهد الأيوبيين والمماليك د. سعيد عبدالفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت.
192- مظاهر الحضارة الإسلامية فى اليمن فى العصر الإسلامى د. أسامة أحمد حمّاد، مركز الإسكندرية للكتاب الطبعة الأولى، 1425هـ - 2004م.
193- معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان، تأليف عبدالرحمن بن محمد الأنصارى الدباغ، تحقيق إبراهيم سبوح - طبع مكتبة الخانجى بمصر - الطبعة الثانية.
194- معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية محمود سعيد عمران.
195- معاهدات الصلح والسلاح بين المسلمين والفرنج.
196- معجم البلدان، شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت الحموى، بيروت، دار صادر 1979م.
197- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل.
198- مقاتلون فى سبيل الله، جيمس رستون الابن نقله إلى العربية رضوان السيد، مكتبة العبيكان، طبعة 2002م.
199- مقومات النّصر فى ضوء القرآن والسنة د. أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية صيدا - بيروت الطبعة الأولى، 1420هـ - 1999م.
200- مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق.
201- من أجل فلسطين مواقف عبر التاريخ الإسلامى حُسنى أدهم جَرَّار، مؤسسة الزيتونة، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م، دار البشير.
202- موسوعة المغرب العربى للغنيمى، عبدالفتاح مقلد الغنيمى، الناشر، مكتبة مدبولى، طبعة 1979م.
203- موسوعة تاريخ العرب، العصر الأيوبى عبدالمنعم الهاشمى، دار البحار بيروت الطبعة الأولى،.
204- موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبى جمال محمد سالم خليفة، الجماهيرية الليبية، جامعة الفاتح، 2000م.

205- نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية عمر الساريس دار المنارة، جدة السعودية الطبعة الأولى، 1405هـ - 1985م.
206- نظام الملك، الحسن بن على بن إسحاق الطوسى د.عبدالهادى محمد رضا محبوبة، الدار المصرية اللبنانية.
207- نهر الذهب فى تاريخ حلب، كامل بن حسين الغزى، المطبعة النورية.
208- نور الدين زنكى فى الأدب العربى فى عصر الحروب الصليبية، تأليف محمود فايز إبراهيم السرطاوى دار البشير عمّان الأردن الطبعة الأولى، 1411هـ - 1990م.
209- نور الدين محمود والصليبيون، حسن حبشي.
210- نور الدين محمود، الرجل والتجربة، عماد الدين خليل، دار القلم، 1400هـ - 1980م.
211- نور الدين محمود، حسين مؤنس، الدار السعودية الطبعة الثالثة، 1408هـ - 1987م.
212- هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى د. عماد الدين خليل مكتبة النور، الطبعة الأولى، 1407هـ - 1986م.
213- هكذا ظهر جيل صلاح الدين د.ماجد عرسان الكيلانى، دار القلم، الإمارات العربية الطبعة الثالثة، 1423هـ - 2002م.
214- هموم داعية، محمد الغزالي، دار القلم.
215- واقدساه، د. سيد حسين العفّاني، مكتبة معاذ بن جبل، دار العفاني، الطبعة الأولى، 1421هـ - 2001م.
216- وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، محمد ماهر حماده، بيروت 1986م.
217- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت.

فهرس المحتويات